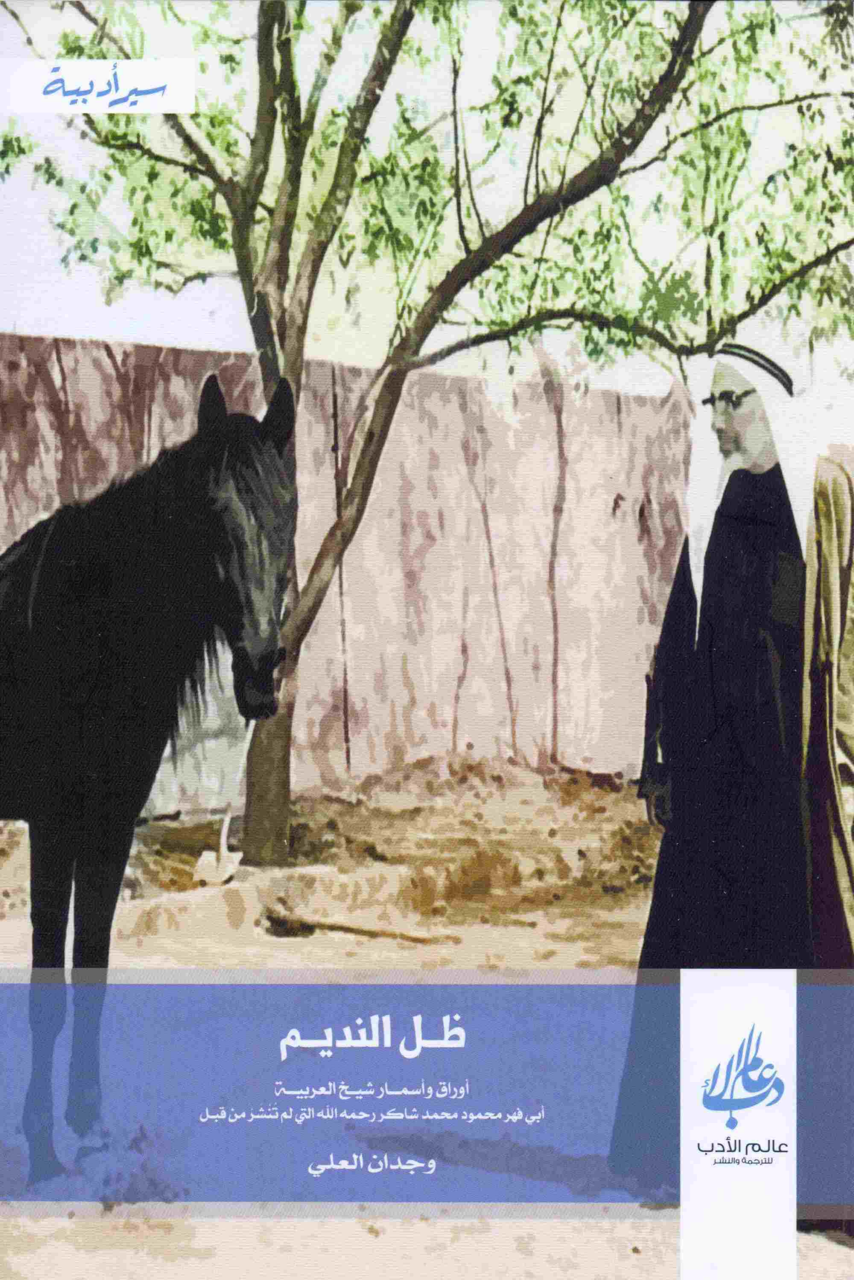


سير أدبية

ظل النديم

أوراق وأسمار شيخ العربية
أبي فهر محمود محمد شاكر رحمه الله التي لم تُنشر من قبل

وجدان العلي

عالم الأدب
للترجمة والنشر

ظـل النديـم

هنا صمتٌ طال سكوته، وأخبارٌ وأحاديثُ كانت محجوبةٌ في بيداء الغيب، جئتُ بها إليك لترى بعض ما كان مستورًا عن شيخ العربية العلامة الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر رحمه الله! وقد نثرتُ بين يديك بعض ما جمعه الصبر الدائبُ والحب الظامئُ طيلة أربعة عشر عامًا أو يزيد، عن رجل فذٍّ غاب عنا، وفاتنا لقاؤه.. هذه أخباره وأسماره وبعض أوراقه العتيقة.

عالم الأدب
للترجمة والنشر

الثمن: ١٠ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 9789776539044
9 789776 539044

info@aalamaladab.com

ظـل النديـم

بسم الله الرحمن الرحيم

سير أدبية

ظل النديم

أوراق وأسمار شيخ العربية
أبي فهر محمود محمد شاكر رحمه الله التي لم تُنشَر من قبل

وجدان العلي

عالم الأدب للترجمة والنشر

الكتــاب: ظل النديم
أوراق وأسمار شيخ العربية
أبي فهر محمود محمد شاكر رحمه الله التي لم تنشر من قبل
المؤلــف: وجدان العلي

عدد الصفحات: ٢٣٢ صفحة
سنة الطباعــة: ٢٠١٦م
بلـد الطباعــة: بيروت/ لبنان
الطبعـــــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع
مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية

عالم الأدب
للترجمة والنشر

هاتف: 00201099938159
بريد إلكتروني: info@aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: Zellulnadeem
Editor: Wejdan Alaly

Pages: 232
Year: 2016
Printed in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية

العلي/ وجدان
ظل النديم، وجدان العلي
القاهرة: عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٥م
٢٣٢ ص. (سير أدبية)
٢٤×١٧ سم
١- شاكر، محمود محمد، ١٩٠٩-١٩٩٧ ٢- الأدباء العرب أ- العنوان

ISBN: 978-977-6539-04-4

عالم الأدب
للترجمة والنشر

لعمري لقد نادى بأرفع صوته
نعيُّ حُيَيٍّ: أنَّ فارسكم هوى
أجلْ! صادقًا، والقائل الفاعل الذي
إذا قال قولًا أنبط الماء في الثرى

من قول سويد المراثي الحارثي
في رثاء أخيه حيي، وهو من شعراء الحماسة

محتويات الكتاب

المقدمة

الحمد لله الذي تفضل بالإحسان، وأعان بجوده، وأكرمنا بعطائه، لا إله إلا هو الحي القيوم، والصلاة والسلام على سيدنا أبي القاسم؛ عبدِ الله ورسوله، وصفوته من خلقه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا..

وبعــــد،،

هذا كتاب اجتهدت في جمعه، وفاءً لشيخ العربية أبي فهر رضي الله عنه= وقيامًا ببعض حقه علينا نحن الشباب الذين لم ننعم بالأخذ عنه والجلوس إليه= ومحاولةً لمطالعة هذا العقل الفريد لذلك العَلَم الكبير، بالنظر في آرائه وأقواله وبعض تاريخه الذي ناله ما ناله من عقوق وإهمال.

وإن لأبي فهرٍ دَيْنًا ثقيلًا في أعناق الذين أخذوا عنه، وفتح الله بصائرَهم بضياء علمه، فشملهم بحدبه ورعايته وتسديده، صارمًا حانيًا، شديدًا في غير ضِغن، باذلًا وُسْعَه في صرف عقولهم عن بُنيَّات الطريق وآفاته وعثَرَاتِه التي تركت ندوبًا في نفسه وحياته، جعلته دائمَ اليقظة، حديدَ البصر، يرقب الزيف ويرصده محذرًا منه، ويصل نفسه وأصحابه بنهج السابقين الذين ابتكروا الحضارة التي تم فيها معنى الإنسان.

وكان رحمه الله ورضي عنه على سَعَة علمه وتبحره الذي سبق به غيره= عزيز النفس متوقدًا بالأَنَفَةِ التي عصمته من إعارة عقله لأعجمي يعبث بالفكر واللغة والبيان والتاريخ، ويجهد جهده في طمس حضارة هذه الأمة بطمس عقول أبنائها الذين لا يعرفون أمتهم وتاريخها معرفةً علميةً صحيحةً.

فسعى إلى نصب الصُّوَى يُرشد بها السائرين، ويدلهم على النهج الذي يحققون به أنفسهم في ميدان الوجود؛ حتى «يكون لهذه الأمةِ خَطَرٌ كالذي كان»[1].

(١) من كلامه وسيأتي معنا إن شاء الله. والخطر: القدر.

وقد قضى رحمه الله تعالى في عام (١٩٩٧م) عن ثمانية وثمانين عامًا، وانطفأ ذلك الوهج الحيُّ، فأبقى في النفوس حسرةً لا تنقضي، على علمٍ طوته الأرض، ومصنفاتٍ لم تتم، وعقلٍ بصيرٍ عاش في عزلةٍ ارتضاها لنفسه، وحرص الكثيرون على إبقائه فيها بعد موته.

فكان لابد من نشر علمه، وبعث تراثه، والتماس الأسبابِ الموصلة إلى معرفة هذا العقل الكبير، وكشف المُغَيَّبات التي بعثرتها الأيام في أودية الزمن من أحاديث هذه النفس، وأخبارها.

وقد حرصت سنين طويلة على قَفْوِ أثَرِه، ولزوم بيته، وجمْعِ ما تيسر لي من تلك الجُذَاذات التي كانت عُرْضَةً للفناء والزوال، ورأيتُ إذ فاتني الجلوس إليه بارتحاله عن عالم الناس= أن أُجَالِسَ شخصه وكلامه وآثاره؛ لأصل إليه به لا بغيره، وبكلامه هو عن نفسه لا بكلام غيره عنه.

فهذا المجموع الذي بين يديك=خلاصة إصغاءٍ ومتابعةٍ وجمعٍ وسؤالٍ امتد قرابة ثلاثة عشر عامًا، منذ كنت في الجامعة، حريصًا على النادر الذي لم يُرَ، والكلام الذي لم يُنشرِ من قبلُ، والأحاديث التي أصبحتْ تراثًا فريدًا عزيزًا لا يدري به أحد، إلا قليلٌ ممن سكن قلوبَهم حبُّه، وعرفوا له قدرَه.

ولقد نظرت طويلا في خِطةِ هذا الكتاب، الذي توفَّرَت أسبابُه ومادتُه بين يديَّ منذ أربع سنواتٍ تقريبًا، تغدو الأفكار في مسارب العقل وتروح، وأنا في شِعاب الحياة أحمل دفتر الكتاب في حقيبة الذاكرة، وأنثر بعضَ ما في نفسي عن شيخنا في محاضرةٍ، أو مقال، أو لقاء تلفزيوني، أو تغريدة أُضَمِّنُها بعضَ نوادر صوره، قانعًا بهذا ظاهرًا، لاسيما حينما أرى الناس يتناقلونه فيجددون العهد بقلم شيخنا وسيرته، غيرَ راضٍ في قرارة نفسي عن هذا التسويف الذي يصرفني عن الجلوس إلى قلمي والبدء في تأليف الكتاب.

وتمضي الأيام وتتفانى الساعات وتتكاثر بين يديّ صور العقوق والاستخفاف والإهمال لتراث أبي فهر رضي الله عنه، حتى أطلَّ ذلك الخاطر العتيقُ، بغتةً، فاستبدَّ بي يهُزُّني هزًّا تتساقط فيه رمال التسويف عن نفسي وأعصابي، وينحي عن رأسي أي فكرةٍ تُبطئ سيري أو تقعد بي عن الكتابة.

فلما جلست لأكتب تناثرت بين يدي صور شتى من الكتابة بأسبابها وأفكارها، فرأيت أنَّ من الحسن أن لا أستكثر من المعروف المُعَادِ المُكَرَّر الذي يعرفه الناس، كالترجمة للشيخ والتعريف بمصنفاته، وأصداء قلمه في الرد على بعض رموز عصره، وأبرز تلامذته، وغير ذلك مما صار معروفًا دانيًا سهلَ القطاف.

وآثرت أن أجلوَ بعضَ الزوايا المُغَيَّبة، والمشاهدَ التي ضُرِبَ بيننا وبينها حجابُ الزمان، مادًّا قلمي جسرًا يصل الناسَ بشيخنا، في بيته وحياته ومجالس علمه وسمره، وأسفاره وبعض أسراره، في صورٍ متتابعةٍ تتدفق بالحياة = ورأيت أن هذا يكون أنفع للناس وللتاريخ = ورأيت أيضًا أن لا أندسس بشخصي مهيمنًا على الكتاب أعرض فيه صورتي وأنا أزعم أني أعرض فيه صورة شيخنا، متوسلًا بالحديث عنه إلى عَرْضِ ذاتي والحديثِ عن نفسي= مكتفيًا به وبكلامه، وكلام أصحابه في حضرته عنه، وبيانهم عن شخصيته وأثره فيهم، بكلام لا أعلمه مجموعًا في كتاب=مع إسكات القلم عن إبداء الموافقة أو المخالفة لرأيٍ أعرضه للشيخ، أو موقفٍ أقصه، أو منهجٍ له في النظر؛ فليس هذا من شأن هذا الكتاب، وليس هو من أهداف كاتبه.

ولم أُخلِ الكتاب من نُتَفٍ من الأحاديث التي كانت بين شيخنا وبعض جلسائه، ففيها فوائدَ ولطائف كاشفةٌ عن نفسه، وعن أسلوبه في النظر وعن رأيه في أشياء كثيرةٍ، وهي في النهاية مبِينةٌ عن طبيعة مجالس شيخنا رحمه الله تعالى.

وقد حرَصْتُ على إلحاق لقاءات شيخنا رحمه الله وأحاديثه الصحفية، وما تيسَّر لي من كلمات له في المحافل والجامع مما لم يُنْشَر، أو نُشِر فطُوِي وصار كالنادر أو كالمعدوم.

ثم جعلت نهاية الكلام بحثًا صغيرًا أبنتُ فيه عن منهج شيخنا في القراءة والدرس الأدبي، وهو كالتذكرة المدرسية المختصرة التي أرجو أن أبسط معانيها في كتاب قائم برأسه إن شاء الله، بمنهجٍ آخرَ وبيانٍ مغاير لهذا الذي أدرجته هنا، يكون أكثر بسطًا وتوغلا في منهج الشيخ رحمه الله تعالى.

وأودعتُ في الكتاب قدرًا يسيرًا مما توفر لي من صور نادرةٍ في مراحل شيخنا العمرية المتعاقبة= لم تُنشر من قبل في كتاب، لاسيما صورته طفلا صغيرًا، مع ترك الاستكثار من ذلك، وأنا أعلم بأن شيئا مما سأدرجه هنا سبق لي أو لغيري نشرُه على صفحات الإنترنت، ولكني أحسب أن نشر شيء من ذلك هاهنا= أمرٌ لابد منه في التأريخ الأدبي.

وقد رأيته حسنًا أن أُخلِي الكتاب من ثِقَلِ الحواشي، إلا ما أوجبته الضرورة، وكان له كبير فائدة= كالفصل الذي عقدته للبيان عن منهجه؛ لأنه لابد من ذكر مواضع هذا المنهج وشواهده من كلام شيخنا= وما سوى ذلك أغفلته، حتى لا أقطع القارئ عن سياقة الكلام بهوامش تأخذ من حجم الكتاب ولا تُفيده كبير شيء.

ولابد أن يكون بيِّنًا مرة أخرى أني لم أقصِد إلى درسِ شيخنا، ولا إلى سَرْد قصة حياته، ولا إلى تلمُّسِ معالم أدبه ومنهجِه في التأليف والتحقيق والنظر =كل ذلك ليس من قصدي ولا هدفي، وإنما هنا تأريخ مختصرٌ لبعض الجوانب في شخصية شيخنا، سقته عبر الأخبار، في إهابِ أدبيٍّ خالص، بعيدًا عن الاستقراء والاستقصاء. وأرجو أن لا ينسى قارئ الكتاب هذا الأمر.

ولابد لي من بيان أن هذا الكتاب الذي بين يديك= ليس فيه كل ما أردت كتابته؛ لأني كنت محاصرًا بوقت يهرول في أودية الزمن، وجسد قد يقعد به المرض، ومطالبات أحبة باستلام ما تيسر من الكتاب.. فأسلمتهم إياه، راجيا أن أضيف ما لم يتيسر لي هنا، فيما بعد إن شاء الله.

وبعـــد..

فقد حاولت أن أكشف لك طبيعة هذا الكتاب في هذا المدخل، وإني لأرجو أن تفيد منه، وأن تغفر لي ما تراه خطأً أو سهوًا، ولا بد للإنسان من خطأٍ أو سهوٍ أو نسيان، وأن تذكرني بدعوةٍ يقبلها من لا تخفى عليه حاجة الفقير ولا شكوى المضطر، سبحانه وبحمده.

وإن من الأمانة هنا= إزجاءَ الشكر لأخي القديم وصديقي النبيل الأستاذ رمضان النجار، الذي كان يحمل عني تَبِعَةَ متابعة آثار الشيخ في غيبة الأسفار، وآزرني في تهيئتها صيانةً لها من التلف، ولم يتأخر عني في شيء استعنت فيه به، لاسيما تهيئة ما جمعته، وجمعه من صور شيخنا وإعداده للنشر، وما عَرَفْتُه إلا مُحِبًّا وفيًّا أمينًا، فالله يرضى عنه، ويمُدُّه بأسباب كرمه وجوده وإحسانه وعافيته.

والحمد لله رب العالمين؛ الكريم الجميل، له الفضل كله، وبيده الخير كله، لا أُحصِي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، تبارك وتعالى.

وجدان العلي

١٠/٩/٢٠١٤م

الباب الأول

آفاق العُقاب!

آفاق متعددة من حياة شيخنا ومواقفه وأحاديثه وشيءٍ من أسراره ومعالم نفسه

خفقة قبل التحليق:

تشتبك كثير من الأسباب في بناء النفس، ورصف لبناتها في جدار الحياة، ولاريب أن للنشأة الأولى ظلالها التي تمتد في شِعاب النفس بامتداد عمر الإنسان في هذه الدنيا.

وقد نشأ أبو فهر رحمه الله تعالى (١٩٠٩ إلى ١٩٩٧م) نشأةً خاصةً صبغت بألوانها وأحداثها وشخوصِها نفسه المرهفة التي لم تكن تكف عن النظر والتأمل والتفكير، والإصغاء المترقب، والصمت المتسائل الذي يختزن في أعصابه أصداءً لا تنتهي من المناقشات والحوارات في هذا البيت الشهير؛ بيت العلامة القاضي الشريف محمد شاكر رحمه الله.

وتتابعت قوافل الأيام، وأبو فهر تنمو أسباب العلم والمعرفة وتمتد بين يديه، حتى توفر على أسباب أربعة وسَمَتْه بسماتٍ شخصيةٍ خاصةٍ، وهذه الأسباب الأربعة هي:

(١) مكتبة وافرة: هيأها له والده الشيخ محمد شاكر رحمه الله تعالى، وكيل الجامع الأزهر، وشيخ علماء إسكندرية، وأخوه المحدث العلامة القاضي الفقيه أحمد محمد شاكر - رحمه الله تعالى -، وكان يكبره بسبع عشرة سنة، وكانت مكتبةً مليئة زاخرةً بالكتب في مختلف أنواع المعارف والعلوم العربية.

(٢) ذاكرة واعية لا تكاد تخرم شيئًا: فقد تمتع بهذه الذاكرة العجيبة التي تلقف كل ما تقرؤه وتضعه في مكانه من خزانة النفس، ثم تستدعيه وقتما شاءت.

(٣) أساتذة كبار: حيث كان محمود شاكر ممن صحبوا أهل العلم والفكر والأدب الكبار في زمانه، فمنذ كان صغيرا وهو يرمق قادة ثورة (١٩١٩)، وأهل الفكر والرأي والأدب، فنشأ مُحَمَّلًا بهذه الكلمات الكبار، في هذا الجو العلمي والفكري الصاخب، متعلقًا بأمثال العلامة السيد بن علي المرصفي صاحب «رغبة الآمل من كتاب الكامل» و«أسرار الحماسة»، وهو شيخه الذي أثر فيه تأثيرا كبيرًا في فهم الأدب،

والإصغاء إلى الحرف، والنفوذ إلى أسرار العربية ومسامرة معانيها، والأناة في التلقي.. في أثرٍ طويل يقول عنه شيخنا أبو فهر ببيانه الحي المتوهج:

«كانت لِلشيخِ - رحِمه الله، وأثابه - عِند قِراءةِ الشعر، وقفات: يقِف على الكلِمةِ أو على البيتِ أو على الأبياتِ، يعيدها، ويرددها، ويشير بيديهِ، وتبرق عيناه، وتضيء معارِف وجهِه، ويهتز يمنةً ويسرةً، ويرفع مِن قامتِه مادا ذِراعيهِ ملوحًا بِهِما يهم أن يطير ! وترى شفتيهِ والكلِمات تخرج مِن بينِهما تراه، كأنه يجِد لِلكلِماتِ في فمِه مِن اللذةِ والنشوةِ والحلاوةِ ما يفوق كل تصورٍ.

كنت أنصِت وأصغي وأنظر إليهِ لا يفارِقه نظري، ويأخذني عِند ذلِك ما يأخذني، وأطيل النظر إليهِ كالمبهوتِ لا تكاد عيني تطرف، وصوته يتحدر في أقصى أعماقِ نفسي كأنه وابِلٌ منهمِرٌ تستطير في نواحيهِ شقائِق برقٍ يومِض إيماضًا سريعًا خفيفًا ثاقِبًا - أيامٌ لم يبق مِنها إلا هذِه الذكرى الخافِتة!- فإذا كف عنِ الإنشادِ والترنم أقبل يشرح ويبين. ولكِن شرحه وتبيينه لِهذا الذي حركه كل هذا التحريكِ، كان دون ما أحِسه وأفهمه ويتغلغل في أقاصي نفسي مِن هيئتِه وملامِحه وهو يترنم بِالشعرِ أو يردد، كان دون ذلِك بِكثيرٍ. وكنت أحِس أحيانًا بِالحيرةِ والحسرةِ تترقرق في ألفاظِه وهو يشرح ويبين، كأنه كان هو أيضًا يحِس بِأنه لم يبلغ مبلغًا يرضاه في الإبانةِ عن أسرارِ هذِه الكلِماتِ والأبياتِ. هكذا كان شأن الشيخِ -رحِمه الله ! - أيُّ علامةٍ ذوّاقةٍ كان !

هكذا حال الشيخِ كان في بيتِه وأنا أقرأ عليهِ الأدب والشعر يومئِذٍ وحدي. أما حاله وهو يلقي دروسه العامة التي يحضرها الجمع مِن طلبةِ العِلمِ، والتي كان يحضر أمثالها مِن قبلِنا الدكتور طه قديمًا فيمن يحضر دروسه في الأزهرِ - فكان مختلِفًا كل الاختِلافِ: كان ملتزِمًا بِالجِد والوقارِ يتخللهما دورٌ قليلٌ مِن المِزاح لاذِعٌ جارِحٌ أحيانًا، ولكنه كان لا يقصر في الإبانةِ والشرحِ ولا في التوقفِ عِند الأبياتِ أوِ الكلِماتِ الجِيادِ الحِسانِ المُحْكَمة. فهذا موضِع فرقٍ بين الذي أخذته أنا عنِ الشيخِ والذي أخذه عنه الدكتور طه. وما كان على كل حالٍ بِقادِرٍ على أن يأخذ عنه ما أخذت؛ فإن الذي أخذته عنه وأحدث في نفسي ما أحدث، لا يبلغ السماع بالأذن منه شيئًا؛ لأنه وليد المشاهدةِ والعِيانِ لا وليد الألفاظِ والكلِمات». اهـ

ولعل هذا التلقي المتوهج الفياض هو الذي هيأ تلك النفس الحيةَ لتلقي أسرار العربية، والارتقاء إلى مرتبة الإمامة فيها.

ثم إن هنالك شخصًا لا تكاد تخطئ أثره الخفي والجلي في قلم أبي فهر وشخصه ونظرته إلى العربية وانتمائه للأمة، وهو الأديب الملهم العبقري مصطفى صادق الرافعي، الذي تعلق به شيخنا مذ كان صغيرا، حتى إذا ما عرضت له الشبهة بسوادها، وتناثر الحرف الصدئ بين يديه طعنا في الدين وإرجافًا بالقرآن المجيد= أمسك القلم وهو ابن أربع وعشرين سنةً[1] وحسب يكتب هذه الكلمات المتوقدة إلى شيخه الرافعي= يطالبه بالذب عن كتاب الله تعالى، ونفيِ قالةِ السوء عنه!

وليس حسنًا أن أترك إيراد تلك الرسالة المبينة عن أبي فهر إبانةً تامةً، وعن شخصيته في تلك السن الصغيرة؛ لنعلم أن ما سيرد من مواقف وأحداث نعرض لها فيما نستقبل من كتابنا=ليست مستحدثة في تلك النفس الكبيرة التي كانت تحيا بهذه العقيدة وتلك الرؤية في تلك السن الصغيرة.

يقول ابن الرابعة والعشرين في رسالته إلى شيخه الرافعي: «أكتب إليك متعجلًا بعد أن قرأت «كلمة كافرة» في «كوكب الشرق» الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر؛ كتبها متصدر من نوع قولهم: حبذا الإمارة ولو على الحجارة...وسمى نفسه «السيد»، فإن صدق فيما كتب صدق في هذه التسمية!

طعن القرآن وكفر بفصاحته، وفضل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب، فعقد فصله بعنوان «العشرات» على ذلك التفضيل، كأنَّ الآية عشرة من عشرات الكتاب يصححها ويقول فيها قوله في غلط الجرائد والناشئين في الكتابة؛ وبَرْقَعَ وجهَه وجبُن أن يستعلن، فأعلن بزندقته أنه حديث في الضلالة.

غلى الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلجُّ في تفضيل قول العرب: «القتل أنفى للقتل» على قول الله -تعالى- في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، فذكرت هذه الآية القائلة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ وهذه الآية: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ثم هممت بالكتابة فاعترضني ذِكْرُك، فألقيت القلم؛ لأتناوله بعد ذلك وأكتبَ به إليك.

(١) كنت قد تبعت العريان في تأريخه لهذه الرسالة، ولكن دلني على خطئه في ذلك أخي حامد المالكي، وأخي عمرو البحيري، حفظهما الله، وكان قولهما هو الصحيح الموثق بالأدلة والشواهد من مطبوعات تلك الأيام.

ففي عنقك أمانة المسلمين جميعًا: لَتَكْتُبَنَّ في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس؛ جعلت البر فاجرًا، وزادت الفاجر فجورًا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

واعلم أنه لا عذر لك! أقولها مخلصًا، يُمليها عليَّ الحقُّ الذي أعلم إيمانَك به، وتفانيَك في إقراره والمدافعة عنه، والذَّوْد عن آياته.

ثم اعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تَنَاوَشُهم ذئابُ الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تَلِغَ ولوغَها في البيان القرآني.

ولستُ أزيدك؛ فإن موقفي هذا موقفُ المطالبِ بحقه وحق أصحابه من المؤمنين، وأذكر حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل علمًا فكتمه جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار» أو كما قال..

والسلام عليكم ورحمة الله. م.م.ش». اهـ.[1]

وهي رسالة تشهد ألفاظها على نفس كاتبها، وما فيها من وقدة الإيمان وغيرة المؤمن= وما في قلبه من علم، وما في قلمه من بيان. ولو طمسنا تاريخ هذه الرسالة لكان كبيرًا أن يكتبها من هو في سن كبيرةٍ؛ لألفاظها ومعانيها!

ولا عجب؛ فقد فرغ أبو فهر محمود محمد شاكر من قراءة لسان العرب وأغاني أبي الفرج= قراءةً تامةً في تلك السن الصغيرة أثناء الإجازة الدراسية، واستظهر ديوان المتنبي لا يكاد يخرم منه حرفًا منذ الرابعة الابتدائية، ودار في أروقة الشعر الجاهلي ومجاميع الأدب المتوفرة بين يديه كلها، ولمّا تنبت في وجهه شعرة!

وكل من عرف أبا فهر رضي الله عنه، وصحب قلمه وطالع آثاره= علم أن للرافعي أثرًا لا يخطئه بصرٌ على فكر أبي فهر وقلمه وبيانه، لاسيما في بدئه الأول= وأن بين النفسين والقلمين وشائج، سرعان ما أعان أبا فهرٍ على الخلاص منها علمُه الفريد، وشخصيته التي تأنف من مشابهة الآخرين والسير في ظلالهم، وإن ظلت الوشائج النفسية مُوَثَّقَةً تمدها خفقات الحب بزادٍ من الوفاء والحب لا يبلى.

(١) البلاغ: نوفمبر ١٩٣٣م، خلافًا لما وهم فيه العريان وتبعته في طبعة الظل الأولى.

حتى إذا قضى الرافعي تطايرت نفس أبي فهر مِزَقًا، وانهدم تحت وطأة معاول الحزن هدمًا، فانصرف عن الكتابة ردًّا على أستاذه طه حسين في أمر المتنبي= وأفرغ دواة قلمه لحديث الشكوى ونجوى الرثاء لحبيبه الذي تركه في ميدان الحياة وحيدًا غريبًا، في عبراته المحترقة بالنشيج في مجلة «الرسالة»، بعنوان: «رحمة الله عليك».

ثم إن هنالك من شاركوا هذا الصغير بناءه الفكري، من بقية أساتذته؛ كمحب الدين الخطيب، وأحمد زكي باشا، وأحمد تيمور باشا، وطه حسين[1]، والكتبي محمد أمين الخانجي، والشيخ إبراهيم اطفيّش، وأحمد شوقي شاعر العصر، (كان يلقاه في المنتديات العامة).. ثم.. الحياة وما فيها من جراحات وندوب وتجارب وخبرات!

(٤) قضية لا تفارقه؛ حيث كان أبو فهر صاحب قضية يتتبع خيوطها، ويرصد أخبارها، ويفتش عن معالمها في الموروث الهائل الذي خلفه لنا علماؤنا الكبار، هذه القضية هي «**قضية الشعر الجاهلي وصحته**»، وما يتعلق بذلك من الكلام في **إعجاز القرآن العظيم**، وما تتابع في نفسه من آلام لم يُطق معها البقاء في الجامعة ولا البقاء في مصر بعد أن ييس الثرى بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين.

فهذا أبوه العلامة الشيخ محمد شاكر رحمه الله، وأخوه الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر رحمه الله، ومكتبته التي نشأ في ظلالها، وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم، وقضيته التي عاشت بين جنبيه تؤزه على المطالعة والبحث وتجويد النظر، وتحمله على الغربة التي فارق فيها الكل؛ ليأنس فيها بنفسه، يأسو جراحاته في ديار آبائه الأقدمين بالحجاز، هاربًا بروحه من آثار المستعمر وأغلاله في النفس والناس والتعليم والحياة= إلى صفاء التوحيد[2] في هدأة الصحراء.

هذه الأربعة الأسباب التي عرضت لها بإيجاز شديد= لا ينبغي أن تغادر نظرك وأنت تقرأ ما سيأتي من مواقف متناثرة متعددة[3]، تكشف لك عن أصداء هذه النشأة، وطبيعة تلك الشخصية الفريدة.

---

(١) ذكرته لأثره المضاد!

(٢) سيأتي في كلام شيخنا سر ذهابه للحجاز، وأن أحد أسباب هذا هو التماس صفاء التوحيد.

(٣) حرصت قدر المستطاع على جمع المواقف التي تكشف عن زاوية معينة في شخص أستاذنا، متتابعة؛ لما بينها من الاشتراك في المعنى والدلالة. وهي كلها مما سمعته بنفسي في بيت شيخنا أبي فهر رضي الله عنه وحفظه في أهله وبيته.

الأفــق الأول

جـذوة لا تخبـو!

محمود سعد الدين محمد شاكر!

هكذا كان اسم شيخنا كما أخبرتني زوجه المباركة أم فهر حفظها الله!

ولأن هـذا الرجـل كان يحيى بـروح أمتـه، ولا يعيـش في محبـس الـذات الضيـق= فقـد تقـدم إلى القضـاء بشـكوى يطالـب فيهـا بتغيـير اسـمه والاكتفـاء بمحمـود بعيـدًا عـن ذلـك اللقـب الـذي فيـه اسـم سـعد؛ حتـى لا يكـون بينـه وبـين سـعد زغلـول مشـابهة ولـو بالاسـم؛ لأنـه كان يـرى أن سـعد زغلـول أضر الحركـة الوطنيـة في مـصر ضررًا عظيمًا، وكان صَغْوُه ومَيْلُه إلى الإنجليز، وهـذا مـا كان يرفضـه شـاكر. فأنِف من المشـابهة، وتجشـم رفـع قضيـة لتغيـير اسـمه، حتـى لا يحمـل في بطاقتـه هـذا الاسـم الـذي يؤذيـه!

ولعـل هـذا يذكـرك بثقـل لقـب الدكتـور الـذي كان يرتكـب كتابتـه قبـل ذكـر اسـم د. لويـس عـوض في مقـالات متتابعـة في الرسـالة= حتـى طـرح عـن قلمـه هـذا اللقـب؛ لأنـه يعتقـد أن ترديـده لـه غـشٌ للنـاس، وخيانـة لأمانـة العلـم الـذي يحملـه!

وهــذا الأمــر مســتفيضٌ شــائعٌ في حيــاة أبي فهــر وكتاباتــه لا يــكاد ينســاه قــط، حتــى في جلســاته الخاصــة، وهــي التــي يتخفــف فيهــا الإنســان مــن ثقــل التكلــف، ويــدور فيهــا الحديــث ســهلًا رهــوًا!

لا أدخل بلادكـم إلا غازيـا!

فهـذا نلليـنـو، المسـتشرق الإيطـالي المعـروف، يجلـس إلى الأسـتاذ محمـود شـاكر، يتحدثـان معًـا، وكان ممـا قالـه لـه نلليـنو: لمـاذا لا تـأتي إلى إيطاليـا يـا أسـتاذ محمـود؛ لتكـون أسـتاذ كـرسي الأدب في جامعاتهـا، تـدرس فيهـا الطلبـة وتلقـى منـا كل تقديـر واحـترام؟

فنظر إليه محمود محمد شاكر قائلا: أنا؟! أنا لا أدخـل بلادكـم إلا غازيًـا!

وهـي كلمـة تدلـك عـلى مـا هنالـك مـن تلـك النفـس الشريفـة، حتـى في مزحهـا وهزلهـا، لا تفـارق قضيتهـا، ولا اعتزازهـا بأمتهـا[1]!

(١) ستأتي شواهد متكاثرة عن هذا الشعور في كلام الأستاذ ومواقفه ومحاضراته وكتبه.

في لنــــدن!

حتى فيما هو أيسر من ذلك؛ فقد كان سافر بعدما علت سنه إلى بريطانيا مع ابنته الكريمة زلفى، وكان هنالك طبيب يحدث أبا فهر، وأبو فهر يتقن الإنجليزية كأهلها، وكان ترجم في صدر شبابه قدرًا صالحًا من قصائد شعراء الإنجليز كأوسكار وايلد وغيره= وقام على تحرير مجلة «ريدرزدايجست» وقام بجهد هائل في الترجمة، قال عنه صديقه يحيى حقي: «لم يقم بجهده ذلك مجمع اللغة العربية!»= وكان يقرأ شيكسبير في لغته القديمة= ومع هذا كله، فإن أبا فهر استمسك بالحديث إلى ذلك الطبيب بالعربية، وجعل بينهما مترجمًا يترجم عنه!

لا بد أن أنصرف!

دعا د. سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب العلماء والمفكرين والمثقفين إلى حضور احتفال يقام في دار الأوبرا= بمناسبة فصل الهيئة العامة المصرية للكتاب عن دار الكتب.

وكان من الذين وُجِّهت إليهم الدعوة= شيخنا أبو فهر رحمه الله، فاستجاب وذهب في صحبة تلميذه د. عادل سليمان جمال مبكرًا؛ لأنه لا يحب التأخر عن ميعادٍ ضربه لأحد، وكان موعد الاحتفال في العاشرة، وستحضره حرم الرئيس؛ سوزان مبارك.

فجلس الأستاذ وإلى جواره تلميذه عادل سليمان، حتى إذا كانت العاشرة ودقائق قام الأستاذ متوكئًا على عكازه= وكانت سنه عاليةً في ذلك الوقت= وهو يصيح بصوت غاضب: هذا هزل! لابد أن أنصرف الآن! هؤلاء ناس لا يحترمون مواعيدهم ولا يحترمون وقت أهل العلم!

فأقبل الحرس والأمن، وهمهم الناس، وأوجس د. عادل في نفسه خيفةَ أن يصاب الأستاذ بمكروه، لاسيما والمكان مليء بقيادات الأمن، الذين أحدقوا بهما، متسائلين عن سبب الإصرار على الانصراف!

والدكتور عادل يُخَفِّضُهم، متعللًا بسن شيخنا الكبيرة، وأن الجلوس يؤلمه، والشيخ ينهره، ويقول: لا.. هؤلاء لا يحترمون الناس، ولن أجلس أبدًا!

وعبثًا حاول الضباطُ إفهامَ شيخنا أنه لن يُسمحَ لسيارة بالدنُوِّ، وأن عليه إذا أراد الخروج= قطعَ مسافة طويلا سيرًا للوصول إلى السيارة بالخارج.. والشيخ لا يبالي بهذا كله!

وبعد لأيٍ وافقوا على ذهابه؛ فمضى غاضبًا وهو ينظر إلى الجالسين من الدكاترة والمثقفين، ينهرهم قائلًا: لو كنتم تحترمون أنفسكم لقمتم! هؤلاء لا يحترمونكم!

وفي نفس تلميذه عادل سليمان ما فيها جزعًا من أثر هذه الكلمات عليه وعلى الشيخ، وخشي أن يهموا بهما!

وأصر الشيخ وخرج، ولم يحضر الحفل، وتنفس تلميذه بخروجهما إلى السيارة الصُّعَداء، فنظر إليه أبو فهر رضي الله عنه قائلًا بعد هذا الموقف العصيب بمُزَاح: تعال يا عادل تغدَّ معي، أم فهر «عاملة الملوخية اللي بتحبها»!

رحمه الله!

في المغـــرب

في المغرب عادة حسنة؛ حيث يعقد الملك مجالس علمية، يدعو إليها أهل العلم من جنبات العالم الإسلامي، وكان منهم شيخ العربية رحمه الله، فسافر، وقد أعد نُسَخًا من كُتُبه -كالمتنبي والأباطيل- مُجَلَّدةً تجليدًا فخمًا؛ ليقدمها هديةً للملك الحسن رحمه الله.

وعند دعوة العلماء للسلام على الملك= أمسك الأستاذ محمود شاكر بكتبه الفخمة؛ ليسلمها إلى الملك هديةً عند السلام عليه. فلما همَّ بذلك، أراد بعض المشرفين على المراسيم الملكية تسلُّمَ الكتبِ من الشيخ لتودع في مكتبة الملك= جريًا على الرسوم السلطانية و«بروتوكلات» الزيارات.

لكنَّ الشيخ رأى أن من الحسن أن يقدمها هو بنفسه= وأنه لا يليق أن يعطيها لغير الملك، لكنهم أعلموه أن لا سبيل إلى ذلك؛ لأن في ذلك مخالفة للمراسيم السلطانية.

فأبى الأستاذ، ونحَّى كُتُبَه جانِبًا، ودخل للسلام على الملك بغير الهدية التي أراد تقديمها له بنفسه.

فلما خرج وجدهم جهزوا حافلات لنقل ضيوف الحفل من أهل العلم= فقال: إن من إكرام العلم إفراد سيارة خاصة لكل عالم.. رحمه الله تعالى.

وكم طالب رقي!

وهو كثيرًا ما كان يصدح بأبيات علي بن عبدالعزيز الجرجاني في شرف العلم، ينشدها، ويهدر بها صوته، ويمتلأ بها فمه، وتتابع أنفاسه وقد علا صوته وهو يقول في لقائه بطلبة جامعة الأسكندرية[1]: «وكم طالبٍ رِقِّي بنعماه»..

ولم يكمل البيت ثم قال: وأنا أتحدث عن نفسي! يعني أن هذا وقع له وسعى إليه الساعون بدنياهم فلفِظَهُم!

ثم أكمل وقد علا صوتُه:

وكم طالبٍ رقِّي بنعماهُ لم يصل ❊ إليه..وإن كان الرئيسَ المُعَظَّما!

نفس لا تتلون!

وهذا الإباء كأنما طُبع عليه محمود محمد شاكر طبعًا، فهو لا يكاد يفارق عقله ولا نظره ولا قلمه.

انظر إلى شرحه أبيات الأعشى التي يقول فيها:

قَوْمٌ تُعَالِجُ قُمَّلا أَبْنَاؤُهُمْ ❊ وَسَلاسِلًا أُجُدًا وَبَابًا مُؤْصَدَا

يقول رحمه الله في حاشية شريفة على تفسير الطبري تعليقا على بيت الأعشى: «من قصيدته التي قالها لكسرى حين أراد من بني ضبيعة (رهط الأعشى) رهائن، لما أغار الحارث بن وعلة على بعض السواد، فأخذ كسرى قيس بن مسعود، ومن وجد من بكر، فجعل يحبسهم، فقال له الأعشى:

مَنْ مُبْلِغٌ كِسْرَى، إذَا مَا جَاءَهُ ❊ عَنِّي مَآلِكَ مُخْمِشَاتٍ شُرَّدَا
آلَيْتُ لا نُعْطِيهِ مِنْ أَبْنَائِنَا ❊ رُهْنًا فَيُفْسِدُهُمْ كَمَنْ قَدْ أَفْسَدَا
حَتَّى يُفِيدُكَ مِنْ بَنِيهِ رَهِينَةً ❊ نَعْش، وَيَرْهَنُكَ السِّمَاكُ الفَرْقَدَا

(١) سيأتي اللقاء قريبًا في آنية البوح إن شاء الله.

يقول: من يبلغ كسرى عني تغضبه، رسائل تأتيه من كل مكان: أننا آلينا أن لا نعطيه من أبنائنا رهائن، يتولى إفسادهم كما أفسد رجالا من قبل، ولن ينال منا ذلك حتى تعطيه نجوم السماء رهائن من صواحباتها. ثم قال له:

لَسْنَا كَمَنْ جَعَلَتْ إِيَادُ دَارَهَا * تَكْرِيت تَمْنَع حَبَّهَا أَنْ يُحْصَدا
قَوْمٌ تُعَالِجُ قُمَّلا أَبْنَاؤُهُمْ * وَسَلاسِلًا أُجُدًا وَبَابًا مُؤْصَدَا
جَعَلَ الإِلَهُ طَعَامَنَا فِي مَالِنَا * رِزْقًا تَضَمَّنَهُ لَنَا لَنْ يَنْفَدَا

يقول: لسنا كإياد التي آتتك الرهائن فإنها نزلت تكريت تنظر ما يحصد من الزرع من سنة إلى سنة، فهم حراثون، قد قملوا، فقام أبناؤهم يعالجون القمل، ويجرون السلاسل ليشدوها على الأجران، ويجهدون في تغليق أبوابها. أما نحن، فالله قد جعل إبلنا رزقنا، ضمنت لنا من ألبانها طعاماً لا ينفد، ونزعنا عن أعناقنا ربقة عبودية القرى والأمصار، إلى حرية البادية، نغدو فيها ونروح، ليس لك علينا سلطان. وهذا من شعر أحرار العرب»!

انظر إلى هذه الكلمة الأخيرة، ترَ إنسانًا طُبِع على خَصْلَةٍ يتسبَّبُ إلى ذكرها بكل سببٍ، ولو في التعليق على بيت في حاشية كتاب!

يا سيدي!

ومما يتعلق من هذا بسببٍ= ما ذكره الأستاذ الإذاعي الكبير أحمد فراج رحمه الله، أنه ذهب يومًا إلى الأستاذ رحمه الله، فقد كان الدكتور عبدالقادر حاتم يريد صناعة فيلم إذاعي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان المسئول عن هذا المهندس صلاح عامر رحمه الله.

فأرادوا عرض الأمر على شيخنا أبي فهر رحمه الله، وذهب الأستاذ أحمد فراج، والمهندس صلاح عامر - وله صيت بعيدٌ ومكانةٌ عاليةٌ في الإذاعة- والمخرج محمد كريم، وقد كان مخرجا شهيرًا= ومعهم قصة الفيلم و«السيناريو»، وأحمد فراج يجلس وقد ابتهج قلبه، وتهللت أساريره؛ فقد استطاع أن يصحب هؤلاء الكبار في مجالهم ويذهب بهم إلى بيت العلامة أبي فهر رحمه الله، الذي قبلَ أن يستقبلهم، وقد كان أحمد فراج عرَّفه بمقام كل منهما ومكانته.

وجلس الأستاذ واستقبل أضيافه، وابتدأ الغارة على الجهلة الذين يتصدرون للحديث عن الإسلام بلا علم في وسائل الإعلام، ويتكلمون بغير هدى في دين الله تعالى، ويجهلون تاريخ العرب؛ فيخرجون العرب في غير ثيابهم التي كانوا يلبسون، ويتكلمون بغير لسانهم الذي كانوا به ينطقون، ويُظهرون المسلمين أذلاَّء ضعفاء لا يفعلون شيئا سوى التأوه تحت وطأة سياط المشركين الذين ولابد وأن يكونوا متجهمين غِلاظ الوجوه، لا يفعلون شيئا في حياتهم إلا جهامة الوجه وكآبة المنظر والشرهَ في المطعم.. في سخفٍ طويل جعل الأستاذ يرصد شره وينال من فاعليه!

ثم أعطوه قصة الفيلم الذي يريدون صناعته؛ لأخذ رأيه، فتناول الأستاذ الأوراق وأطل فيها بعينه، ثم فاجأهم بعد لحظاتٍ بأن ألقاها على الأرض في غضب وهو يقول: كلام فارغ!

أبلس أحمد فراج حُزنًا من فعلة الأستاذ، وأحسَّ حرجًا شديدًا أمام صاحبيْه ذوي المكانة والشأن، بينما جلسا واجمين مُقَيَّدَيْن إلى صمتهما!

فقال له أحمد فراج: لقد تعلمنا منك يا أستاذنا أنْ لا نعجَلَ في حُكمنا على الأشياء قبل أن نحيط بها علما، وحضرتك لَمَّا تقرأ الورق؛ فكيف تحكم؟!

فتبيَّن أن في الصفحة الأولى حوارًا متخيلا بين رجليْن، أحدهما يقول للآخر: يا سيدي!

فقال الأستاذ: هات لي أحدًا يعرف العرب وقرأ تاريخ العرب= يوجد لي عربيًّا في ذلك الزمان يقول للآخر: يا سيدي!

فهدمت كلمةٌ واحدة لا تليق بالعربي وكرامته وعزة نفسه= الأمر كله!

وهذا شأن مُطَّرِدٌ بشواهده، مستفيضٌ في حياة الأستاذ، ممتدٌ بامتدادها، لا يتلون بتلون الأحداث والنفوس رَغبًا ورَهبًا، أنفةً بعلمه أن تدنسه الأغراض، واعتزازًا بانتمائه إلى هذه الأمة، ورفضًا لكل ما يمَسُّ إباءه وكرامته.

ويوم وجد أن صديقه القديم د محمد مندور رحمه الله= يستثير الدولة عليه ويطلب منه الكف عن التصدي للويس عوض، كتب قائلًا، وقد غمس حروفه في تنور غضبه:

«مرةً أخرى، ثم مرةً أخرى، ثم مرةً أخرى، أحبُّ أن يعلم من لم يكن يعلم، أنّي امرؤ لا تُرْهِبُه بوَارِقُ الوعيد، ولا تُثْنِيهِ لَوَائحُ التهديد، ولا تَهُولُه ألفاظٌ محفوظةٌ تلوكها الأقلام الذاهلة، وتمضغها الأفواه المتلمِّظة.

وأنّي مذ خِفتُ الله وحدَه، لم أطوِ قلبًا على مخافةِ أحدٍ من عباده، وأنّي مذ فرغتُ أن أُشرِكَ بالله أحدًا، لم تَرُعْني كلمةٌ أُوصَفُ بها سوى «الشرك بالله». وكلُّ صفةٍ بعد هذه، فمصيرها عندي ما قال زيادٌ في خطبته البتراء: «أن أجعلها دَبْرَ أذني وتحت قدمي»، إلا أن أكون مُبْطِلًا في قول أو فعل، فعندئذ أؤوب إلى الحق صاغرًا خاضِعَ العنق، لا تأخذني دون ذلك عزةٌ بالإثم، ولا يمنعني منه حياءٌ أو كِبْرٌ أنْ أُقِرَّ علانيةً بخطأٍ كان منّي، أو زللٍ تردَّيتُ فيه.

وأستغفر الله وأتوب إليه؛ إذْ ألجأني مَن ألجأني إلى أن أصفَ للناس نفسي، بما لا ينبغي للمرء أن يعتادَه من التمدُّح؛ فإنه يوشك أن يكون بابًا من الأبواب الخفيَّة إلى النفاق».

وهذا كلام ينطق عن نفسه، مستغنٍ عن التعليق عليه!

مع مائير قسطر!

وغير بعيدٍ كلامه في طبقات فحول الشعراء= عن الرسالة التي جاءته من بعض يهود في فلسطين المحتلة، تُصَحِّح خطأ وقع فيه الأستاذ في طبعته الأولى من الطبقات، فكتب قائلا: «وكنتُ أخطأتُ بيانَ ذلك في طبعتي السالفة من الطبقات، فجاءتْنِي مِن الأرض المُقدَّسةِ التي دنَّستْها يهودُ = رسالةٌ رقيقةٌ من (م. ي. قسطر) فدلَّني على الصواب الذي ذكرتُه آنفًا، فمن أمانة العِلم أذكرُه، شاكِرًا كارهًا لهذا الذِّكْر».

وخير ما أدرجه هنا= كلمة تلميذه العلامة محمود محمد الطناحي تعليقًا على هذه الحاشية الباذخة، قال: «ومن أجمل وأحكم ما رأيتُه من مغالبة الهوى وقهر نوازع النفس، مع عدم إغفال الرأي الخاصّ = ما ذكره شيخُنا محمود شاكر في شأن مستشرق يهوديٍّ صحَّح له خطأً وقع فيه = فقال في (ص ٣٩٥) من طبقات فحول الشعراء: «وكنتُ أخطأتُ بيان ذلك في طبعتي السالفة من الطبقات، فجاءتْنِي مِن الأرض المُقدَّسةِ التي دنَّستْها يهود، رسالةٌ رقيقةٌ (م. ي. قسطر) فدلَّني على الصواب

الـذي ذكرتُـه آنفًـا، فمـن أمانـة العِلـم أذكـرُه شـاكِرًا كارهًـا لهـذا الذِّكْـر» فانظـر وتأمَّـلْ، كيـف اعـترف بالصَّنيعـة وشـكرها، ثُـمَّ لم يُخْـفِ مـا في نفسِـه».

وهـذا المسـتشرق الـذي أرسـل لأسـتاذنا هـذه الرسـالة= هـو البروفيسـور اليهـودي مائـير يعقـوب قسـطر، أحـدُ الذيـن أسسـوا الجامعـة العبريـة بـالأرض المحتلـة، وأسـتاذ اللغـة العربيـة الـذي أسـس قسـم اللغـة العربيـة في «جامعـة تـل أبيـب»، وشـارك في إنشـاء قسـم مماثـل في «جامعـة حيفـا»، كـما تـولّى إدارة مـشروع تأليـف المعجـم المفهـرس للشـعر العـربي الكلاسـيكي، وأسـس دوريـة الدراسـات الشرقيـة إسرائيـل.

وكان شـديد التقدير والاحـترام لشـيخنا العلامـة أبي فهـر رحمه الله تعـالى، وكان ينعـت شيخنا بــ «العلامـة»، وكثيرًا مـا كان يذكـره في مجالسـه الخاصـة مُكْبِرًا فيـه علمـه بالعربيـة وتبحـره في الـتراث[1]، ومـع هـذا كلـه، كان مـن اعتـزاز شـيخنا بدينـه وعربيتـه مـا صرفـه عـن المداهنـة، فقـال مـا في نفسـه ناصعًـا لا لبـس فيـه.

ولقـد توقـد غضبـا عـلى د. عـلي جـواد طاهـر -رحمـه الله- عندمـا أحـس في كلامـه غمزًا بـأن دار المعـارف أوكلـتْ إليـه تحقيـق كتـاب طبقـات فحـول الشـعراء، فقرصـه بكلامـه، وصـب عليـه شـواظًا مـن غضبـه، وبـين يديـه أبيـات الجرجـاني سـالفة الذكـر!

فـارغ من الدنيـــا!

وسِرُّ هـذا الإبـاء الـذي طُبِـع عليـه الأسـتاذ رحمـه الله، ولـه شـواهد أُخَـر لم أحـبَّ الاسـتفاضة في إيرادهـا= أن نفسـه فارغـةٌ مـن مطالعـة الدنيـا، فهـو رجـل علـمٍ صاحبـاه الكتـاب والقلـم، لا ينظـر إلى مـا وراء أوراقـه، ولا يحفِـل بأضـواء تلـك الدنيـا وزخارفهـا مـذ كان صغـيرًا، مـع شـعورٍ دائـم بالغربـة، يمـضي في مذاهـب الحيـاة وفجاجهـا لا يبـالي بسـوداء ولا بيضـاء، قـد مـلأ عليـه علمُـه ذاتَـه وصـبَّ فيـه روحَـهُ، يسـامر أصحابـه المقربـين، ويأنـس بهـم، ويعـترف بجميـل فضلهـم عليـه «فقـد آنسـوا وحشـته ونفـوا عـن نفسِـه القلـق»[2]، وحرسـته عاطفتـه المشـبوبة الرقيقـة عـن الانغـماس في اللهـو والعبـث، ولكـم تركـت في نفسـه ندوبًـا وجراحـاتٍ!

(١) استفدت هذه من الأستاذ الكبير أحمد شليلات في حديث كـان بيني وبينه.

(٢) من كلامـه بلسانـه، وسيأتي إن شـاء الله.

كما شغلته قضيته التي ابتُلِيَ بها صَغيرًا، - حتى أوشك يهلِك[1] - وعاني آثارها إلى يوم مات= عن كثير من ألواث الدنيا وغبارها، مع ما في محتِدِه ومَعْدِنه من الأصالة والنبل وشرف الأرومة والنسب، وعربيَّتِه التي تنهض بنفسه وتقيمها على صراط الأخلاق الشريفة؛ فللعربية ثمارها الأخلاقية= وما في قلبه من معاني هذه الشريعة المباركة، مع فراغه من أصفاد الوظيفة وترقُّب الراتب وانتظار الأجر= كل هذه أسباب جعلت منه شخصًا منعتقًا من أسر الدنيا ورسومها، حرًّا لا يلهث خلف مالِها، ولا يفتش عن أسباب الشهرة فيها!

بل كان على الضد من هذا: تتوالى عليه الثناءات ويطير اسمه في محافل الثقافة والعلم بعد كتابه المتنبي، فينصرف عن هذا كله - وهو في شِرَّة الشباب - ويغلق عليه باب صمته، ويكسر قلمَه فلا يكمل كتبه التي بشر بها عن أبي الطيب، فكسر بذلك قلوبنا إلى يوم الناس هذا!

ويهرب هربًا طويلًا من اللقاءات التلفزيونية، ويأبى هذه الأضواء كلها، مُكتفيًا بدنياه التي رسم حدودها بيده، وأقام قواعدَها على عينه في بيته، أو إن شئت فقل في مكتبته التي يبيت فيها!

فكان لا يغادرها إلا نادرًا، ولا يخرج من بيته إلا في رمضان، يتنسم عبق القاهرة العتيقة، ويمشي في شوارعها القديمة، بالغورية والحسين والأزهر.

ولقد حدثني الأستاذ جمعة الياسين حفظه الله - وكان من أصحاب شيخنا الكويتيين القدماء - أن الأستاذ كان لا يعرف من حسابات الدنيا والمال شيئًا، وأنه كان ينزل من بيته ولا يعرف ما أجر سائق التاكسي، وكل ما يصحبه مصحف في جيبه هذا، والحماسة في جيبه الآخر!

حتى إن ابنته زلفى وكانت صغيرة طلبت منه تفاحًا في سحر ليلة من الليالي، فينزل ويطرق الباب على صاحبه جمعة الياسين ويقول له: اشترِ أنت لها ما تريد.. لا يحسن مثل هذه الأشياء.

(١) أشير هنا إلى محاولته صغيرًا الانتحار، وهو أمر خاض الناس كثيرًا في سببه، وحسبي أن أقول هنا ما قاله هو عن هذا الأمر في مجلس خاص: «هذا أمر لا يعلم خبأه إلا الله وحده». ولربما أطلع الصغير شيخه الرافعي على بعض ذلك، والله أعلم.

ويوم تسلم جائزة الملك فيصل العالمية في الآداب= أخذ مال الجائزة ودفعه إلى الحاج محمود المدني؛ ليطبع الكتب على الوجه الذي يطمع فيه الأستاذ جودةً وإتقانًا.

وكان له إرث من أبيه تركه بنفس راضية لبعض أهله، ولم ينتفع منه بشيء.

ويأتي الصِّحَاب إلى بيته فيدخلونه بلا تكلف، ويجدونه دائمًا حافلاً بالكرم والجود الذي طُبع عليه طبعًا، واشتُهر به بين أصحابه وتلامذته، على ما في حاله من الرقة والقلة من المال، فطعامه طعامهم، ومكتبتهم مكتبته، وبيته بيتهم.

ومن القصص التي تدل على فراغه من أسباب الدنيا= أنه كان يضع قطعة من الجبن وبعض الخبز في البيت، قديمًا، فجاء بعض أصحابه وجعل يأكل، فرآه الأستاذ وصاح به مداعبًا: «قُوتي.. دع لي قُوتي!»؛ فلم يكن في البيت إلا هذا الطعام لهذا العالم الجليل!

وما كان ينشغل بما ينشغل به الناس، حتى إن زوجته الصالحة كانت هي التي تقوم عنه بالزيارات، وما يحتاجه الأطفال من لعب وتنزه؛ لكي يفرغ هو لما خلقه الله له من العلم والدرس، ولا يخرج إلا نادرًا للنزهة معهم[1].

وما كان يحفل بما عليه الناس من الطبقية المقيتة، فمائدة طعامه يجلس عليها الوزير بجوار عم أنور الحلاق، يقول أستاذنا العلامة محمود الطناحي رحمه الله: «ومن طريف ما يُذكر هنا ما رواه لي أبوفهر رحمه الله، قال: في يوم جمعة، في أوائل ثورة يوليو، كان يجلس على مائدة الغداء: محمد رشاد مهنا، والشيخ أحمد حسن الباقوري، ومحمد فؤاد جلال، وكان يجلس على المائدة نفسها الأسطى أنور الحلاق. وفي صباح اليوم التالي اتصل بي الشيخ الباقوري وقال لي: إن محمد فؤاد جلال - وكان وزيرا للشئون الاجتماعية - عاتِبٌ عليك لوجود الأسطى أنور بيننا.

يقول أبو فهر: وفي الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يا فؤاد! أنت وزير هناك في مجلس الوزراء، ولكنك هنا في بيتي واحد من عامة الناس، مثلك مثل الأسطى أنور وغيره».

ويحسن بي هنا أن أدلف إلى جانبٍ آخر من شخصية شيخنا؛ فإن له سببًا بهذا الذي نحن فيه.

(١) سيأتي إن شاء الله كلام شيخنا عن زوجه وذكره لفضلها عليه، وهو يقول ذلك باكيًا رحمه الله. وسيأتي في ملحق الصور صورة لأستاذنا وهو مع أهله في نزهة للأهرام.

الأفق الثاني

(تغرُّب لا مستعطفا غير ربه)

خذ ما شئت من صفات أبي فهر، وانظر ناقدًا أو مثنيًا، غير أنك لن تخطئ تلك الخصلة فيه قط= الخوف من رب العالمين.

وهذا أمرٌ كالذي قبله= تلوح شواهده بين يديَّ مطردةً مترادفة لا تتخلف في حياة شيخنا مذ كان صغيرا إلى أن لقي ربه.

وسأذكر هنا طرفًا يسيرًا من هذا الجانب في هذه الشخصية الفريدة المركبة، التي جمعت كثيرًا من الخصال في شخصٍ واحدٍ، بينما يشتد قاسيًا، إذ يلين مخبتًا خافت الصوت، وبينما يعلو صوته بضجيج الضحك، إذ يطل الدمع من عينيه وفي جوفه نشيجٌ عارمٌ، وبينما يغضب وتتلظّى حروفه على جليسه، إذ ينتهي المجلس به باسم المحيا، مُوصِلًا ضيفَه إلى باب المِصْعَدِ، مُشَدِّدًا عليه في المجيء المرة القادمة، كأنما يقول له: أنا منكم مكان الوالد، يشتد ويقسو، ولكنه أبدًا لا ينسى أنكم منه وأنه منكم[1].

عند الميقات!

وأول ما أذكره هنا= يوم خرج من مصر سنة ١٩٧١ بعد ظلمات الضيق خلف الأسوار المعتمة= مُتَوَجِّهًا إلى بيت الله الحرام حاجًّا في صحبة أسرته، وصاحبه جمعة الياسين.

وإذا بهذا الجبل الصُّلْب يتخفف من متاعه وثيابه، ويغتسل عند الميقات ويرتدي ثياب الإحرام، وما هي إلا ومضة البرق، وتَغشى ثيابُ الإحرام جسدَه كأنما وخزت قلبَه وخزةٌ لا يحسها إلا أولئك الربانيُّون= وينهمر «جَسَدُه» أبي فهر باكيًا؛ عينُه ووجهُه وصوتُه ونشيجُه وأعصابُه وخلاياه وذراتُه= كلُّ ذلك يبكي،

(١) سيأتي ذكر شواهد من هذا قريبًا إن شاء الله.

كل ذلـك ينهمـر انهـيارًا= كلُّ ذلـك يجثـو مطرقًـا ذليـلًا بـين يـدي رب العالمـين= وقـد طـارت السـنون عنـه وعـاد طفـلًا يغشـاه الخـوف مـن رب العالمين، مُتَوَجِّهًـا إلى بيتـه في شِـعار الذِّلـة والفقـر، مُحْرِمًـا مفارقًـا آثامـه، مُقِرًّا بهـا.. يهمهـم بكلـمات طمسـها الدمـع وغشَّـاها النشـيج الراجـف، ويهـم بعضهـم بمسـاعدته في النهـوض، فتشـير الزوجـة التـي عرفـت زوجهـا إليـه: أن دعـه.

وظـل أبـو فهـر رحمـه الله في هـذا الوجـد الخائـف والنشـيج الراجـف طويـلًا طويـلًا.. وأهلـه وصحبـه مـن حولـه ينتظـرون، حتـى غشـيته السـكينة، وقـام شـيئًا فشـيئًا، يجرُّ رجليـه مـن الرَّهَـب جرًّا، ومـضى إلى بيـت الله الحـرام مُلَبِّيًـا بالحـج.

تقـول لي أم فهـر حفظهـا الله: أشـهد أني مـا رأيـت في حيـاتي قـط أحـدًا بكـى هـذا البـكاء في أي موقـف أبـدًا.

ويقـضي شـيخنا مناسـكه، وكأنـما يسـعى في مكـة عـلى أطـراف أناملـه، مُعْرِضًـا عـن اللغـو، مُقْبِلًا عـلى الذكـر والصـلاة والدعـاء.

في مكــــــة

ويـوم كان يـزور مكـة مـن بعـد، فيـأوي إلى بيـت صاحبـه وتلميـذه أبي محمـد محمـود الطناحـي رحمـه الله؛ فقـد كان يـدرس في جامعـة أم القـرى= كان يأبـى النـوم عـلى السريـر ويفـترش الأرض، رهبـةً مـن جـوار الحـرم، ومضاعفـة الآثـام فيـه، مـرددا قولـه تعـالى: ﴿ومـن يـرد فيـه بإلحـاد بظلـم نذقـه مـن عـذاب أليـم﴾.

جبــل الجــودي

وأنـت تجـد هـذا الخـوف نابضًـا في حرفـه الـذي كتـب بـه المقدمـة النفيسـة للسـفر الأول مـن جمهـرة نسـب قريـش وأخبارهـا للزبـير بـن بـكار[1]؛ إذ ينهـي تقدمتـه بالتنبيـه عـلى عبـارةٍ كتبهـا في طبعتـه الأولى مـن الكتـاب، فاسـتدرك قائـلًا في بيـانٍ مخبـتٍ:

(١) لم يكملـه، كشـأن مـا تركـه الشـيخ خلفـه مـن كتـب لم تكمـل كتفسـير أبي جعفـر، فـترك مـن خلفـه حسـراتٍ في القلـوب!

«ولكن بقي في الاستدراك ما لا أستحل إغفالَه؛ فإني كتبت في (ص ٤١٣ تعليق: ٤) ما نصه: «والجوديُّ، جبل بالجزيرة، هو الذي، زعموا، استوت عليه سفينة نوح عليه السلام»= فكان لهذه العبارة وقعٌ سيئٌ في نفوس أهل التقوى من أصحابنا؛ لأن (سوء العبارة) يوهم أني أتوقّف في استواء سفينة نوحٍ على الجُوديِّ، وهو نصُّ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأنا أستغفر الله مما يوجب هذا التوهم، ومعاذَ الله أن أقولَ مثلَ هذه المقالة، فأتوقفَ في شيءٍ مما ذكر الله تعالى في كتابه. وإنما أردت أن لا أقطعَ القولَ في أيِّ جبلٍ هو؛ فإنهم ذكروا أن الجوديَّ أيضًا جبلٌ آخرُ بأجأ، أحدِ جبلي طيء...وقيل أيضًا إن الجودي اسم لكل جبلٍ، وقيل: الجودي هو جبل الطور». وكل ما لم يأتِ فيه بيانٌ فصلٌ في كتاب الله، فهو من الحقائق التي لا تُدرك إلا بخبرٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي جعل الله إليه بيانَ القرآن. فإذ لم يأتِ البيان عنه، فالتوقف فيه واجب؛ أيُّ الجبال التي ذكروها هو، وأستغفر الله من سوء عبارتي التي زل بها القلم».

فانظر إلى فَرَقِه من ربه، ووصمه عبارته بالسوء= واستغفاره من هذا الوهم الذي قذفته العبارة في بعض الأذهان= واستعاذته بالله أن يكون كان يقصد مثل هذا الذي توهمه العبارة= وتسليمه قيادَ نفسِه في العلم بالغيب إلى الشرع كتابًا وسنةً؛ فلم يعتذر اعتذارًا باردًا، ولم يدفع بمعاول الجدلِ ما يعلم يقينا أنه لا يقصده، وهذا شأن من يخشى المسألة يوم القيامة.

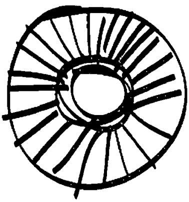
مواجيد الذكر!

ولقد ذكر مرة صاحبه وتلميذه العلامة محمود الطناحي، أنه والشيخ كانا معًا في سفر إلى الأسكندرية، فجعل أبو فهر يتلو شيئا من القرآن، واستمر في تلاوته حتى أدركه الوجد وفاض الدمع من عينيه رحمه الله.

لا تَسُبُّـوا أصحـابي

ويلتحق بهـذا مـا كان عليـه رحمـه الله مـن الشـدة التي لا تتخلخـل إذا ذُكـر بـين يديـه أحـدٌ مـن السـلف رضي الله عنهـم، لاسـيما أصحـاب نبينـا صـلى الله عليـه وعـلى آلـه وصحبـه وسـلم بسـوء.

وقـد كان مجلسـه عامرًا بألـوان النفـوس والعقـول والمذاهـب والأفـكار، يفتـح بيتـه لـكل أحـد، ويسـعهم جميعًـا بأسـتاذيته ودفء كرمـه، يصحـب مجـدي وهبـة المسـيحي، ومحمـد جـلال كشـك الشـيوعي[1] = غـير أن للعلـم حُرْمَتَـه التـي تشـتد إذا كان الحديـث عـن أحـد مـن الصحابـة رضي الله عنهـم.



فـإذا مـا تقحَّـمَ أحـد الجالسـين هـذا المضيـق، وأطلـق لسـانه بـشيء مـن الجهـل ممـا أفِكَـهُ المفـترون عـن أصحـاب نبينـا صـلى الله عليـه وعـلى آلـه وصحبـه وسـلم في شـأنٍ مـا شـجر بينهـم رضي الله عنهـم= تهـاوت عـلى رأسـه صواعـق الغضـب العليـم مـن أبي فهـر، تأخـذه أخـذًا لا يـترك في رأسـه ذرةً توسـوس باقـتراف هـذا الأمـر مـرة أخـرى!

ولقـد كان لهـذا أثـره في كثـير مـن النفـوس التـي اسـتعانت عـلى فهـم أمتهـا بعقـول غيرهـا، واتـكأت عـلى أكاذيـب الـرواة وأسـمار الأدب في تكويـن تصورهـا عـن هـذه الأمـة وتاريخهـا= فتعلـم مَـن تعلَّـم، ورجـع عـن سـلوك هـذه السـبيل مـن رجـع[2].

ولقـد كان لـه موقفـه المعـروف مـن كتـاب أسـتاذه طـه حسـين: الفتنـة الكـبرى، ولـه موقفـه الشـهير مـع الأسـتاذ سـيد قطـب رحمـه الله عندمـا زل بـه قلمـه فتقحـم الحديـث عـن بعـض الصحابـة رضي الله عنهـم بـكلام قبيـح، رده عليـه أبـو فهـر ردًّا طويلًا مسـتفيضًا في مقـالات متتابعـة تهـدر بالغضـب، أحدثـت دويًـا هائـلًا، وصخبًـا كبـيرا.

وسـيأتي معنـا في فصـول الكتـاب مـا يـدل عـلى هـذه الخصلـة في شـخص شـيخنا رحمـه الله تعالى.

---

(١) قبل أن يترك ذلك كله ويرجع منافحًا عن الإسلام والعرب.

(٢) سـيأتي في كلام العلامـة عبـد الحميـد البسـيوني رحمـه الله طـرفٌ مـن هـذا، فقـد كان مـن الذيـن ولجـوا هـذا المضيـق صغـيرًا، ثـم أبـصروا عـلى يـد أبي فهـر رضي الله عنـه.

الأفق الثالث

خفقات العُقاب!

صورة أبي فهر المعلقة على جدار نفوس الذين لا يعرفونه، وبعض من يعرفونه تلك المعرفة العابرة= هي تلك الصورة اليابسة لرجل شديد الصرامة، عابس الوجه، مقطب الجبين، تتقاذف الكلمات الغاضبة من فمه، ولا يكف قلمه عن إثارة العَجَاجِ في معاركه هنا وهنالك!

ولقد ذكر شيخنا رضي الله عنه بعض هذا عن نفسه، فقال في رده على العلامة سعيد الأفغاني رحمه الله: «هذا على ما ركِّب في أصل خلقتي من الحدة والثورة وضيق الصدر»!

نعم لقد كان كذلك، ولم يكن كذلك!

وتفسير ذلك في كلمة أستاذنا الكبير الشاعر الفرد أبي همام د. عبداللطيف عبدالحليم حفظه الله، وهو يشبه شيخنا بثمرة «جوز الهند»، وهو تشبيه عبقري لتلك النفس التي ترتدي مِعطفًا قاسيا صلبًا في خارجها، بينما هي طيبة هينةٌ عامرة باللين والحنان والرحمة والطفولة في أعماقها!

وقد تواشجت أسبابٌ متعاضدة في تكوين هذا الظاهر الصُّلب المتوقد لشيخنا رضي الله عنه، فهو أمرٌ رُكِزَ في جبلته، ثم آزرته أسبابٌ زادته انقباضًا عن الناس، من تجاربه في التعامل مع الكثيرين منهم:

=فهذا صغيرٌ نشأ في بيئة شريفة المحتد موصولةٍ بأسباب العلم والشرف= عربيًّا مسلمًا حرًّا، يبصر أمته وقد بسط عليها الاستعمار ظلماته، واختلس إليه طائفةٌ تحمل لواء التبشير به، وتنطق باسمه في المحافل والمنتديات، وإنهم لعربٌ، وإنهم لمسلمون!

فوجم غاضبًا!

=وهذا شاب فتيٌّ مشبوب العاطفة يدلف إلى الجامعة وفي نفسه معناها الباذخ، ولأساتذتها في قلبه المكانة الكبيرة= فرأى عبثًا هائلًا في تراث الأمة وتاريخها يقوم به من كان عليه حياطة هذا التراث وصيانة ذلك التاريخ!

وسمع أصداء الاستشراق تتهادى في قاعة الدرس، وتنطق على لسان أستاذه الذي يجلس محاضرًا بلسان عربي مبينٍ في حرقِ جذور هذا اللسان العربي المبين!

فوجم غاضبًا، ثم غادر مرتحلا عن وطنه وجامعته، فارًا من فساد الحياة الأدبية، الذي طغى فاستبد بكثير من العقول والنفوس!

=وهذا كاتبٌ عليمٌ في شبابه المثقلِ بالفكر والثقافة والعلم والانطباع على الجدِّ= جلس ليكتب كتابه الأول، فإذا بيدٍ تتسلل إلى كتابه ساطيةً تقصُّ أثره بل تُغير عليه وتسلبه جهده، وإنها لَيَدُ أستاذِه القديم الذي فارق من أجله مصر!

فتوقَّدَ غاضِبًا وأمسك قلمَه يدفعُ به عن نفسه عاديةَ السَّطْوِ الأدبي على كتابه الأول في اثني عشر مقالًا أوقفها موت أستاذه وحبيبه أبي السامي مصطفى صادق الرافعي، ويطير الغضب عن قلبٍ لم يبق فيه موضع إلا للبكاء والحنين!

ثم تُطِلُّ يد أخرى لأستاذ آخر، ألينُ مسًّا وأخفى أثرًا، ترقب حرفه، وتأخذ من كتاب المتنبي أخذًا رفيقًا مستترًا، فيحمله الغضب على مواجهة أستاذه بما كان منه، كِفاحًا، فتعلل أستاذه واعتذر، فرضي تلميذه الذي طُبِع على الحياء بهذا الاعتذار الذي لا يُرضي!

ولكنَّ أستاذه عاد مرة أخرى إلى بعض سيرته الأولى في طبعات كتابه الجديدة، فبقي في نفس أبي فهر بوحٌ مكظومٌ وجد له مُتَنَفَّسًا في صدر نشرته السبعينيّة لكتابه الفذّ «المتنبي»، فيما أسماه: كتابان في علم السطو!

=وهذا مفجوعٌ بحبيبه الرافعي، يجلس على رضْفِ الأحزان، فيجد مَنْ يهدِم في شخص حبيبه هدمًا، ويسلبه معنى الإنسانية، ويُفَرِّغُه من كل فضيلة، وإنه ليزعم ذلك نقدًا، ويكتبه على صفحات الرسالة!

فينتدبه صديقه محمد سعيد العريان للرد، وينهض للرد غاضبًا حزينًا، يكشف بالعلم، والعقل، والحجة، والبيان الغاضب، والدليل المستقيم=ما رآه زيفًا وباطلًا من كلام تلميذ العقاد وحامل لواء الدفاع عنه في تلك الأيام؛ الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

=وهذا عالم شابٌّ يجلس في عزلته، فيجد من يتهجم على تاريخ الأمة= ثم يجد من يدعو إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني= ثم يجد من يداهن المحتل ويحمل بين يديه مباخر التبشير بحضارته=ثم يجد من ينعق بالإلحاد ويجاهر به= ثم يجد من يدعو إلى قطع أواصرنا مع آبائنا، ثم يدعي نسبًا «إلى آباءٍ هلكوا تحت مواطئ الإسلام والعرب إلى غير رجعة»[1]= ثم يجد من يقتحم سور العلم بلا أهلية= ثم يجد من يتشبع بما لم يُعطَ فينسب نفسه إلى ما لا يحسنه، ويدعي ما ليس له= ثم يجد أعجميَّ العقل ينهش نهشًا في جسد الأمة وهو يزعم البحث في شعر أبي العلاء وتاريخه= ثم يجد من يدعو إلى ترجمة القرآن إلى العامية= ثم يجد نابتةً يتطاولون على الأئمة ويقسمون الأمة فرقا وأحزابًا، ويقولون: هم رجال ونحن رجال= ثم يجد من يمسخ كتب التراث وينشرها نشرًا ملؤه الخفةُ والجهل= ثم يجد من أخذتْه أسباب الفتنة فقلبت قلبَه وقلبت لسانَه وقلبت عقلَه، فهو أعجمي عربي= ثم.. ثم يجد من يغذوها حُبَّه، فتنأى بعيدًا فيكتب إليها: «لا تعودي أحرق الشك وجودي»!= كل هذا يتدافع بتياره وصخبه وموجه الهادر إلى أعصاب نفسٍ مثخنةٍ بجراحٍ قديمة لم تبلَ، وروحٍ مفعمةٍ بالحب لهذه الأمة المجيدة، ونفسٍ تبصر مكر الغازي ودسه، وشخصيةٍ غضوبٍ سريعة الانفعال.

وهذا الذي أبَنْتُ لك من حياة شيخنا= كان يعيشه بدمه وأعصابه وخلجات نفسه، مما أورثه هذا الغضب الذي تسامَعَ الناس به، وأبصروا بعض آثاره.

ولكنَّ التأني في النظر إلى معالم شخصية شيخنا= يدلنا على أن جمهرة هذه الأسباب يتعلق بما هو حقُّ العلم وحق الأمة، وأن ما كان منها متعلقًا بحظ النفس= فهو أقل من غيره من الأسباب، وإن كان موجودًا وله شواهده، وهو في النهاية من أبناء آدم، فيه ما في الناس من عثرات وأغلاط، ومحاسن ومعايب، لا ينفيها عن نفسه، ولا يحب أن يكسو وجهَه إهابًا ليس له، وإن أحسَّ بعضُ الناس أن بينهم وبينه سورًا ساخنًا يأخذ بحُجَزِهم بعيدًا عنه.

ولكنَّ من وراء هذا السور الساخن= نفسًا حانيةً شديدة الرقة، مفعمةً بالحنان البالغ والرحمة الودود.

(١) من كلام شيخنا في مقدمته لجمهرة نسب قريش/ ٥٢.

ولابـد مـن بَسْـطِ شـواهد هـذا الحنـان الرحيـم، ومـن اصطيـاد خفقـات ذلـك العُقـاب النبيـل؛ لكـي تكتمـل صـورة شـيخنا صحيحـةً تامـةً في نفـس مـن لا يعرفـه، لا أعنـي كـمال الخلـوص مـن النقـص، فهـذا ليـس لأحـد بعـد النبـي صـلى الله عليـه وسـلم، ولكـن كـمال المعرفــة بشخصــه.

القــط النائــم

كان شيخنا يلـزم كتابـه طيلـةَ يومـه، لا يتركـه إلا قليـلا، لصـلاة أو طعـام ومـا يكـون من شـأن الإنسـان في يومـه ومـع أسرتـه، ولقـد كان يجلـس فيأخـذه تدبُّـر مـا هـو فيـه عـما حولـه، وينغمـس فيـه بنفسـه وفكـره وحركـة قلبـه، فـلا يـكاد يشـعر بوقـتٍ أو يحـس بأحـد.

حتـى إذا فـرغ مـن لذتـه الوحيـدة في الحيـاة، وهـي القـراءة[1]، يقـوم فيـأوي إلى سريـره ليرتـاح عليـه ولم يكـن صاحـب سـهرٍ، وكان عندهـم في البيـت قـط تأتيـه نوبـات مـن الـصرع، تدهمـه ثـم تقلـع عنـه، فيـؤوب إلى حالـه التـي كان عليهـا هادئـا وادعًـا متعبًـا فينـام، وللقطـط في بيـت شـيخنا مـكان ومكانـة، لاسـيما عنـد أم فهـر حفظهـا الله!

وفي ليلـةٍ داهـم الـصرعُ ذلـك القـط وهـو ممـدٌ عـلى سريـر شـيخنا رضي الله عنـه، ثـم هـدأ وذهـب عنـه مـا غشـيه، فنـام مكانـه، فلـما أقبل شـيخنا لينام وجـد القـط، فهمَّـت أم فهـر بتنحيته عـن سريـره، فنهاهـا نهيًـا عـن ذلـك، وقـال: دعيـه، لا تزعجيـه.. سـأنام عـلى الأرض!

عــبرات الوفــاء

كان شـيخنا قريـب الدمعـة سريعهـا، وكان ذا نفـس تجيـش بالمشـاعر لا تـكاد تصـبر عـلى كظـم دمعهـا إذا مـا اسـتبد بهـا الوجـد!.. ولهـذا قصـص كثـيرة:

منهـا: تكلـم بـين يديـه صاحبـه وتلميـذه الأثـير محمـود الطناحـي، وذكـر في كلمتـه فضـل شـيخنا عـلى تلامذتـه، وفضـل هـذا البيـت العامـر بالعلـم والكـرم عـلى كثـير مـن الذيـن تسـنموا الـذرى وحصلـوا جاهـا عريضًـا مـن الدنيـا[2]، ثـم تنكـروا لفضلـه وجحـدوا يـده عليهـم.

(١) كما سيـأتي هـذا على لسانه قريبـًا إن شـاء الله.

(٢) ستأتي تلك الكلمة إن شاء الله بنصها في دفتر الأصحـاب.

فلما تكلم شيخنا وعرض لذكر أصحابه مثنيًا عليهم، ذاكرًا فضلهم عليه= تهدج صوته باكيًا مطرقًا وهو يقول:

«إن الذي غمرني به أصحابي من الحب والعناية، ومن دخول بيتي بلا تكلف= أعظم مما أعطيتهم جميعًا»[1]..يقول ذلك باكيًا تتهادى عبراته في أثناء كلامه!

ثم قال: «لأنهم الذين آنسوا غربتي، ونفوا عن نفسي القلق، وأرضوني بهذه الحياة التي نحياها[2]، وبثوا في قلبي الأملَ= أن يكون لهذه الأمةِ في يوم من الأيام خطرٌ كالذي كان لها فيما مضى. وهم على قلتهم كانوا يعطونني من مودتهم ومن إخائهم ومن رعايتهم - ولا أقول هم فقط، بل حتى الذين غيرتهم الأيام عليَّ بعد سنين طويلةٍ- قد كان لهم فضل كبير في أن أبقى ملازمًا لطريقي الذي اختطته منذ كنت طالبًا صغيرًا، وبقيت ملازمًا له أكثر من ستين سنةً.

ولا أستطيع أن أصور لكم ما يتزاحم الآن في صدري من المعاني ومن الذكريات التي كنت أخشى يومًا ما أن تُدَمِّرَنِي في طريقي.

فهؤلاء الأصحاب هم الذين عصموني دهرًا طويلًا - لا أقول الحاضرين - بل أذكر الماضين والفانين ومن لا يحضر مجلسنا هذا من أصحابنا القدماء، فكلهم كانوا عونًا لي على استبقاء حياتي في نظام متصل.

وأشهدكم أني مهما فعلت لهؤلاء جميعًا= فإني لم أعطهم معشار ما أعطوني. وإذا كان لي شيء من الفضل، فهو من إنعام الله عليَّ وتسديده لخطوتي التي خطوتها منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، والتي آثرت فيها أن أنصرف إلى هذه الأمة وإلى علمها وإلى ماضيها وإلى تاريخها، وأتركَ كل غرضٍ في الحياة.

حتى إخواني الصغار في ذلك الوقت هم الذين أعانوني على تسديد خطاي في ذلك الطريق، وتركِ جميع الطرق التي كانت تشغلني وتشغل أمثالي من الطلبة في ذلك الوقت.

فانصرفتُ انصرافًا كاملًا إلى هذا العمل الذي أصبح اللذةَ الوحيدةَ التي ألتذُّ بها، وهي القــراءة!

---

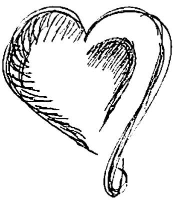
(١) من قوله بلسانه رضي الله عنه.

(٢) هذه الكلمة كاشفة عن معانٍ كثيرة.

فأنـا محـاطٌ برعايـة أحبـابي، وهـم أصحـاب الفضـل علـيّ، لا أنـا صاحـب الفضـل عليهـم، صغيرهـم وكبيرهـم، وكلهـم يعلـم هـذا، أو أرجـو أن ينتبـه إلى هـذا= أني أعامـل الصغـير والكبـير معاملـةً توحـي لـه أني أضـع في يديـه أمانـةَ الـشيء الـذي عنـدي، والـذي ائتمننـي الله عليـه.. فأنـا أريـد أن تكـون هـذه الأمانـة في أيـدي أبنائي»[1].ا.هـ

وقـد آثـرت نقـل الـكلام بطولـه؛ لنفاسـته، ولمـا فيـه مـن معـالم الوفـاء، ومـا يكشـفه مـن رقـة تلـك النفـس، وصفائهـا، ومـا في أطوائهـا مـن خفقـات وفـاءٍ وصـدق.

أبـــوة حانيـــة



كان مـن وراء هـذه القسـوة اللفظيـة التـي تتناثـر في مجلـس شـيخنا رحمـه الله= أبـوة حانيـةٌ، تجعـل في هـذه النفـوس ممـرًا تعـبر منـه تلـك الشـدة التـي مـا نبعـت إلا مـن قلـبٍ ينبـض بالأبـوة لأصحابـه وتلامذتـه.

ثـمـن الإجـــازة

فهـذا يحيـى حقـي صديـق العمـر، يجلـس متحدثًـا عـن فضـل صديقـه وصاحبـه أبي فهـر، ومـا تعلمـه منـه، وهـو يفاخـر بـأن أبـا فهـر قـد قـال لـه: اذهـب فقـد أجزتـك!

ثـم يسـتأنف ضاحـكًا، وهـو ينظـر إلى صاحبـه القديـم: «ولا تظنـوا أني لم أدفـع ثمـن هـذا مـن كلـمات التوبيـخ والشـتم والإهانـة وتسـليط أفظـع الألقـاب عـلي»[2]..! فيضحـك شـيخنا أبـو فهـر ويضحـك يحيـى حقـي رحمـة الله عليهـما!

استدراكات الطنـاحي

وهـذا تلميـذه الأثـير، محمـود محمـد الطنـاحي، يجلـس إلى شـيخه وقـد قبـض بيـده بضـع ورقـات فيهـا بعـض ملحوظاتـه عـلى نـشرة شـيخنا لطبقـات فحـول الشـعراء، فينظـر إليـه شـيخنا وهـو يقـول لـه: « في إيـه»؟!

(١) كان ذلك في العاشر من المحرم عام ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م، في بيت شيخنا بمصر الجديدة، والكلام بنصه كله له.

(٢) من كلامه بنصه ولفظه في مجلس ببيت شيخنا عام ١٩٨٨.

فقال الطناحي - مستحييًا -: هناك إن أذنت يا شيخنا بعض الأشياء التي استشكلتها في طبقات الفحول.

فرد عليه شيخنا ينتهره: «ما تقول يا محمود وما تبقاش حمار»!

فسرد عليه العلامة محمود الطناحي ملحوظاته على مواضع من الكتاب، فجعل الشيخ يطيل النظر وهو يمسح رأسه، كعادته إذا تفكر في شيء، ثم قال له: «كل ما قلته صحيح، بس هذا لا يمنع أنك حمار»[1]! ويضحكان معًا!

وستجد هذه الاستدراكات مُلْحَقَةً بآخر الكتاب من طبقات فحول الشعراء!

أنت صعيدي مثلي

وهذا تلميذه عادل سليمان يكتب وهو طالب في الجامعة بحثًا عن محمد بن سلَّام الجمحي رحمه الله، فيقول له أستاذه الدكتور سيد حنفي: سأكافئك على هذا البحث باصطحابك إلى بيت العلامة محمود محمد شاكر، لكني أحذرك من الآن؛ فإن له لسانًا شديدًا!

يقول لي الدكتور عادل: فرضيت ومضيت معه إلى بيت أبي فهر وأنا أستصحب تحذير أستاذي، ودخلنا إلى البيت، وفتح لنا الأستاذ الباب، فقال له الدكتور سيد يعرفه بي: هذا تلميذ من التلامذة النجباء، واسمه عادل سليمان.

فنظر إليه الشيخ قائلاً: أليس تلميذًا لك؟! يبقى أكيد حمار زيك!

فاستدار عادل سليمان إليَّ موليًا وجهه إلى الباب لينصرف، مع أن أستاذه حذره! فلما رآه الشيخ منصرفًا إلى الباب ضحك ومد يده وضمه إليه قائلًا: تعال هنا! لابد وأنك صعيدي مثلي!

ودخل عادل سليمان البيت، فوجد أبا كبيرًا وشيخًا مربيًا، وعالما فردًا، فكان هذا البيت مأواه ومحطَّ آماله.

---

(١) تصرفت في القصة بعض التصرف، أذكر هذا من باب أمانة النقل!

حمار في أسبانيا!

وهذا الشاعر الكبير أستاذنا الدكتور أبو همام، وقد كان صاحب شيخنا في رحلته إلى الأندلس لعلاج عينيه، وكان أبو همام يقرأ على شيخنا من الحماسة، ويتكلم شيخنا ببعض العلم، فيعترض أبو همام ويرد على شيخنا، ويخطئه.. فيسكت شيخنا ويضحك وينظر إليه قائلًا: هو أنا أسيب «حُمار» في مصر ألاقي «حُمار» في أسبانيا - بضم الحاء!

فضحك أبو همام وقال له: طيب قد عرفت الحمار الذي في أسبانيا، فما الحمار الذي في مصر؟! فقال له الشيخ ضاحكًا: الحساني![1]

يا معلم!

وقد كانوا يستشعرون هذه الأبوة الحانية، ويجلسون في بيته ويتحدثون معه كما قال بلا تكلف، يعلقون ويتكلمون ويعترضون ويمزحون، لاسيما صاحبه العلامة محمود محمد الطناحي رحمه الله تعالى؛ فقد كان ذا طرفةٍ آسرةٍ، وبينه وبين الشيخ مواقف كثار، واتصالات يومية طويلة، يتناقشان في العلم وبعض ما أشكل على الدكتور الطناحي في تحقيقه لبعض الكتب، كالشعر لأبي علي الفارسي، وأمالي ابن الشجري، وغير ذلك.

فإذا ما أضاء له شيخنا رحمه الله بعض الأمور التي تعينه على الاهتداء إلى حل النزاع= يقول الطناحي: «والله يا مولانا أنت معلم، وطمعت في البضاعة كلها»= يعني تفنن شيخنا في كثير من أبواب العلم= ويضحك الأستاذ محمود شاكر!

وإذا ما ذكر الأستاذ محمود شاكر أسماء الحاضرين يثني عليهم ويشكر لهم حضورهم، ينادي محمود الطناحي: وأنا وأنا!

فيضحك أبو فهر والحضور ويقول: وطبعًا الدكتور الطناحي!

(١) أحد كبار الشعراء الفحول، ومن الذين أُشربوا علم العروض، وكان من تلامذة العقاد وتلامذة شيخنا، وقد ذكره شيخنا في كتابه نمط صعب ونمط مخيف. لحقت به محنة، ثم كشفها الله عنه.

الأهلي مغلـــوب!

وكـم كان يشاكسـه شيخنا في تعصبـه الكـروي؛ فقـد كان الطناحـي شـديد التعصـب للنـادي الأهـلي، حتـى بلـغ بـه الأمـر أنـه كان يربـط عـلى رأسـه عصابـةً إذا كانـت هنـاك مبـاراة للأهـلي، وقايـةً مـن الضغـط والصـداع؛ لتوتـره وانفعالـه!

وحتـى إن كريمتـه أروى حفظهـا الله خُطِبـت إلى شـابٍ ينتمـي إلى أسرةٍ زملكاويـة، فدعـاه مـرةً أصهـاره للإفطـار في نـادي الزمالـك يـوم الجمعـة، فذهـب عـلى مضـض، ثـم تهيـأ للذهـاب إلى الصـلاة، فقالـوا لـه: نصـلي في مسـجد النـادي، فقـال: أنـا لا أصـلي الجمعـة في نـادي الزمالـك!

فهـذا متعصـب محـترق، يعـرف شـيخه هـذا عنـه، وينفـذ إلى ضعفـه مـن هـذا البـاب، حتـى كانـت الواقعـة الكـبرى! يـوم تتابعـت الأهـداف في مرمـى الأهـلي مـن خصمـه، وكلـما سـجل الفريـق الخصـم هدفًـا اتصـل أبـو فهـر بتلميـذه الطناحـي، وقـد غير نـبرة صوتـه، ليبـشره بهزيمـة الأهـلي ويغلـق في وجهـه السـماعة.. وتكـرر ذلـك ثـلاث مـرات، بثلاثـة أصـوات متغايـرة مـن مجهـول يتصـل بالطناحـي شـامتًا مسـتهزئًا، حتـى نـال منـه الطناحـي وسـبه في المـرة الثالثـة وقـد احـترق قلبـه غيظًـا مـن هـذا المجهـول الـذي لم يكـن يعلـم أنـه شـيخه محمـود محمـد شـاكر!

ويحـين موعـد الذهـاب للأسـتاذ، ويجلـس الطناحـي عـلى مائـدة الطعـام، ويتركـه شـيخه ليطعـم، ثـم فاجـأه قائـلًا: كيـف لـك وأنـت تـربي الأجيـال أن تسـب رجـلًا لا تعرفـه؛ لأنـه يخـبرك بنتيجـة مبـاراة!

ويحمـر وجـه الطناحـيّ وتسـقط الملعقـة مـن يـده حيـاءً مـن شـيخه، وهـو يـضرب رأسـه بيـده ويقـول: يـا نهـار أبيـض! هـو حضرتـك!

فيضحـك محمـود شـاكر مـلء شـدقيه، ويجلـس الطناحـي وقـد غلبـه الحيـاء كلـما تـردد في أذنـه صـوت سـبه لـذاك المجهـول الـذي علـم الآن أنـه شـيخ العربيـة!

هـذا محمـود شـاكر في صرامتـه ومرحـه ومعاملتـه لتلامذتـه معاملـةً خاليـةً مـن التكلـف والتوقـر الـكاذب، بشـخصه وطبيعتـه كـما هـي، وقـد قبلـوه وأحبـوه كـما هـو!

البيمارستـــان!

وكان في بعـض الأحيـان يـمازح مـن معـه مـن أصحابـه ويقـول: عنـدي غـد موعـد في البيـمارستان، وهـو الاسـم الـذي كان يسـمي بـه مجمـع اللغـة العربيـة!

عيبه في عصبيته!

أتى الأستاذ الأديب السوري الكبير عصام العطار إلى مصر، واصطحبه الأستاذ عبدالعزيز كامل إلى دار شيخ العربية بعد مدة من نزوله مصر، فتلقاه الأستاذ رحمه الله بكرمه وإخائه المعروفين، ثم حانت منه التفاتةٌ سأل فيها ضيفه العطار: منذ كم أنت في مصر؟!

قال: منذ شهر تقريبًا!

فجعل الأستاذ يبرق ويرعد ويعلو صوته قدحًا وثلبًا في الإخوان المسلمين، الذين كرهوا أن يزوره عصام، وعطلوا قدومه إلى بيته كل هذا الوقت، وفي عبدالعزيز كامل وصوته يعلو ويتقصف، ثم مرت ثوانٍ وعاد إلى السكينة وفي عينيه بقايا دمعة..!

واستقبل الحديث هادئًا هينًا كأن لم يعبر بالمكان عاصفٌ من الغضب منذ قليل!

ثم تجارى الحديث فيما بينهما، وجاء ذكر الشيخ الأديب الكبير علي الطنطاوي، وكانت له صلةٌ عتيقةٌ بشيخنا أبي فهر، فجعل شيخنا يثني عليه غير أنه قال: إن فيه علةً.. وهو أنه عصبي المزاج كثيرا!!

فضحك عصام العطار ضحكًا شديدًا وقال: أنت تقول هذا الكلام!!

ثم قال الأستاذ العطار: وصار بيت محمود شاكر بيتي ومكتبته مكتبتي وطعامه طعامي.[1]

فتنة الدال

وكان يرعى تلامذته ويحدب عليهم ويسعى في الخير لهم، ويحثهم حثًّا على لزوم سبيل الإتقان والعلم، مع النظر فيما يصلح لهم.

وكان من ذلك حثه تلميذه الطناحي على إكمال الدكتوراه، وقد كان الطناحي في صحبة الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله، يحقق كتابه الجليل «طبقات الشافعية الكبرى»= فكان يقول لشيخه: وماذا سأفعل بالدكتوراه؟ مجلد واحد من طبقات الشافعية خير من مائة دكتوراه!

---

(١) في ذكرياته بقناة الحوار اللندنية، نقلت كلامه بتصرف.

فيقول له شيخنا: أنت في زمنٍ لا يسمعون فيه إلا لذوي الأسماء المسبوقة بدال؛ فاسعَ إلى تحصيل تلك «الدال» لتجد من يصغي إلى علمك!

ولم يزل به حتى تم له الأمر، ونال الدكتوراه في تحقيق جزء من أمالي ابن الشجري، وارتحل إلى المملكة أستاذًا تحت بند « فئة خاصة».

أوصيك بابنتي

ومن ذلك إرساله رسالةً إلى صديقه القديم الأستاذ الكبير حسين نصيف، يوصيه فيها بزوج الدكتور الطناحي، وكان من كلامه فيها: «جاءتك ابنتي عنايات، فأوصيك بها خيرًا..»، وكانت هذه القصاصة سببًا هيأ لها الدراسة في جامعة أم القرى[1].

عبدالحميد البسيوني

ويدخل عليه أحد تلامذته من الكويت، ويجد عنده شابًا ضئيل الجسد نحيف الوجه، اسمه عبد الحميد البسيوني يعين شيخه في مراجعة تفسير أبي جعفر ابن جرير الطبري، فيقول له الأستاذ: خذوا عبد الحميد ليعمل معكم في الكويت..

وكان ذلك، وتهيأت لأبي تميم؛ عبد الحميد البسيوني - الذي كان علامةً كبيرًا- أسباب الدنيا التي وصلته بالديوان الأميري، وكان له صيت ومكانة ومنزلة عظيمة في الكويت، حتى مات رحمه الله تعالى !

رِفعة الغقاب ونُبله!

وكم من رسالةٍ وبحث ودراسة وفكرة استوت على سوقها في بيت شيخنا، وتحت عينه، وبتسديده وتقويمه، ولكن كثيرا من الناس لا يعلمون.

ولقد كان يقضي الساعات الطوال في كتابة صفحات طويلةٍ تصل إلى الأربعين صفحةً من نقداته وتعقباته لبعض البحوث والمصنفات، ويرسل بها إلى أصحابها؛ ليتداركوا أخطاءهم، لا يسمِّع بهم ولا يدل عليهم!

ولم يكن ليرجعَ عليه ذلك كُلُّه بشيء، غير أنه عالمٌ يحب العلم، ويحمل أمانته، ويؤديها إلى أصحابه على الوجه الذي يُعْذِر فيه إلى ربه تبارك وتعالى.

---

(١) كما أخبرتني هي رحمها الله ورضي عنها.

بـل نالـه مـن العقـوق مـا نالـه، وتنكـرتْ لـه وجـوه كـم سـعت للجلـوس بـين يديـه، وجلسـت الليـالي والنهـار في بيتـه! وكـم دخـل داخـلٌ فسـمع طرفًـا مـن العلـم، أو قـرأ حاشـيةً أضـاءت لـه الطريـق، فذهـب بهـا= ولربـما يقطـع بعضهـم صفحـة مـن الكتـاب فيدسـها في ثيابـه خُفْيَـةً، ثـم يدرجهـا في كتـابٍ باسـمه كأنهـا مـن كيسـه، وشـيخنا يطالـع ذلـك ويعلمـه ويعـرف أصحابـه، ويترفـع عنهـم، كالعُقَـابِ الـذي أدمـن التحليـق يحلـق فـوق شـواطئ السـماء، لا يلتفـت إلى الحـصى المتناثـرِ مـن نفـوس الفانـين!

وهـذه نفثـةٌ مصـدور ذكرتهـا رعايـةً لحـق شـيخنا، ووفـاءً ببعـض فضلـه علينـا رحمـه الله ورضي عنـه.

أمتي والشجن العتيـق!

كان في أبي فهـر سـيماء العـرب، يعيـش عربيًّـا مسـلمًا، ويصـل نفسـه بآبائـه الأولـين، قـراءةً، ومعرفـةً، وحيـاة، لا يغفـل عـن هـذا الأصـل، ولا يلتفـت عنـه، بـل يكثـر مـن هـذا ويجريـه عـلى لسـانه وقلمـه[1].

وهـذا الشـعور بأرومتـه ونسـبه، وانتمائـه الشريـف لهـذه الأمـة =أورثـه عصبيـة العليـم في الانحيـاز لهـذه الحضـارة العربيـة المسـلمة، وبغـض كل مـا يصـادم هـذا الأصـل لديـه، ولذلـك كان يأبـى إبـاءً شـديدًا السـفر إلى الغـرب، حتـى إذا مـس المـرض عينيـه، فـكاد يذهـب بهـما= سـافر إلى إسـبانيا، لا باعتبارهـا شـيئًا مـن أوروبـا، بـل باعتبارهـا الأندلـس؛ موطـئَ آبائـه وأجـداده مـن المسـلمين.

يرتحـل، وفي نفسـه ذلـك الشـجن العتيـق، ويمـر بأشـباح آبائـه الفانـين في ظـلال ميراثهـم الأندلسـي، ويجلـس بـين يـدي مسـجد قرطبـة باكيًـا أسـيفًا، بـكاءَ كظيـمٍ في كل ذرة منـه وسـمُ الانتـماء لهـذه الأمـة المجيـدة.

وهـذا الشـجن العتيـق يطـل مـن حـروف رسـالته النـادرة إلى أبي الحسـن النـدوي رحمـه الله، وهـو يعلـق عـلى شـاعر الهنـد العظيـم؛ محمـد إقبـال: «**وقـد قـرأت هـذه الكلـمات عـن شـاعرنا العبقـري محمـد إقبـال، فتعلمـت منهـا: أنـه مـن البـلاء عـلى المـرء أن يعيـش غافـلًا عـن حقيقـة حياتـه، وأن ينسـى مصائـب أمتـه، ومـا نـزل بدينـه وأهـلِ دينـه مـن البـلاء،**

(١) تقـدم معنـا شيء من هذا في صـدر الكتــاب.

وكان أعظمَ ما أدهشني رفضُ إقبال أن يدخل مسجد باريس، ومقالَتُه: إن هذا المسجد ثمنٌ رَخِيصٌ لتدمير دمشق! فلولا أن الرجل كان يعيش في حقيقةٍ صريحة، وفي ذكرٍ دائمٍ لا ينقطع لِمَا نزل بنا وطَمّ، لما خطر له هذا الخاطر! وكم من غافلٍ ساهٍ مِنَّا ومن قومنا يعرِضُ له أن يحيا تاريخَ نفسه، وتاريخ دينه، بمثل هذه الكلمة؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره اللهُ من الذُّلِّ والضَّعَة والعبودية، والفتنة بما زَيَّن له أعداءُ الله وأعداءُ رسولِه صلى الله عليه وسلم». [1]

وما كانت سفرة بريطانيا في سنته الأخيرة= إلا إجابة لدعوة صديقه صاحب مؤسسة الفرقان؛ الشيخ أحمد زكي اليماني، وهي السفرة التي أبى فيها شيخنا - وهو المتقن للإنجليزية إتقانًا تامًّا- أن يتحدث الإنجليزية، وجعل بينه وبين محدثيه من الأعاجم ترجمانًا ينقل عنه ما يقوله بلسانه العربي!

وكان هذا الإحساس الشريف بامتداد عروقه في جذور هذه الأمة= لا يغادر أعصابه، مكظومًا، كالمتهيئ دائمًا للغضب أو البكاء إذا عرَض له ما يذكره بتاريخ آبائه وأجداده، وما آل إليه حال الأبناء اليوم!

ويطل هذا الشجن العتيق يوم وقف على أطلال إيوان كسرى بالعراق، فجعل ينشد قصيدة البحتري ويتهدج صوته، وترقرق في عينيه أنداء الألم والحنين، وهو هو الإحساس نفسه يغشاه بين يدي طلاب جامعة الأسكندرية وهو يبعث فيهم معنى الانتماء لهذه اللغة الشريفة واللسان الشريف، كما سيأتي معنا بعد.

لم يكن هذا الرجل يابس القلب، خشن المشاعر، ولم يكن صاحب صنعةٍ ينحت الألفاظ المستعارة، يعرضها على الناس في مقالاته وكتبه، بل كان رجلًا على قدر قلمه، يحيا ما يكتبه بأعصابه ونفسه وخلجاته، رحمه الله ورضي عنه.

- وقد رأيت أن أصل هذا الفصل الذي عرض لطرفٍ من خفقات العقاب، بحديث خاص عن زوجه الصالحة المباركة النبيلة أم فهر حفظها الله وبارك في عمرها؛ لأبين بعض فضلها على أستاذنا وأصحابه، وإشادته بذلك الفضل.

---

(١) من رسالة أرسلها شيخنا سنة ١٩٥١ إلى الشيخ الكبير أبي الحسن الندوي، كنت نشرت طرفا منها في مقال لي قديم، نشر باسم غيري خطأ في الإسلام اليوم، وهو بعنوان: إقبال حرف متوهج. والرسالة مسطورة في كتاب: رسائل الأعلام إلى أبي الحسن الندوي

الأفـق الرابـع

بركـــة البيـــت!

وهـذا حديـث خـاص عـن هـذه النفس المباركـة، التي جعلهـا الله سببًا عظيمًا في إقامة حيـاة محمـود محمـد شـاكر، بفطرتهـا ونقائهـا وحبهـا لزوجهـا، وتوفيرهـا كل الأسـباب التـي تعينـه عـلى أداء علمـه، والاشـتغال بـه، والتفـرغ لتحصيلـه ومدارسـته.

ولكـي تعـرف بعـض فضلهـا، لابـد وأن أحدثـك قليـلًا عـن بيـت شـيخنا أبي فهـر وشـأنه الخـاص!

فبيـت أبي فهـر ليـس بيتًـا كبقيـة البيـوت، بـل هـو بيـت إمـام كبـير يقصـده النـاس مـن شـتى بقـاع العـالم الإسـلامي المتراحـب، ويفـد عليـه الطلبـة والسـائلون والمشـتغلون بـالأدب والعاملـون في حقـل العلـم والتحقيـق، وأسـاتذة الجامعـات، وبعـض الـوزراء، والمسـئولين.

يجلسـون بـلا وقـت، ويطرقـون البيـت بـلا عـدد، ولقـد يصـل عددهـم إلى المائـة، وبعضهـم يصـل بـين يـدي الغـداء، وبعضهـم في منتصفـه، وبعضهـم يـأتي وقـد أوشـكوا يجمعـون الطعـام، وبعضهـم يـأتي وقـد فرغـوا مـن كل شيء.

ثـم تـأتي آنيـة الشـاي، وبعضهـم لا يشرب إلا الأخـضر، وبعضهـم لا يشرب إلا الشـاي الأحمـر، وبعضهم لا يشرب إلا القهـــوة!

ثـم تُهَيَّأُ المائـدة مـرة أخـرى بأنـواع الفاكهـة والحلـوى، فيقـوم الـكل إلى التحليـة، ثـم إذا فرغـوا يجلسـون؛ لتـدور عليهـم آنيـة الشـاي والقهـوة مـرةً أخـرى!

ولقـد يكـون بعضهـم مُتْعَبًـا فيسـعه بيـتُ شـيخنا، ويهيـأ لـه مـكان للمبيـت، ولقـد يكـون بعضهـم مريضًـا لا يـأكل إلا في وقـت معـين، فيوضـع لـه طعامـه في وقتـه الـذي يناسـبه، وبعضهـم يقـدم مـن سـفره ليـلا، فيجـد الكـرم والضيافـة في انتظـاره!

وبعضهـم يـأتي ومعـه أبنـاؤه، وعـادة الطفـل الصخـب واللعـب، فيَسَـعُهم البيـت ولا يضيـق بهـم!

فَمَنْ تلـك التـي تقـوم بهـذا كُلِّـه باسـمةَ الوجـه، حبيبًـا إليهـا فعلـه، سـعيدةً بخدمتهـا لزوجهـا وأضيافـه؟!

إنها تلك السيدة المباركة نعيمة الكفراوي؛ أم فهر حفظها الله!

وإنَّ من حبها لذلك= أنها تعلم عادة الأطعمة التي يحبها فلان من أصحاب شيخنا، حتى إذا علمت بزيارته صنعتها له دون طلب!

وهي آية من آيات الله في صنع الطعام الشهي اللذيذ؛ حتى لقد قال عنها العلامة محمود محمد الطناحي على عادته في الدعابة: إذا كان شيخنا قد جمعنا من عقولنا، فإن أم فهر قد جمعتنا من بطوننا!

سيدة من طراز فريد نادر، مُهَيَّأَةٌ بذكاء فطري عجيب، وحبٌّ خاص لشيخنا رضي الله عنه..

ثم إنَّ لشيخنا طبيعته الخاصة، وشخصيته التي مرت بنا، فما علمتُ -مع سؤالي- ولا سمعت قطُّ أنها غاضبته، أو أحدثت في نفسه كدرًا أبدًا في زواج امتد أكثر من أربعين سنة، لا تذكر فيها خلافًا عابرًا بينها وبين الشيخ إلا مرةً أو مرتين وحسب!

ولا تنس أن هنالك في البيت مكتبة هائلةً تحتاج إلى الرعاية والترتيب والحفظ والتنظيف الذي يذهب بجهد شابٍّ فتي، ولكنها تقوم بذلك كله في دأبٍ لا يتعب!

ويحسن بي هنا أن أنقل كلامه عنها بحرفه، غير ناسٍ أن أقول لك: إن شيخنا كان يقول هذا الكلام عن زوجه بين يدي الناس في بيته وهو يغالب عبرته!

يقول شيخنا عندما سُئِلَ بغتةً من الفنانة كريمة مختار عن قصة زواجه بأم فهر:

«على كل حال هي أقدار الله تعالى»، وأوشك يسكت! ثم أكمل:

«فأنا كنت صغيرا مهاجرًا، خرجتُ من مصر بعد أن تركت الجامعة في سبيل قضيةٍ لا يعلم خبأها إلا الله تعالى، وأقمت بين جدة ومكة سنتين.. خرجت من مصر مهاجرًا على أن لا أعود إليها، ولم تكن جزيرة العرب في ذلك الوقت مغريةً، لا بالمال ولا بشيء، وإنما كانت هجرةً من القلب.

ومـن الغرائـب أنـه كان لي صديـق، وهـو الأسـتاذ حسـين نصيـف بـن محمـد أفنـدي نصيـف؛ عظيـم جـدة، وكانـت بيني وبينهـم مـودة، فحملـوني عـلى أن أتـزوج في سـنة «ألـف وتسـعمائة وتسـع وعشريـن».. وتبسـم ناظـرًا إلى الأرض، ثـم أكمـل:

«وخطبـت امـرأةً، ولكـن حدثـت حادثـة في السـعودية جعلتنـي أعـزم فـورًا عـلى أن أعـود إلى مصـر، بعـد أن هاجـرت فـورًا إلى الحجـاز عـلى خـلاف إرادة والدي وأسـاتذتي جميعًـا في الجامعـة وغيرهـا..

فعدت إلى مصر في سنة تسع وعشرين وخطبت امرأةً في نفس السنة بمصر!

ومضت الأيام بعد إقبال شديد، سكت سكوتًا كاملًا عن هذا!

والسر الـذي أريـد أن أصـل إليـه= أنَّ في تلـك السـنة -سـنة تسـع وعشريـن- ولـدت أم فهر، في السـنة التـي حـدث فيهـا هـذا الاختـلال؛ لأتـرك مـن في الحجـاز، وأتـرك مـن في مصـر!

وهي بالمناسبة الحفيدة الصغرى للشيخ حسن الكفراوي شارح الآجروميَّة.

ومضـت الأيـام، وجـاءت والدتها مهاجـرةً من البلـد إلى مصر هي وأخواتها، ويشـاء الله أن نتعـارف، وبقيـت معنـا وهـي في الرابعـة عشرة من عمرها سـنة اثنتين وأربعـين إلى اليوم.

ولم أتزوجهـا إلا في سـنة أربـع وسـتين..[1] فهـي رعتنـي دون أن تكـون زوجـة.. أكرمتني، وحفظتني، وأكـبر مـن ذلـك أنهـا تحملتنـي.. لكـن مقادير الله هكـذا؛ أنهـا بقيت معي مـن سـنة ثـلاث وأربعين، لكـن لم أفكـر قـط، وعبـد الحميـد البسيوني يعـرف.. لكـن جـاء الـزواج فجـأةً في سـنة أربـع وسـتين.. فهـي صاحبـة البيـت منـذ ثـلاث وأربعـين إلى خمـس وسـتين.. لكـن لم أكـن أفكـر لأنهـا كانـت صغـيرة.. لكـن المسـألة جـاءت عـلى خـلاف الأشـياء فجـأةً، والفضـل كل الفضـل بطبيعـة الحـال للأسـتاذ أحمـد المانـع؛ فهـو الـذي حرضنـي، وكنـت قـد بلغـت مـن السـن السادسـة والخمسـين.

فأنـا في رعايتهـا منـذ سـنة ثـلاث وأربعين إلى هـذا اليـوم، ولكنهـا لم تأخـذني مـن معـدتي كـما قـال محمـود الطناحي، ولكنهـا جمعـت حـولي الأمعـاء كلهـا[2]، فهـي صاحبـة البركـة في هـذا البيـت»[3].

(١) يقول ذلك باكيًـا.

(٢) يقول هذا ضاحكًـا.

(٣) كل هـذا مـن كلام شـيخنا بلسـانه رحمه الله في بيتـه سـنة (١٤٠٣) يـوم عاشـوراء، عـام ثلاثـة وثمانين. آثـرت نقلـه كـما هـو ليترجـم عـن نفـس قائلـه سـاعتها.

فهذا طرف من شأنها مع شيخنا على لسانه رحمه الله تعالى، وكيف كان الله تعالى يحجبها عن غيره؛ لتكون زوجًا له!

وقد أخبرتني حفظها الله أنه تقدم إليها الكثير، ومنهم ذوو وظائف عليا، غير أنها كانت تجد نفسها مصروفةً عن القبول، ولم تكن تعلم أن اسمها مخبوء في دفتر الغيب إلى جوار محمود محمد شاكر زوجةً له!

في الغيبة والحضور:

وفضل أم فهر على شيخنا فضل ممتدٌّ في الغيبة والحضور؛ حيث قامت على رعاية بيته في غيبة السجن الأولى عام ثمانية وخمسين، ثم في غيبته الثانية مع طفلها وحيدةً ثمانية وعشرين شهرًا، يوم كان الاقتراب من بيت أبي فهر= دليلَ إدانةٍ وتهمة، وقد بقي على ميثاق الوفاء والرعاية أصحابه من الكويت، وهو جميلٌ حمله الأستاذ شأن العربي الذي تهزه شمائل الوفاء، «ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدا»!

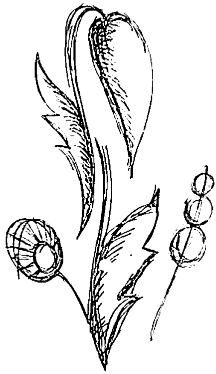


وقد احتملت ظروف زوجها بعد خروجه من السجن، وقد خرج شعث القلب جريح الفؤاد، مما لقيه من عنت وتضييق وتنكيل، حتى لقد ظل أستاذنا رحمه الله تعالى مصابًا بقيء يومي، ليس له سبب عضوي، بعد خروجه من السجن، وهذا يدلك على ما كان في نفس ذلك الحر الموّار بالمشاعر من كلوم وجراحات، لاسيما وقد خرج بعد وقوع النكسة[1].

وعندما سافر للعلاج شهورًا إلى الأندلس وفي صحبته أستاذنا أبو همام= كان يتصل يوميًا بأم فهر، ويخاطبها بحنان بالغ، متشوقًا إلى زوجه التي يعرف فضلها ويأنس في ظلالها.

(١) سيأتي حديث خاص عن سبب سجن شيخنا تصحيحًا للخطأ الذي شاع في هذا الأمر.

وتمر السنين ويمرض شيخنا مرضه الأخير، وتجلس تلك الزوجة الصالحة شهورًا تطول أيامها ولياليها في ملازمة زوجها لا تلتفت عنه، تقوم بأمره، وترعى شأنه، وتمسح عنه آلامه وتعبه، وتستقبل تلاميذه الذين يأتون لزيارة شيخهم، لا تكاد تنام إلا لمامًا، شأنها معه في كل وعكاته وأوصابه السابقة، حتى وقع أمر الله تعالى، وغادر شيخنا رضي الله عنه ورحمه هذه الفانية في الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس (٣ من ربيع الآخر ١٤١٨ هـ ـ ٧ من أغسطس ١٩٩٧)!



ثم إن هذه الرعاية منها لشيخنا كانت تمتد فتتصل بتلاميذه، تتفقد أحوالهم، مُحْسِنةً إليهم إحسان الأم إلى أبنائها، حتى من كان منهم صغيرًا يطرق البيت جديدًا، تسأله وتقول له: هل عندك كتاب كذا من كتب الأستاذ؟ فإذا لم يكن لديه الكتاب اتصلتْ بمكتبة الخانجي، وطلبت منهم توفير بعض النسخ، إن لم يكن في البيت نسخٌ من الكتاب.

وإذا ما غاب أحدهم وجاء مَن له به صلةٌ سألت عنه، وتفقدت حاله، وسعت في إصلاح حاله إذا كان من ذوي الحاجة.

زوج صاحِبِها!

ثم إن لها موقفًا جليلًا، كنت شاهدًا عليه، يوم جاء أحد كبار أثرياء الخليج بعد وفاة شيخنا رحمه الله، ممن لهم عناية بالكتب= يطلب شراء مكتبة شيخنا رحمه الله، ومعه شيك على بياض؛ ليكتبوا فيه الرقم الذي يريدون.

ومكتبة شيخنا من المكتبات الباذخة النفيسة، لا أعني بذلك اتساعها وحجمها الكبير الممتد بامتداد البيت كله، حتى باب الخلاء= فهناك مكتبات أكبر منها وأضخم، ولكني أعني بالنفاسة هنا أمرًا آخر= أن هذه المكتبة عَلِقَتْ بها أنفاس محمود شاكر، وكانت مُعْتَكَفَه في هذه الحياة الدنيا، يهبها وقته وعمره وضوء عينيه وحرائق فكره ولهفته في البحث والتمحيص، يفاتش أوراقها ويمدها بزادٍ لا عِدلَ له من التعليقات والحواشي والتصحيحات في كل فَنٍّ كُتِب بهذا اللسانِ العربيِّ، في الشعر واللغة والأدب والبلاغة والتفسير والحديث والفقه والتاريخ والمنطق والفلك والطب والملل والنحل والعقائد!

تحمل مجلداتها العتيقة عمره، فتلمس الكتاب فيتخَلَّجُ بالحياة بين يديك، فها هي أنفاس أبي فهر تطل عليك في مراياه الورقية، وهذا وقْعُ قلمه على أوراق الكتاب، وهذه تعليقاته يوم كان يحتشد احتشادًا ليجلو عن قلبه طِلَّسمات الشك والحيرة في رحلته الكبيرة الطويلة المثقلةِ بالجراح والنصب وأشواك الأسئلة= للوصولِ إلى سِرِّ البيان الذي امتن الله به تعالى على الإنسان، والنفاذِ إلى غيب الحقيقة التي تناثرت بين يديها أهوال مضنيةٌ حالكة السواد، أذِن الله بزوالها، وأطلَّ فلَقُ اليقين على قلبه المتوقِّد وعقله المشتعل!.. فهي تاريخ وروح، وعمرٌ حيٌّ قد ارتحل صاحبه، وميراثٌ باذخٌ يقوم عليه هذا البيت!

وكان هذا الذي وصفت لك =حاضرًا بمعانيه في قلب هذه الزوجة المباركة، فأبتْ أن تبيع المكتبة، كأنما أطلَّ قلبها على وجه شيخنا= فلم تبصر بياض الشيك، ولم تحفل بشيء من هذه الدنيا الفانية!

فلما سألتها يومًا: لماذا لم تقبلي بيع المكتبة؟

فأجابتني إجابةً فريدة، وقالت: لقد قلت لهم: إن ذهاب المكتبة عندي أعظم على قلبي من ذهاب صاحبها، فما دمت حيةً فلن أفعل ذلك، فإذا مت فأنتم وما تريدون!

هذا بعضٌ من شمائل هذه السيدة الفاضلة المباركة، التي يعرف كلُّ من ورد بيت شيخنا فضلها وكرمها ونفاسة معدنها وخلقها العالي النبيل، حفظها الله ورضي عنها.

فصلٌ معترض!

ما وراء الجُب

ولا بد من تصحيح خطأ شاع عن سبب سجن شيخنا رحمه الله تعالى، وقد تكاثر النَقَلَة لهذا السبب عندما يذكرون محنة السجن، ويزعمون -نقلًا عن الشيخ أحمد حسن الباقوري غفر الله له- أن سبب تلك المحنة= هو حديثه إلى صديقه يحيى حقي في الهاتف= وغضبُه من العنت الذي يلقاه صاحبه في السلك الدبلوماسي= وقولُه بيت المتنبي «والحرُّ ممتحنٌ بأولاد الزنا»= وأنَّ الباقوري كان يصلي في البيت وسمع هذا الكلام من أبي فهر، ولامه عليه بعد فراغه من الصلاة= وأن الباقوري عُزِلَ من منصبه وزيرًا للأوقاف، وشهِّر به، وحددت إقامتُه بسبب هذه الكلمة التي قيلت في حضرته على لسان محمود محمد شاكر!

وهذا كله لغوٌ تولى كِبْرَه الشيخ الباقوري غفر الله له، وعنه انتشر وتناقله الناس.

أما صاحب الشأن، وهو شيخنا، فقد دار في مجلسه يومًا حديث عن هذا الأمر، وكان قد نُشِرَ في مجلة «آخر ساعة» كلامٌ يتعلق بالباقوري وما وقع عليه من النكال بسبب كلمة محمود شاكر، التي سئل عنها فقيل: نعم سمعتها، ولكني كنت أُصَلِّي.

فسألَ بعض الحضور شيخَنا الردَّ على هذا الأمر بالكتابة في الصحف، فقال شيخنا: لا يحسن بي أن أفعلَ فعلَ الصبيان؛ أذهب فأحكي حكايات أرد بها على هذه السخافات! أنا لا أرد على مثل هذه الأشياء السخيفة!

ثم استقبل شيخنا الخبرَ يقصه على وجهه، قائلًا: «وقع في هذا الأمر خلط وكذب، ولقد سمعت أن الباقوري حكى هذه القصة منذ الأسبوع الأول لي في السجن، ولم أكن أعلم حينها لماذا سُجِنْت (يعني سنة ١٩٥٨).

ولكن السر وراء ما حدث مع الباقوري أمر آخر تمامًا، وهو: أن زوجة الباقوري كانت كثيرة الكلام مع أختها عن عبدالناصر في الهاتف، وكانت تستطيل بلسانها في حقه، وتقول: لولا أحمد لما كان عبد الناصر؛ فهو الذي علمه كيف يتكلم، وكيف يخطب في الناس، وهو وهو..

يقول أستاذنا: «وكانت كل هذه المكالمات مسجلةً، وسمعها عبدالناصر فاستشاط غضبًا؛ لأنها ذكرت سرًا -يعني تعليمه أساليب الخطابة- لم يكن يعرفه في الناس إلا ثلاثة: أنا والباقوري وعبد الناصر؛ فقد كنت طلبتُ من الباقوري أن يصحح لعبد الناصر أسلوبه وعباراته، وأن يقوم على تعليمه أساليب الكلام والخطابة.

ولقد سمعت بنفسي تلك المكالمات أثناء تحقيق صلاح نصر معي.

وهكذا كانت زوجته، حتى إني في يوم كنت معه في الأسكندرية أثناء توليه الوزارة، وسيارات المخابرات تقف في موكبه، فجاءت زوجه وجعلت تسب في المخابرات وصلاح نصر سبًّا مُقْذِعًا أسمعه بأذني.. ولا شك أن هذا كله يُنقَل!

مما أثقل حِمْل الباقوري عندهم، فشهروا به وعزلوه من الوزارة ولفقوا له صورًا مُرَكَّبَةً تُظهره في أوضاع غير صحيحة، مكذوبةٍ مفبركة، يهدمونه بذلك نفسيًّا، ثم حددوا إقامتَه، وقالوا فيه وعنه ما قالوا!.. فتلك قضية أخرى لا علاقة لها بقصة سجني.

فهو=يعني الباقوري= لفَّقَ من مجموعة أحداث شيئًا لا علاقة له بها حدث معه، وادعى أني قلت عن عبدالناصر بيت المتنبي!

ومكالمتي ليحيى التي زعم سماعها في بيتي= إنما سمعها من التسجيلات التي عرضها عليه الرئيس، وليس كما قال!

وأما خبر حديثي إلى يحيى: فقد كان يشكو إليَّ ما يلقاه من عنت في الوزارة، من فتحي رضوان وبعض الضباط، وأن طلباته لا تُجاب، وجهده لا يُقدَّر، فقلت له: يا يحيى آخر خدمة الغُزّ علقة!

وهذه هي الكلمة التي سألني عنها صلاح نصر أثناء التحقيقات وقال لي: إحنا الغز؟! فقلت له: هذا مثل مصري لا أعني به أحدًا، إلا إذا كنتم ترون أنفسكم الغزّ فهذا شيء آخر!.. فضحك صلاح نصر.

وقد كان بيني وبين صلاح نصر كلام في نهايات شهر شعبان، سألني سؤالًا فأجبته جوابًا ضايقه فأمرهم بصرفي إلى الزنزانة، ولم أره بعد ذلك إلا في آخر يوم من رمضان، فأجلسني واعتذر لي بأنه لم يكن يعرفني، وليلتها أسمعني تلك التسجيلات وأعطانيها مفرغةً كلها، فعرفت ليلتها سر القبض عليّ، وما ادعاه الشيخ الباقوري!

وقد كان لي جار من الضباط يعرفني وأعرفه وبيننا صلةٌ وثيقةٌ، سمع بعد القبض عليَّ أنهم أشاعوا عني كذبًا كثيرًا يتعلق بسمعتي وخُلُقي ومن يغشى بيتي، وكان جارنا ذلك على صلة بصلاح نصر، فذهب إليه عند سماعه تلك الإشاعات وقال له: هذا كلام يستحيل في حق مثل الأستاذ محمود؛ فهو جاري وأنا أصعد إليه وزوجتي وأبنائي وأجلس عنده كل يوم، وهو من العلماء الكبار، فما هذه الإشاعات الكاذبة التي تلفق حوله؟!

ولقد سألني صلاح نصر أيضًا عن بيت المتنبي، وماذا أقصد به؟

فقلت له: هو مَثَلٌ يعني تسلط الأشرار على الأخيار، وليس مقصودًا به أحدٌ من الحكام، ولو كنت أقصد أحدًا منهم، فما تقولونه أنتم في حق بعض الحكام= أسوأ مما قلته أنا! ولكنني قصدت تحكم الخير في الشر، ولم أقصد أحدًا.

وهذا البيت الذي سألني عنه صلاح نصر= لم أقله في الهاتف كما يشيعون أيضًا، بل كنت مع أصحابي نقرأ الأصمعيات في بيتي -وليس فيهم الباقوري- وكنت أتكلم عن العرب وتاريخهم، وأنهم عنصر كريم، ابتُلِيَ بمن تسلطوا عليه في بعض فترات تاريخه، ثم استشهدت ببيت المتنبي: والحُرُّ ممتحنٌ!

وكان في زيارتي ذلك اليومَ رجلٌ سودانيٌّ، كان أبوه صديقًا للعائلة منذ القديم، ولم يكُ دخل بيتي قبل هذا اليوم طِيلةَ عشرين سنةً، وإنما دخله ذلك اليوم فحسب، وهو اليوم الذي قلت فيه ذلك البيت، وتحدثت فيه ذلك الحديث.. فعرفت أنه هو الذي نقل هذا الكلام، وأنه كان جاسوسًا يعمل مع أولئك القوم، فكتب كلامي وما دار في المجلس ورفع به تقريرًا، قرأه عبد الناصر وحسبني أعنيه ببيت المتنبي!

وهذا كل ما في الأمر، فلم يكن الباقوري حاضرًا وأنا أكلم يحيى حقي، ولم يكن حاضرًا وأنا أقرأ الأصمعيَّات».[1]

فهذا خبر شيخنا في ذلك الشأن، قصصته عليك من لفظه، تبيانًا لحقيقة الأمر، ودفعًا لذلك الخلط الملفق الذي اتكأ على دعوى ليس لها حقيقة.

(١) من حديث شيخنا في بيته في العاشر من محرم عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦.

الطفل الشاعر!

كل من مارس نفس محمود محمد شاكر، ونظر إلى أطوائه نظرةً تجانف العجلة= أبصر تلك الخصلة التي سمعتها من بعض أهله وأصحابه، وأبصرت آثارها في حياته وبعض مواقفه: أنه يحمل في جنبيه نفس طفل، بمشاعره وأحاسيسه، ونضارة قلبه، وسرعة انفعاله، وضحكه وهزله!

ومن ذلك ما أخبرني به العلامة عبد الحميد بسيوني رحمه الله تعالى= أنه كان يرى هذين العملاقين محمود محمد شاكر، وعباس محمود العقاد، يلتقيان في الطريق فجأة، فتجد صعيديين تعالت أصواتهما تَرْحَابًا وضحكًا، حتى إن العقاد كان يصطفيه بكثيرٍ من النوادر والنكات، ولقد رأيته -يعني العقاد- وهو يشرح لأبي فهر طريقة معينة من فنون أهل الصعيد في التحطيب وغير ذلك، وما كان العقاد ليفعل ذلك مع أحدٍ قط!

وليس ببعيد عنك قصته مع تلميذه الطناحي رحمه الله تعالى، ومغايرته لصوته ومشاكسته له!

ولقد يتكلم أستاذنا، وهو شديد الحياء من أعين الناس إذا صمتوا وتوجهوا بأبصارهم إليه= فيخفض صوته، ويطرق في الأرض، فيقول له تلميذه محمود الطناحي: علي صوتك يا شيخنا..انت خايف مني ولا إيه!

فيضحك الأستاذ ملء فمه، ويعتذر اعتذارًا طفوليا بأنه لا يحسن الكلام أمام الناس، وأنه لا صنعة له إلا القلم!

وأما علاقته بصديق عمره يحيى حقي، وما كان يتخللها من مشاكسات ومداعبات= فهذه ربما تأخذ فصلا قائما برأسه لمن أراد تتبعها وإحصاء شواهدها، حتى وهما شيخان كبيران في السن، يتشاكسان، ويتنازعان منازعةً طفوليةً ضاحكةً تنشر في النفوس ألق البهجة!

ومن ذلك أن أستاذنا كان في مجلسه الحافل مع أصحابه، بحضور صديق العمر يحيي حقي، وقد كسر أستاذنا يومها سن الثمانين، فقال بعض الحاضرين: «إن الثمانين وبُلِّغتَها»، فارتجل أستاذنا الشاعر الكبير أبو همام الشطر الثاني مجيزًا:

«لم تُحوجِ السمعَ إلى تَرجُمان»!

فقال الأستاذ يحيى حقي: هي بُلِّغتَها ولا بُلِّغتُها يا محمود؟!

فقال له الأستاذ: دي عاشر مرة تسألني فيها عن بُلِّغْتَها ولا بُلِّغْتُها!

فضحك كل من في المجلس!

فقال الأستاذ يحيى حقي: أليس هذا دعاء للمخاطَب؟

فقال الدكتور طناحي: نعم، هي جملة اعتراضية للدعاء.

فرد يحيى حقي الصاع على صاحبه وقال: أنا كنت بقول له كده ويقول لي غلط! فضحك أبو فهر طويلًا، وقال الدكتور الطناحي معلقًا على ما قاله الأستاذ يحيى حقي: أعاد الكُرَة!.. وضحك كل من في المجلس!

وكان إذا أبصر طفلًا خلع عليه البهجة وجعل يلاعبه، ويشاكسه، ويتكلم معه، ويضحك إليه، كأنما لقي صديقًا عزيزًا عليه!

وانظر إلى بيانه الباذخ في «الأباطيل» عن مشاعره التي ماجت بها نفسه عندما أطلَّ ابنه فهر إلى الحياة مولودًا صغيرا، وكيف بسط جناحية محلقًا في سماء الفرح والنشوة، يتهادى حرفه ريانًا بالسعادة، ناضرًا بهيجًا، كأنما عاد طفلًا من جديد!

وكان يغلبه الحياء كأنه طفل صغيرٌ لا يحسن يتكلم بين يدي الناس وهم يقتحمونه بأعينهم ويصغون إليه ويرقبون حركة كفيه وهو يقبضها ويبسطها شأنَ المضطرب الوجل!

خفقات الحزن

والذي يبصر نفس محمود شاكر عبر حركة حياته= يرى تلك النفس المرهفة الرقيقة، لاسيما في خفقات الحزن ولذع الألم على ضرٍّ مس حبيبًا يسكن قلبه ويأوي إلى روحه!

حتى إذا حضره البثُّ، لقِفَ الحزن روحه، وطار بها في مجاهل الآباد والغربة، تنوح في صدره أصداء الذكرى بوطئها الثقيل، فيتنفس بعينيه طويلا، وينصرف انصرافًا تامًا عن الكلام والدنيا وناسها!

فقد انهدمت روحه بوفاة حبيبه وشيخه وأستاذه مصطفى صادق الرافعي، وأرسل نشيجه المفعم بعبراته في دمعته المكتوبة «رحمة الله عليك»! .. فقال:

«رحمةُ الله عليك! رحمةُ الله عليك!
رحمة الله لقلبٍ حزينٍ، وكبدٍ مصدُوعة!
لم أفقدك أيها الحبيب ولكنّي فقَدتُ قَلْبي.
كنتَ لي أملاً أستمسِكُ به كلما تقطَّعَتْ آمالي في الحياة.
كنتَ راحة قلبي كلما اضطرب القلبُ في العناء.
كنتَ اليَنْبُوع الرَّويَّ كلما ظَمِئ القلبُ وأحرقه الصَّدَى.
كنتَ فجراً يتبلَّج نورُهُ في قَلْبي وتتنفس نسماته،
فوَجدتُ قلبي... إذ وجدت عَلاقتي بكَ.
لمْ أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكني فقدتُ قلبي
جزَعِي عليك يمسك لساني أن يقول، ويرسل دمعي ليتكلم.
والأحزان تجدُ الدمع الذي تذوب فيه لتهونَ وتضَّاءَل،
ولكنَّ أحزاني عليك تجد الدمع الذي تروَى مِنْه لتنمو وتَنْتَشر.
ليس في قلبي مكان لم يرفَّ عليه حبي لك وهوَايَ فيك،
فليس في القلب مكان لم يحرقه حزني فيك وجَزَعي عليك.
هذه دموعي تُتْرجم عن أحزان قلبي،
ولكنها دموع لا تُحْسِنُ تتكَلّم
عشتُ بنفسٍ مُجْدِبةٍ قد انصرفَ عنها الخصب،
ثم رحمَ الله نفسي بزهرتين تَرِفَّان نضرة ورواء.
كنتُ أجدُ في أنفسهما ثرْوة الروضة المُرعة فلا أحسُ فقر الجدْب!
أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقةُ الحياة،
وأما الأخرى فانتزعتها حقيقةُ الموت،
وبقيت نفسي مجدبة تستشِعرُ ذلَّ الفقر
تحت الثرى... عليك رحمة الله التي وسعتْ كلَّ شيء،
وفوق الثرى... عليَّ أحزان قلبي التي ضاقت بكل شيء؛
تحت الثرى تَتَجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجَنة؛

وفوق الثرى تتقادمُ عليَّ أحزان الأرض!
تحت الثرى تتراءى لرُوحك كلُّ حقائق الخلود
وفوق الثرى تتحقَّقُ في قلبي كلُّ معاني الموت.
لم أفقِدْك أيها الحبيب ولكنّي فقدت قَلْبي
حَضَر أجلك، فحضرتني همومي وآلامي.
فبين ضلوعي مأتم قد اجتمعت فيه أحزاني للبكاء؛
وفي روحي جنازة قد تهيَّأتِ لتَسير،
وعواطفي تشيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة،
والجنازة كلها في دمي - في طريقها إلى القبر
وفي القلب... في القلب تُحفَر القبور العزيزة التي لا تُنْسَى
في القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة؛
وتجد الروح أحبابها وقد نأى جُثْمانها.
في قلبي تجد الملائكة مكاناً طهرَّته الأحزان من رجس اللذات.
وتجِدُ أجنحتها الروح الذي تهفهف عليه وتتحفَّى به.
هنا... في القلب، تتنزَّل رحمة الله على أحبابي وأحزاني،
ففي القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تَفْنى،
وفي القلب تُحْفَرُ القبور العزيزة التي لا تُنْسى
لم تُبْقِ لي بَعدَك أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائك.
فقدتُكَ وَحْدِي إذ فقدك الناس جميعاً
سَمَا بكَ فرحك بالله، وقعدت بي أحزاني عليكَ.
لقد وجدتَ الأنْسَ في جوارِ رَبِّك، فوجدتُ الوحشة
في جوار الناس..!
لم أفقدك أيها الحبيب ولكني فقدت قلبي
لم تُبق لي بَعدَك إلا الشوق إلى لقائك
رحمة الله عليك، رحمة الله عليك»!

تلك هي نفس محمود محمد شاكر..

وهي نفسه التي طارتْ شَعاعًا بوفاة حبيبه وأخيه وشيخه العلامة أبي الأشبال؛ أحمد محمد شاكر، ورقم ذلك في صدر المجلد الرابع عشر من تفسير الطبري، قائلًا:

«وبعـدُ..

فقد أبليتُ شبابي وصدرًا من كهولتي، وأخي يومئذٍ ركنٌ من العلم باذخٌ، آوي إليه إذا حزبني أمرٌ، أو ضاقَ عليَّ مسلك.

فأصبحتُ فإذا الركنُ قد ساخ، وإذا أنا قد أُفردتُ إفرادَ الساري في فلاةٍ بغير دليل.

كان نورًا يضيءُ الطريق، فلما طَفِئَ، أصبحتُ في ظلماءَ ينهاني سوادُها أن أسير.

وكنت أعمل في هذا التفسير وحدي بعيدًا عنه، هكذا كان.

لم يكن يشاركني في قراءةِ نصِّه، ولا في كشفِ مُبهَمِه، ولا في تقويمِ ما اعوجَّ من نهجِه، ولا في تخريج ما توليته من رواية حديثه.

وقضيت دهرًا وأنا أظنُّ أن الأمرَ كلَّه ثمرةُ جُهدِي وعملي!! فلمَّا قبضَ الله إليه عبدَه الصالحَ رحمة الله عليه، وبقيت أيضًا أعملُ وحدي بعيدًا عنه أيَّ بُعدٍ!!

فعندئذٍ وجدت مسَّ الحقِّ في فقدِه، وإذا هو كان يكون معي وإن خِلتُه بعيدًا، وكان يكون مُعِيني وإن لم أستَعِنْه، وكان يكون نورَ طريقي، وإن خِلتُ الطريقَ مضيئًا من ذات نفسه!

فأيُّ هَدْيٍ طُمِسَ عني بفقدك! وأيُّ دليلٍ نأى عني برحيلك! وأيُّ نورٍ غارَ عني بغيابِك! وأيُّ حزنٍ بقِيَ لي بفَنائك!

فيابنَ أبي وأمي:

لو كان ينجي من الردى حذرٌ نجَّاك مما أصابَك الحذرُ!

يرحمك الله من أخي ثقةٍ لم يكُ في صفْوِ وُدِّه كَدَرُ!

فهكذا يذهب الزمانُ، ويفنى العلم فيه، ويَدْرُسُ الأثرُ!». اهـ

هي هي تلك النفس، بوجهها الذي لم يتغير، وبوهجها الذي لم ينطفئ، وبمشاعرها الرقيقة الصادقة.

ولا ينبع هذا الكلام من نفسٍ خشنةٍ، أو روح يابسةٍ من الحب والرحمة، أو قلبٍ مُعْتِمٍ لا همَّ له إلا ثلبُ الناس وقدْحُهم.. لم يكن كذلك محمود محمد شاكر أبدًا.

ويوم فجأه نبأ وفاة حبيبه وأخيه وصديقه الشاعر العظيم محمود حسن إسماعيل رحمه الله، وكان في الأندلس للعلاج= نَشِجَ نشيجًا حارًا وجعل البكاء يستبد به حتى علا صوته، وأخذ منه أستاذنا أبو همام الهاتف أكثر من مرة ومعه الدكتور أحمد هيكل، يُخَفِّفَانِ عنه لوعتَه ويحاولان تهدئته!

وما كان يُذكر أحدٌ من الراحلين من أصحابه بين يديه إلا وعبر ذلك الذِّكر من عينيه، ولهذا كان لا يستكثر من هذا الحديث، ولا يطيق الكلام فيه، فإن تكلم، تكلم دمعه معه.

وأنفــاس الوفـــاء

ولم يكن هذا شأنه مع فلان وفلان ممن عرفهم الناس وحسب، بل هذا خلقه الذي لا يفارقه: وفاءٌ طُبِع عليه، وحُزْنٌ باكٍ على مَن رحل عنه من إخوانه، ولو كان خافِتَ الذِّكر مَغْمُورًا لا يعرفه أحد.

ففي نهايةِ مقدمة شيخنا لمسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من كتاب الإمام أبي جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله «تهذيب الآثار»، يقول:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، ما كدتُ أفرغُ من كتابة هذه الأسطر السالفة، حتى جاءني نعي الأستاذ رجب إبراهيم الشحات، المعيد بجامعة الأزهر، وهو الذي أبى أن يتركني وحدي في نشر كتاب «تهذيب الآثار»، فنسخ لي «مسند عبدالله بن عباس» و«مسند عمر بن الخطاب»، وقرأهما معي على الأصل.

كان رحمه الله شابًا نبيلَ النفس، عفيفَ اللسان، عزيزَ الجانبِ، خفيضَ الصوت، لينَ العريكةِ، عاليَ الهمة، رضيَّ الخُلُق، مُحِبًّا للعلم وأهله، قليلَ التلفُّت لما لا يعنيه، خبَرْتُه سنوات، فلم أقف منه على زلة، فكان عندي كبعضِ أهلِ بيتي، أحْبَبْتُه لورعه، وخشيته لرَبِّه، وخشوعِه في صلاته، ثم لما أجده فيه من الصَّبْرِ على طلب العلم، وجِدِّه في متابعة التحري للصواب، ومُدَافَعَتِه عن لغته ودينه، لا يبتغي، فيما أعلم، إلا وجهَ الله، رحمه الله رحمةً واسعةً، وجزاه أحسن الجزاءِ بإخلاص نيته، ولقد فقدتُ بفقده أخًا وصديقًا وصاحبًا، في زمانٍ قلَّ فيه الأخ والصديقُ والصاحب»!

هـذا الغـمام النبيـل مـن الحـزن والبـكاء، والوفـاء لشـاب لا يعرفـه أحـد، ويتخـذه محمـود محمـد شـاكر أخًـا وصديقًـا وصاحبًـا، ويكتب عنه وقد فرغ من إعداد الكتاب للطبع، فيأبى إلا أن يذكر صديقه وأخاه وصاحبه ويلحق ذلك بالمقدمة، وليس هو بالمشهور ولا الذائع الصيت= يكشف لك شيئًا من صفات هذه النفس التي كانت بين جنبي أبي فهر رحمه الله.

شمائل عربية

رجل عربيٌّ مسلمٌ عريق النسب كريم الأصل، يحيى بأخلاق أسلافه العتيقة، ويعي معنى أن تكون عربيا، وأن تكون مسلمًا، وأن تكون إنسانًا.

وقد كان إنسانًا يأسره الإحسان، ويحفظ الجميل لأهله، ويُكبِرُ في الناس هذه الشمائل، كما قال أبو الطيب لصاحبه سيف الدولة:

وقيدتُ نفسي في ذُراك محبةً * ومن وجدَ الإحسان قيدًا تقيَّدا

فهو الذي لا يفتأ يذكر فضل أساتذته عليه، - وهو الذي يُكثر من الثناء على أصحابه، ويجعل فضله عليهم أقلَّ من فضلهم عليه - وهو الذي يشكر من يدله على خطإٍ أو يُسْدِي إليه في العلم معروفًا، وهذا أمر لا أعلم أحدًا من المعاصرين أكثرَ منه ذكرًا له، وهو متناثر في مقالاته وكتبه وتحقيقاته:

فإنك لواجدٌ فيها الثناء والشكر والاعتراف بالفضل لمحب الدين الخطيب، وأخيه الشيخ أحمد شاكر، ومصطفى صادق الرافعي، وأحمد زكي باشا، وأحمد تيمور باشا، ويعقوب صروف، وأحمد حسن الزيات، وعباس محمود العقاد، وعبد القادر حمزة، ومحمود حسن إسماعيل، ويحيى حقي، وأحمد راتب النفاخ، وشاكر الفحام وحمد الجاسر، وعبد الستار فراج، ومحمود علي مكي، ومحمود الطناحي، وعبد الله بن عبد المحسن التركي.. وغير أولئك الكثير.

وانظر إلى ما كان منه يوم اشتكى عينَه وشحب البصر المعلَّق بأوراق الكتب ليل نهار، ويجد شيخنا في بصره الذي استنزفه في المطالعة والكتابةِ ضَعْفًا يتنامى مع الأيام، ويوشك أن يطمس ضوء العينين، ولابد من تدارك هذا بجراحةٍ لها

تكاليف ليست في وُسع هذا العالم الزاهد المنجمع عما في أيدي الناس، ويصل الأمر إلى الأمير نايف بن عبدالعزيز رحمه الله، فيعجَلُ إلى صديقه بكل ما يكفيه مُؤْنَتَه في سفره وعلاجه.

ويرحل شيخنا إلى الأندلس، ويمُنُّ الله عليه بالعافية والشفاء، فيأبى عليه خلقه أن يصمت عن الاعتراف بالجميل لصاحبه وصديقه الأمير نايف بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى، فيقول:

«وأما الرجل الذي أجرى الله على يديه لُطْفَه بي، واستنقذني بمروءته من العمى، وحاطَنِي حتى عُدْتُ بصيرًا، فإني لا أملك له جزاءً إلا الإقرار بفضله، وإلا الدعاء له كلما أصبحتُ وأمسيتُ، صديقٌ لا تنام صداقته عن أصحابه، ورجلٌ لا تغفُل مروءته عن غير أصحابه، ثم هو بعدُ غنيٌّ عن اللقب بمكارم أخلاقه، وفوق كل لقب بسماحة شِيَمِه: «نايف بن عبدالعزيز آل سعود»[1] لم يزل منذ عرفته قديمًا، يزداد جوهرُه على تقادُم الأيام سَنًا وسَنَاءً، صَرَّحْتُ بذكر اسمه مُطِيعًا لما يرضيني، عاصيًا لما يرضيه».

فانظر إلى الكلمةِ الأخيرة: مُطِيعًا لما يرضيني= فهي ثمرة ما أخبرتك عنه من حبه الوفاء والاعتراف بالجميل.

وهذا لائحٌ في كتبه، ويكفيك هنا كتابه الباذخ «المتنبي»، اقرأه وانظر بعينه إلى شمائل بدر بن عمار، وسيف الدولة= التي أقبلت بقلب المتنبي عليهما= فإنه هو قلب محمود محمد شاكر الذي تأسره هذه الخصال الشريفة.

ومن ثمار هذا الخلق الفريد في الاعتراف بالجميل وشكر أهله= أنه كان يذكر الخطأ يقع فيه وينسب تصحيحه إلى مَن دَلَّه عليه، ولعل أوراق المستدركات في نهاية السفر الثاني من طبقات فحول الشعراء= شاهدُ صدقٍ على هذا الخلق النبيل.

وأنا، فلا أعلم خلقًا هو أحبُّ الأخلاق إلى أبي فهر من الوفاء، ولا أعلم خُلُقًا هو أبغضُ الأخلاق إليه وأبعدها منه= من الجحود؛ لأنه كذبٌ في الخلق، وقدحٌ في المروءة.

(١) كان بين شيخنا والأمير نايف رحمهما الله تعالى صداقة قوية ومواقف كثيرة من التقدير والاحترام.. وقد ذكر طرفًا من ذلك معالي الشيخ عبدالله بن عبد المحسن التركي في مقالة له بالجزيرة بعنوان: فقيد الوطن.

ولذلك كان يشتد عليه أن يسقطَ بعضُ من وصلهم بحبه وإحسانه وجعلهم منه بمنزلة الولد أو الصاحب والصديق= في خُلق الجحود والنسيان، يستوي في ذلك من كان صاحبًا له، أو من أسلمها قلبه فتنكَّرَت له، فأهداها «ديوان البغضاء»!

وهذا سر بعض الكلام المبهم الذي كان ينبذه أبو فهر في بعض كتاباته وأحاديثه= عن الإنسان، وأنه كائنٌ مخيف، كثير الإيذاء والبغي!

وقد نفث هذا في اعصفي يا رياح، فقال:

عالمٌ لم يكن ولا الساكنوه * غيرَ أشباحِ نقمةٍ تتمارى!

وأنشد معناه في صدر نشرته لطبقات فحول الشعراء من قول شيخ المعرة:

جُر يا غرابُ وأفسِدْ، لن ترى أحدًا * إلا مُسيئًا، وأيُّ الناسِ لم يَجُرِ؟!
هم المَعَاشِرُ، ضامُوا كلَّ من صَحِبوا * من جنسهم، وأباحوا كلَّ مُحْتَجَرِ
لو كنتَ حارسَ أثمارٍ لهم ينَعَتْ * ثم اقتربتَ، لما أخلَوْكَ من حَجَرِ!

وهذا هو الذي أدناه من شيخ المعرة رحمه الله، وجعله كثير الاحتفال بشعره والاستشهاد به، مع ما لشيخ المعرة من مكانة باذخة في العلم بالعربية ولسانها.

لقد خدعتني!

وشيخنا عربي مسلمٌ صعيديٌّ، ملءَ إهابه شمائل آبائه وأخلاقهم، في الاهتزاز للمعروف، والثناء على أهله، والكرم السخي، والمسارعة إلى نجدة الملهوف.

وقد كان من حوله يعرفون منه ذلك، فقد جهد الأستاذ الكبير أحمد فراج في عقد لقاء مع الأستاذ، أو الخروج معه في حلقة تلفزيونية، وشيخنا مقيمٌ على زهده في ذلك وامتناعه عن الظهور في التلفاز أو إجراء أحاديث مع الصحف أو الإذاعات.

وتطير في عقل الأستاذ فراج فكرةٌ يتسلل من خلالها إلى غَرَضِه في إجراء لقاء مع الأستاذ، فيتصل به بادئًا مكالمته بهذه العبارة:

«أستاذنا أنا محتاج لك»..

فيسارع شيخنا في لهفةٍ بادية في صوته لا تصبر عن المسارعة لمن طلب مساعدته قائلًا: «خير..اؤمرني»!

فيقول له الأستاذ أحمد فراج: أريد فقط من حضرتك عشر دقائق للإذاعة.

وإذا بهذا الأبيِّ الممتلئ رفضًا للقاءات والحوارات= يقول بكل يسر: حاضر موافق.

لأن الأستاذ فراج رحمه الله ولج إليه من باب النجدة، والاستعانة به، وهو عربيٌّ نبيلٌ لا يليق به أن يرد من استغاث به قط، ولو في أمرٍ تكرهه نفسه!

وذهب الأستاذ فراج إلى البيت وعقد الحوار، ثم بعد الفراغ منه ينظر إليه الأستاذ ويقول له: لقد خدعتني!

ويضحك الأستاذ أحمد فراج، فقد ظفر بما يريده وأجرى الحديث مع شيخ العربية، وبلغ ما يصبو إليه!

وما استطاعت إذاعة الكويت إجراء حديث هو من أهم أحاديث شيخنا وأطولها، -وسيرد كله في الكتاب إن شاء الله- إلا لما في قلب هذا العربي النبيل من حفظ الجميل والوفاء لمن أسدى إليه معروفًا، فتلامذته الكويتيون هم الذين رعَوْا بيتَه في غيبة المحنة في السجن، وهو لا ينسى هذا لهم أبدًا.

ويخالف من أجل ذلك سنته الصارمة التي أقامها في بيته في موقف شخصي كالذي كان مع الدكتور عبدالله محارب المستشار الثقافي للكويت في القاهرة سابقًا، عندما احتاج كتابًا لابن المعتز لم يكن يجده إلا في مكتبة شيخنا، فطلبه، فقدمه له الشيخ ليقرأه في البيت، فسأل الشيخ أن يأذن له بتصويره، فسكت الشيخ قليلاً، ثم قال: أمامك يومان وأعده!

البَابُ الثَّانِي

دفتر الأصحاب!

كلمات وعبارات أصحاب شيخ العربية عنه وعن أثره فيهم وحبهم له، وبعض مواقفهم معه، نثرًا وشعرًا



دفــتر الأصحــــاب[1]

كيف كان مجلس هـذا الرجـل الـذي يقصـده النـاس مـن جنبات الأرض، ويتلمسون في رحابه شفاء العي، وأسباب العلـم؟

هـذا شيخنا يقـوم مـن نومـه بـين يـدي الفجـر، فيصـلي الفجـر، ويقـرأ مـا تيـسر لـه، ثـم يجلـس إلى مائـدة إفطـاره، فيـأكل أكلًا خفيفًـا كعادتـه، ثـم يجلـس فيعـود إلى كتابـه، جالسًـا عـلى مكتبـه الأثـير، أو عـلى كرسـيه وبـين يديـه وعـن يمينـه وشـماله أعمـدة مـن الكتـب ينظـر فيهـا..

وقـد كان لا يقـرأ في كتـاب واحـد غالبًـا؛ حتـى ينفـي عـن نفسـه الملالـة، فيقـرأ حتـى إذا أخـذه الملـل مـن كتـاب، انتقـل إلى غـيره، ثـم يعـود إلى مـا كان يقـرأ وهكـذا.

لا يسهـر في الغالـب، وينـام مبكـرًا.

وكان يسـتوحش إذا سـافرت أم فهـر إلى بلدتهـا= فيرسـل في طلـب تلميـذه الحبيـب عبدالحميـد البسـيوني ليبيـت عنـده، فلـم يكـن يحـب المبيـت وحـده.

ويـأتي الصحـاب في يومهـم المـضروب لهـم، ويتلقاهـم تلقـي الوالـد أبنـاءه، مرحًـا ودودًا كريـمًا، فرحًـا بوجودهـم في داره، ويـدور الحديـث في شـئون شـتى، مـن العلـم وفنونـه، ومـا في دنيـا النـاس، وشـئون المجتمـع ومـا يعتمـل في الأمـة، ومـا شـاء الله للحديـث أن يكـون.

وقـد ظفـر بعـض الأصحـاب القدمـاء بمجالسـه التـي شرح فيهـا المفضليـات والأصمعيـات وغـير ذلـك مـن كتـب الأدب، وقـد شرح لهـم أيضًـا في مجالـس ريـاض الصالحـين لأبي زكريـا النـووي رضي الله عنـه.

---

(1) جعلت الكلمات في الكتاب عليه وسم أصحابها وأسلوبهم في الكلام بعيدًا عن قلمي إلا في الندرة النـادرة!

وقد ذكر بعض هذا الأستاذ الكبير د. يعقوب الغنيم، وهو من الرعيل الأول من أصحاب شيخنا الكويتيين القدماء الأوفياء= في كتاب «دفتر قديم» بجزئيه.

وكان يكون في هذه المجالس بعض ما ذكرته هنا في هذا الكتاب، من مسائل علمية وأدبية وفكرية وسياسية واجتماعية، وشرعية، غير أني أحببت أن أنثر بين يديك بعض ما كان هنالك في مجلس شيخ العربية رضي الله عنه:

مشاهد من المجلس

١/ من المواقف الطريفة التي أذكرها هنا، أن بعض الجلوس وهو د علي السالوس - وكان ذلك عام ١٩٨٣م - ناقش شيخنا في مصافحة الرجل للمرأة، واستدل بما ورد في السنة= أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم يصافح امرأة لا تحل له..

فقال له شيخنا: وهذا دليل على أنهم كانوا يتصافحون، وإلا لم يكن في تخصيصه بأمر يعم الناس جميعًا= معنى!

وجعلا يتفاوضان في هذا الأمر، وشيخنا يتكلم والدكتور السالوس يرد وهما يتبسمان، وشيخنا يقول له: معندكش عقل ولا إيه.

والشيخ السالوس يرد ضاحكًا: يمكن.. ويضحك شيخنا.

٢/ وآخر يكلم شيخنا عن التلفاز والمسلسلات التي يسمونها دينية، وشيخنا يرد: هذه أشياء سخيفة، وهؤلاء أناس ثقلاء الدم، حتى إنهم لا يحسنون الكلام بالعربية، ويتكلمون العربية الفصيحة بلسان ابن البلد الذي في الشارع!

ثم يقول: قديمًا كان في الإذاعة، وهي كانت منحطة، لكن ليس كانحطاط هذه الأيام= يحترمون أذن المستمع، ولا يستضيفون ضيفًا قبل أن يختبروا خامة صوته، ولو كان يحسن عرض مادته، فإن لم يكن صوته صالحًا أتوا بغيره!

وأذكر أن محمود حسن إسماعيل كان عندي سنة اثنتين وأربعين أو واحدة وأربعين وكان مريضًا جدًا، وكان لديه موعد في الإذاعة لتسجيل بعض قصائده، فنهيته عن النزول لمرضه.

فاتصل بي أحمد سالم من الإذاعة، وكان يعلم أن محمود عندي، فقلت له: إنه مريض ولا يستطيع النزول بهذه الحال، فقال لي: ولكن لابد من نزوله من أجل الإذاعة والتسجيل.

فقلت له: طيب سآتي أنا.

وأخذت قصائد محمود وذهبت، فقال لي: لكن لابد من اختبار صوتك أولًا قبل التسجيل لك، وبالفعل اختبروا صوتي وسجلت القصائد.

يعني كان هناك شيء من الإتقان والاهتمام، بينما المذيع الآن لا تفهم ماذا يقول!

وانظر إلى نطق الممثلين فيما مضى ونطقهم الآن، وانظر نطق المغنين فيما مضى - أم كلثوم وعبدالوهاب - ونطق الأولاد اليومين دول هاني شاكر وغيره!

٣/ وعندما سأله أحدهم: لماذا لا يخرج في التلفاز أو يقوم بتسجيل لقاءاته في بيته فالناس لهم حق عليك؟!

قال شيخنا: قضية أن الناس يريدون هذا «هجص»! وكيف صح لنا أن نقرأ للفانين مثل امرئ القيس وغيره، ولم نر صورهم أو نسمع أصواتهم؟! ثم ليس لأحد علي حق في هذا!

ثم تكلم شيخنا عن معنى الاهتمام بالعلم والقراءة، ثم قال: حتى أساتذة الجامعات الآن يقرءون للتسالي! البلد أصيبت بعدوى، فلم يعد هنالك الاهتمام القديم أبدًا؛ لأن الحالة في نزول غريب، ليس لأن الماضي كان «كويس أوي يعني وقمة فهذا غلط أيضًا، بل كان فيه عيوب كبيرة جدًا»لكن الذي يحدث الآن شيء مخيف، حتى كبار السن الذين كانوا ينبغي أن يكونوا مستمرين على هذا الطريق، فارقوا هذا الطريق إلى غيرها، وصارت المسألة بلا اهتمام.. بل أقول لك عن نفسي: أنِّي في بعض الأحيان أقرأ أشياءً وأنا غير مهتم بها، مع اهتمامي بأعمالي بالطبع، لكن كأن الأمر تحول إلى وباء أصاب الكل!

لكن ليس يعني هذا أن يقول إنسان: خلاص انتهى كل شيء.. لا غلطان، لابد أن يحدث شيء في المستقبل.

٤/ ذكر شيخنا طالبًا في هندسة أرسل إليه رسالة يطلب فيها دراسة النحو ويعلق على كتاب ابن مضاء وأنه اقتنع برأيه، لكن أناقش المسألة بعقلانية إلخ!

فيقول شيخنا: طبعًا طالب في السنة الثالثة في كلية الهندسة مستحيل يقرأ ابن مضاء، ويريد مناقشة المسألة مناقشة عقلية، وكتابته في الرسالة لا تدل على معرفة بالنحو، ثم يتكلم في فلسفة النحو؟! يعني هناك أيضًا مع الاهتمام شيء من التظاهر!

يعني هناك أشياء مبهمة، وأشياء لا ترى، لكن ما أمامنا مخيف، فأنا طوال عمري أقول: لابد أن نتكلم عن الظلام الذي أمامنا حتى نكون فاهمين له، والضوء سيأتي ولابد يومًا مًّا، ولكن لا تعرف كيف يأتي.

لكن هذه الأدوات المتوفرة - يعني التلفاز وما أشبهه - مدمرة للتفكير والنظر.

٥/ تكلمت إحدى الجالسات عن إحصائية تتكلم عن الانتشار الهائل للكتب في العالم وإقبال الناس عليها نظرًا لاتساع التعليم في البلاد بعدما كانت الأمية هي السائدة..

فنسبة القراءة زادت، ولكن شكل القراء في عصرنا يختلف عن شكل القراءة في العصر الماضي، ففي الماضي كان يمكن للشخص أن يحيط بالكتب التي تطبع ويقرأها جميعا، بينما فرض التخصص الآن على الشخص القراءة في فنه الذي تخصص فيه ولربما لا يتسع عمره لقراءة كل الكتب التي في تخصصه لأنها بالآلاف، فما بالك لو أراد القراءة في فرع آخر من باب الهواية مثلا؟

فقال شيخنا: هذا الموضوع لم أتكلم فيه، وهذا العالم الأوربي لا قيمة له في نظري، فالذي يهمني هو أرضي، أما الكلام الذي قلتِه عن العالم فلا علاقة لي به، ولا أعرفه، وليس لي.. لا أوهم نفسي بما يجري في العالم الآخر، فالذي يجري عندي هو المهم، أما ما يجري في العالم الآخر فنستقبله عبر الكلمات، وليس عن طريق الخبرة، لا أنت تعرفينه ولا أحد يسافر، فهم يتحدثون عن شئون أنفسهم.

لكن الحادث عندنا، مع أعداد الكتب التي تُطبَع = ليس هناك انتشار مثل الذي في أوربا ولا أمريكا، فأنت هكذا تخلطين بين عالمين، أحدهما قذر وشرس ومتوحش، ويريد أن يقضي على العالم كله ويستلبه كل قواه.. والآخر يجلس «غلبان» ليس معه شيء، ويقول: العالم الآخر بيعمل كذا!

نحن نتكلم عن الأدوات هنا في بلادنا، فطباعة الكتب في أوربا وأميركا وروسيا= مختلفة تمامًا عن الطباعة الموجودة عندك هنا، وكل الأشياء مختلفة!

هذا خلطٌ بين أشياء لا تختلط.

حتى التخصص فيه هذا الداء، ليس هاهنا متخصص بالمعنى الذي يُفهم عند الناس الآخرين الذي أحدثوه الآن؛ لأن المتخصص هنا مثلاً في الهندسة عبارة عن مهندس يعرف بعض المعارف في الهندسة، ومنعزل عن العالم تمامًا، حتى نفسيته ماتت من الداخل، ليس بإنسان ولا قارئ ولا ينظر في الأدب! ليس له علاقة بشيء.. بل هو رجل يعمل على قدر ما لديه، وليس هو بمتخصص بالمفهوم الآخر.

التخصص شيء آخر عندهم، لكنه عندنا هو الانحصار في دائرة العبودية الصغيرة التي تعمل فيها جزءا من آلة!

فالطبيب اليوم ليس متخصصًا مثل الطبيب منذ خمسين سنة[1]، لا يهتم بما كان يهتم به من كان طبيبا فيما مضى أبدًا.

وداؤنا آتٍ من القاع من سنة أولى ابتدائي، والسبب كله أن هذه الأمة بلا لغة تجمع اهتمامات كل البشر الذين يعيشون على أرضها، بآدابها وفنونها وتاريخها وماضيها.. ليس لها شيء تنتمي إليه!

الناس الذين يتصورون أن الحضارة فقط هي التكنولوجيا مخطئون.. الحضارة تقوم على أسس أكبر من هذا؛ لأن الحضارة نتاج، والتكنولوجيا نتاج الثقافة، والثقافة انتماء، والانتماء إلى شيء هو الدخول في أعماقه ومعرفته بتفاصيله الدقيقة.

أما الآن فالانتماء صوري! مثلما يقول أنا مسلم الآن ثم يذهب فيفتي في الدين، والآن عندنا مُفْتُون كثيرون من الإخوان المسلمين ومن التكفير والهجرة، كلٌّ يفتي في الدين وهو جاهل، وليس عن علم مبني على معرفة.. لا.. إنما هو انتماء إلى شيء وهمي.

حتى الانتماء إلى مصر، صار انتماء وهميًا، يعني كان جيلنا ينتمي إلى مصر أضعاف أضعاف أضعاف ما تقولونه اليوم!

الشباب الآن لا يعرفون عن بلدهم شيئا ولا يهتمون بشيء، ولا يعرفون شوارع مصر ولا مدنها ولا مساجدها ولا عن الأزهر.. لا يعرف شيئًا.. لمـــاذا؟!

(١) هذا الكلام كان عام ١٩٨٤.

لأنهم عندما يخرجون مثلًا في رحلة مدرسية لزيارة بعض معالم مصر، فتجد المدرس والمُدَرِّسَة يقولان: تعال نروح بورسعيد، لتشتري فستانًا وتشتري كذا وكذا.. ويتركون الأولاد وحدهم! فيرجعون لا يعرفون عن بلدهم شيئًا!

فهر وزلفى سافرا إلى أسبانيا هذه السنة، ورجعا وما عرفا شيئًا.. ربما عرف فهر شيئًا يسيرًا، وكل من معهم من الأساتذة تركوهم وذهبوا للأوكازيون يشترون، ولم يخبروهم شيئًا!

لا أخبروهم عن الحمراء، ولا عن قرطبة، ولا عن المسلمين.. لا شيء!

بينما عندما كنت أنا في أسبانيا مع عبداللطيف - يعني أبا همام - وجدت الطلبة الأسبان يزورون آثارهم، ومع كل واحد دفتر يقيد فيه المعلومات ويرسم ويكتب ويتعرف.. شيء آخر غيرنا!

فنحن في غش منذ سنة ألف وثمانمائة وخمس -منذ عهد محمد علي الذي كان نكبةَ الأمة - حتى يومنا، لكنه يزداد كل يوم سفالة! نريد فعل شيء ولا نفعل شيئًا.

ومع هذا فالأمل لا ينقطع؛ لأن تدبير الله تعالى للكه لا نعرفه نحن، مثلما يدبر أمرك أنت، لا تعرف غدك ما فيه، وهو سبحانه يدبر لك.

ولا يخدعكم الأوربيون.. فقد كانوا حتى القرن السادس عشر والسابع عشر في أحط أنواع الحياة البشرية.

٦/ كلمه مرة د. محمود الربيعي عن عدم التزام الناس حتى بالقواعد الخلقية العامة مهما قيل لهم، كمسألة المواعيد والأوقات والالتزام بها.

فقال له شيخنا: الذي عليك أنت تلتزم فقط، وليس عليك الناس، لكن سيأتيك من يعمل هذا دون قول منك.

٧/ سأله بعض الجالسين عن الإصلاح.. ولماذا لا نقوم بإصلاح التعليم منذ النشء؟

فقال شيخنا: اسمع سأقول لك.. نحن إخوان «دانلوب» حتى الثانوية العامة، كنا نحفظ ثلاثة أجزاء من القرآن، وهي قد سمع وتبارك وجزء عم.

الآن الولد الصغير يحفظ سبعة أجزاء من سنة أولى ابتدائي حتى الثانوية العامة، وهذا هو الموجود في كتب أولادي.

لكن هذا وقت الامتحان فقط، ثم بعد ذلك لا علاقة له به! بينما كنا نهتم نحن بالأجزاء الثلاثة أكثر من اهتمام الذين أحدثت لهم إصلاحًا دينيًا فجعلتهم يحفظون سبعة أجزاء لا يبقى منهم في ذهن الطالب سورتان!

بل إن المدرس ليس حافظًا للقرآن! بل إن بعض حفظة القرآن من الطلاب الذين صاروا أساتذة في الجامعات= نسوه!

حتى الذين يخرجون في بعثات خارجية، يكون الواحد منهم - كصاحب لي[1]- حافظًا للقرآن متذوقًا للأدب، شاعرًا متقنًا، ثم يذهب إلى أوربا فتسقط نفسه من الداخل، ويتهاوى كل ذلك في صدره، ويرجع شخصًا آخر نسي كل ما تعلمه!

حتى إن الدكتور طه بعد رجوع صاحبنا ذلك من إنجلترا، قال له: تعال لتُدَرِّس الأدب.. فقال له: صرت لا أحسن هذا، لقد نسيت، حتى إني نسيت القرآن!

هذا ما فعلته أربع سنوات مع شاب من الممتازين جدًا، حتى الشعر الذي كان مهتمًا به سقط، والكامل للمبرد سقط..كل ذلك سقط! ومسح ما في صدره في أربع سنوات. فالعيوب في الأشخاص، وليس في الأنظمة فقط، فالأمر كله في عمل الإنسان نفسه.

٨/ وكان شيخنا يقول: ليس هناك كُتْبِيٌّ يشتغل في الثقافة، الكتبي يشتغل في التجارة، يأخذ منك السلعة، ولو كنت قد بلغت القمة والكتاب لا يسوق لا يأخذه منك!



هذا بعض ما كان يدور بين شيخنا وأضيافه من أصحابه وتلامذته، وهو يدنيك من طبيعة المجلس وطبيعة ما كان فيه من نقاشات.

ثم إليك بعضًا من كلمات أصحاب شيخنا وتلامذته، التي كانت تلقى بين يديه، في يوم مولده في عاشوراء.

(١) سماه الشيخ.

وهو يوم كان والد شيخنا= الشيخ محمد شاكر على سنة أشراف الصعيد= يجعله يومًا للاجتماع والطعام واللقاء بالأشراف والعلماء والوجهاء.

يقول شيخنا رحمه الله: «الأشراف عندهم عصبية، حتى إن أبي بعدما كبرت سنه، كان يصر على أن يلف عصابة خضراء تحت عمامته على عادة الأشراف في مصر، وكان يحرص على يوم عاشوراء موعدًا يمتلئ فيه البيت بالكبار والعلماء، وظل على ذلك، ولم يلتزم إخوتي بهذه العادة، وأنا التزمت بها، واجتمعت مناسبتا ميلادي، ويوم عاشوراء معًا»!

ففي هذا اليوم من كل عام يتوافد تلامذة شيخنا على بيته، يلقونه ويحادثونه، ويجلسون إليه جلسة الأبناء مع والدهم، ومنهم الذي ينشد الشعر ومنهم الذي يلقي كلمة.

وهذه بعض كلمات أصحابه أرقمها هنا لأهميتها.

الكلمات

١/ كلمة العلامة الكبير عبد الحميد البسيوني[١]

«أحمد الله تعالى وأتوب إليه وأستغفره، وأصلي وأسلم على رسوله صلى الله عليه وسلم.. وأعلم من نفسي أنني دون ذلك الموقف بكثير بين يدي شيخي وأستاذي أبي فهر وبعد أن تحدث أستاذي الأستاذ الدكتور حسين نصار، وقد قلتُ على مسمع من شيخي من قبل: إن الكلام عن الأشياخ من أعسر الموضوعات ومن أشدها وعورةً على من أرادها؛ لأن الإنسان إن أراد أن يحلل تقاضاه ذلك معاناة ونظرًا واستقراء مع حسن نظرٍ وتوفيقٍ وأمانة.

(١) علامة كبير خامل الذكر له صيت بعيد عند أهل المعرفة والعلم لاسيما في الكويت حرسها الله، وقد أكرمني الله عز وجل بمجالسته أكثر من مرة في بيت شيخنا رحمه الله تعالى، فوجدت عالمًا ذا فنون، واسع المعرفة رقيق القلب حسن المجالسة، رحمه الله ورضي عنه.

وإن أراد أن يقول ألفاظًا مسطحةً، فهي تكفيه وهي تغنيه وهي تعبر عن مضمر ما في نفسه.

وأنا دائمًا من الفريق الثاني إذا أردت أن أتحدث عن أستاذي وشيخي أبي فهر محمود محمد شاكر، ولست أستطيع أن أقول شيئا يقوم هذا العلم الشامخ، فأنا أعجز من ذلك، ولكني ألمس بعض الأشياء اليومية التي كانت تصادفنا وبقيتْ آثارها في نفسي على الأقل.

أذكر مرة أننا كنا في بيت شيخنا الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله، وتقدم طالب للأستاذ العقاد، وقال له أنا تعينت معيدًا في قسم الفلسفة، فبماذا تنصحني؟
- هذا على مسمعٍ مني.

فقال له: تعرف محمود محمد شاكر؟

قال له: لا.

قال له: اعرفه ورُح له.

فسألنا ولم أكن أعرف أستاذي قبلها، وكنت أقرأ له، أعرف اسمه وما كنت زرته قط، فقال الأستاذ العقاد لفتحي فودة - ولعل عامر العقاد يذكر هذا -: إذا أردت أن تكون فيلسوفًا بحقٍّ، فطريقك إليه الشعر، وإذا أردت شعر العرب فطريقك إليه محمود محمد شاكر.

هذا كلام أستاذي عباس محمود العقاد، ولعلي أقوله للمرة الأولى؛ لأن الناس يسمعون الكلمات وينسونها في غمرة أحداثٍ أخرى.

مرةً أخرى كنا نتكلم عن الشخصيات التي لها ألوان، وكان هذا الحديث عند الأستاذ العقاد من أحب الأحاديث إليه: الشخصيات المتميزة، فكان الأستاذ العقاد يقول دائمًا: إذا أردت أن ترى مفتاح شخصية رجل -وهذا كتبه العقاد-، فانظر إلى ملكة الفكاهة عنده، وكنت في هذا الوقت قد بدأت أتصل بأستاذي الأستاذ محمود محمد شاكر.

فقلت له: ما رأيك في ملكة الفكاهة عند الأستاذ محمود محمد شاكر، ما دمت ترى أنها تقويم للشخصية، فقال: لا دي Over خالص!

بعد أن اتصلت بالأستاذ محمود محمد شاكر، كان اتصالي الأول اتصال زائر عابر، وأذكر أنه جاء حديثٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأردت كعادة الشبان أن أتعالم، وأن أظهر أمام مسمع الشيخ أنني أعلم شيئًا من هذا العلم، فقلت كلماتٍ تتصل بهذا العلم لكنها كلمات قشور لا أصول لها، إنسان يعرف مجموعة من التعبيرات يحب أن يلقيها على مسمع الأشياخ لعله ينال الرضا منهم، وكانت الواقعة! وكان الدرس الأول!

ربما كثيرون ينفرون لكنني إلى اليوم عرفت كيف ينبغي أن يتأدب الإنسان أمام المعرفة، أي لون من ألوان المعرفة، وأن لا يتقدم إليها بالزيف، أو القشور أو الادعاء.

كان أحيانًا، من أبواب المشاكسة التي يشاكس بها بعضنا بعضًا أمام أستاذنا، وكان الشاعر الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل يشاركنا ذلك، وأذكر مرة أنه أوقعني في مقلب لم أكن أعرفه، وكنت جديدًا على المكان، وأثار الكلام عن الصحابة وفتنة الصحابة وعن السيدة عائشة رضي الله عنها وموقفها من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأيضًا جعلني أنطق بكلمة، وكانت الواقعة الثانية[1] التي علمتني الأدب أمام تاريخنا كله وأمام رجالنا كلهم!

القيمة الكبرى التي يمكن أن يتعلمها الإنسان من محمود محمد شاكر هي الاحترام للعلم وللعقل البشري.

حتى الكلمات التي يقولها الناس كـ «فلان سخيف»، ويظنونها مسائل سهلةً أن تقال.. محمود محمد شاكر لا يتكلم عن أحدٍ لم يقرأ له، كما نفعل نحن! ننقل كلام أشياخنا، وخاصةً نحن الذين نرتبط بالأشياخ، وقد علمت هذا من نفسي، وأنا أتكلم عن نفسي لا أتكلم عن أحد غير نفسي.. كنا نسمع كلام الأستاذ العقاد ورأي الأستاذ محمود شاكر في بعض القضايا، فنتكلم بهذه الآراء وربما نستخدم نفس الألفاظ.. هم يقولونها بمدلول عندهم؛ لأنهم بحثوا وعانوا وذاقوا المرارة والحلاوة في هذا البحث، ولم يقولوا ما قالوه إلا بعد رحلة شاقة.. أما نحن فقد كنا نسيء مرتين إلى أشياخنا بهذه الجُمَل، عندما نحمل هذه والألفاظ دون أن يكون لها ما يسندها من حقائق العلم وحقائق المعرفة.

---

(١) يعني أخذه الشيخ بالكلام أخذًا شديدًا وغضب عليه.

مما كنا نتعابث به ونفعله عن قصد أنا ومحمود حسن إسماعيل وبعض الإخوة: أن نسأل عن بيت من أبيات الشعر، والأستاذ محمود حسن إسماعيل يقول: «انتظروا شوفوا هيجري على الكتاب إزاي وهيتابع المسألة إزاي وهيفرح لما يكتشف لنا الحقيقة».. ثم يكون ذلك فعلًا.. نسأل نفتعل مسألة ونرى الجد كل الجد والبحث من كتاب إلى ثان إلى ثالث إلى رابع، ثم يشركنا ولا يدع المسألة أن تمر دون أن نشترك جميعًا، وبعدها يخلو الأستاذ لبعض شأنه، فيقول محمود حسن إسماعيل: «انظروا إلى هذا الرجل! ماذا جنى من دنياه؟! ما الدنيا التي جناها محمود غير أن يظل يهرول خلف كلمتين! يفرح بهما والناس ربما تحسده!».

لا أحب أن أسترسل طويلًا؛ فعندي الكثير مما أظن أني كنت قادرًا على استجماعه وعلى أن أقوله.

وقد ذكرت رجلين ذهبا، لكلٍّ منهما مذاقه وطعمه؛ لأن محمود محمد شاكر عندي وفي رأيي: هو جِماع هاتين الشخصيتين: الكاتب العلم الفرد، القادر على المتابعة الفكرية، مع بصرٍ بالتاريخ لا يكاد يتيسر لأحد، حتى الكلمات العابرة التي كان يقولها بعضنا لبعض، كما قال لي أحمد راتب النفاخ ونحن في الشام:

«كنت أظن مرة أن التأويل الذي أوله الأستاذ محمود تأويل فيه ضعف، ولم يبن شيءٌ في عيني إلا أنه قال لي: يا أحمد..كأنك معترض»!

وأنا الآن هو قال لي أربعة شواهد، وأنا عندي سبعة وثلاثون شاهدًا على صحة ما قال، ويومها كنت أظن أن ما قاله غير صحيح.

وأيضًا: محمود محمد شاكر عند التتبع الصحيح للون بصره وللون بصيرته وللون كتابته، هو في البداية شاعر، وهو في الختام شاعر، وهو إن تتبع جملةً شاعر، وإن درس مسألةً نحويةً شاعر، وإن حقق نصًّا من النصوص فهو شاعر، فيه عمق الشعر وفيه إلهام الشعر.

ومعذرةً أنني وقفت هذا الموقف بين يدي شيخي، ولكنني فقط دُعِيت فلبيت، وهو أهلٌ لكل تلبية، أبقاه الله لنا ذخرًا، وأبقى هذا البيت مُجَمِّعًا لكم جميعًا»[1].

(١) كلمته في بيت شيخنا يوم عاشورا (١٤٠٣هـ).

٢/ كلمة الأستاذ الكبير الدكتور حسين نصار

بسم الله الرحمن الرحيم...

محمود محمد شاكر، لا أتردد عندما أريد أن أذكر هذا الاسم وأريد أن أقدم لقبًا له، لا أتردد أن أقول الأستاذ محمود محمد شاكر، وأريد بالأستاذ المعلم، قد يكون ذلك شيئًا غريبًا، لأن محمود محمد شاكر لم يمارس التعليم فيما أظن، (علق الشيخ محمود وقال: إطلاقًا) ولكنه معلم، معلم بطرق شتى، بمعلم بالممارسة يبقى مع مَن يريد أن يتخصص في الثقافة العربية، ويريد أن يتعمق ويريد أن يكون له كيانًا خاصًا؛ فيعمل معه، وإذا فهو تدريب عملي ومن ثم يمكن أن أقول الأسطى محمود محمد شاكر.

ثم هو موجه يقف مع الزميل أو مَن يعتقد أنه زميل له ويبحثان معًا فإذا بأحدهما ينفرد عن الآخر ويسمو إلى درجات لا يستطيع الآخر أن يصل إليها، ويوجهه، قد يحس الآخر بهذا التوجيه، وقد لا يحس، ويتشربه دون أن يصطدم به، ذلك الذي يسمو هو الأستاذ محمود محمد شاكر.

إذن هو معلم بالممارسة وبالتوجيه وبالمذاكرة، مذاكرة الصديق مع صديقه.

وإذًا فهو الأستاذ محمود محمد شاكر، لقب في تصوري أليق ما يكون به، ولا أعني بذلك أنه اللقب الذي يغلب عليه، فيلغي الألقاب الأُخَر، وإنما محمود محمد شاكر كاتب كما هو أستاذ.

ومن الكتّاب مَن ترتبط صورته باسم كتاب واحد، بحيث إننا إذا ما ذكرنا اسم الكاتب نذكر معه اسم الكتاب لا محالة، فإذا ما أردنا أن نفعل ذلك مع محمود محمد شاكر نحتار: هل نختار له المتنبي الذي اختير[1]؟، هل نختار له تفسير الطبري؟ هل نختار له طبقات فحول الشعراء، الذي سماه طبقات فحول الشعراء لأول مرة وكان صبيًّا صغيرًا ثم تبين صواب الذي اختار.

(١) يعني لجائزة الملك فيصل العالمية للأدب.

لا نستطيع أن ندعي أن اسم محمود محمد شاكر يرتبط بكتاب واحد مما أنتج، وإنما هو مرتبط في أذهان المتصلين بالثقافة العربية بأسماء كل ما أنتج.

وعلى الرغم من ذلك قد تكون هناك عوامل معينة تربط الإنسان في ذهن معين بكتاب معين، فالأستاذ محمود محمد شاكر في ذهني مرتبط بكتاب المتنبي، في ذهني أنا بالذات، ولذلك قصة معينة، فقد كنت في دراساتي أو في سنواتي الأولى من دراسات الثانوية ووقعت على كتاب المتنبي، وأعطيته أيامًا معينة قرأته فيها قراءة لا أستطيع أن أتصورها الآن، ولكنّي ما زلت أذكر كتاب المتنبي بين الكتب التي قرأتها ونسيت، فربما سألني سائل ماذا قرأت في هذه المدة أو في هذا الصيف الذي كنت في عطلتي المدرسية وكنت أتردد على مكتبة البلدية في مدينة أسيوط للقراءة فلا أذكر كتابًا معينًا غير هذا الكتاب الذي استولى عليّ وبقيت ذكراه، وبقي كثير من المعلومات الموجودة فيه راسخة في ذهني إلى أن دخلت الجامعة، وابتدأت أعرف أن لصاحب هذا الكتاب أشياء أخرى، ولكن هذه الذكرى بقيت لا تحول ولا تتزحزح من ذهني، فإذا كان محمود محمد شاكر قد ارتبط بكتاب المتنبي؛ فإنما هذا الارتباط لأن الكتاب كان الباكورة الناضجة التي تلفت كل نظر عندما يقع عليه، ولذلك كان له ارتباطه الخاص باسم محمود محمد شاكر.

وإن أردنا كتابًا آخر قد يدل على شخصية محمود محمد شاكر ربما اخترنا غيره، إذا استطعنا أن نختار من بين هذه الكتب كما قلت، فكتاب المتنبي له أريجه الخاص، له طعمه الخاص، له إيحاءه الخاص بالنسبة لمحمود محمد شاكر لما قلت.

إذن الأستاذ محمود محمد شاكر والكاتب محمود محمد شاكر، والشخص الذي وهب حياته للثقافة العربية فأعطته هذه الثقافة مفاتيح مغاليقها يستخدمها كما يشاء، ومن هنا كان لمحمود محمد شاكر مكانه بين كل مخلص لثقافته العربية، مقدر لها، مقدر للرجال الذين يعملون بإخلاص لهذه الثقافة.

أستاذي وصديقي أطال الله في بقائك، ومنحك القدرة على العطاء الذي نأخذه منك، سائغًا، حلوًا، عذبًا، خالصًا، وجعل في ولدك خلفًا طيبًا منك.

والسلام عليكم ورحمة الله.

٣/ كلمة العلامة الأستاذ الكبير الدكتور محمود الطناحي، رحمه الله ورضي عنه

بسم الله. الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة، أحمده سبحانه وتعالى حمدًا كثيرًا طاهرًا طيبًا مباركًا فيه، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الناطق بأفصح لسان والمبعوث رحمة للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين ومَن دعا بدعوته وتمسك بسنته إلى يوم الدين.

ثم أما بعـــد،

أيها الشيخ الجليل، أيها الحضور الكريم، لم أكن أريد أن أدلو بدلوي في هذا المحفل الكريم رهبةً وخوفًا، فلا زلنا مع تقادم العهد ومرور الأيام نخشى الحديث في هذا البيت الكريم، نخشاه لأننا لا نريد أن ندع فرصة ليتكلم أحد غير الشيخ الكريم الجليل، لكن أخي عبدالحميد البسيوني ذكر كلمة جرَّت لساني ودفعتني إلى أن أقول كلمة موجزة وهي قوله على لسان الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل رحمه الله، ورضي عنه، ماذا جنى هذا الرجل؟

الحقيقة أستاذنا الكبير محمود محمد شاكر لم يجن شيئًا مما يتعاطاه النَّاس، ويجرون خلفه، ويركضون وراءه، لكنه جنى هذا الحب الكبير الغامر الذي ملأ قلوب أحبابه وتلاميذه، وأقولها غير متردد ولا مستثنٍ: لم يعرف أديب من الأدباء المعاصرين هذا التجمع والحب الذي عرفه الأستاذ محمود محمد شاكر، فإن هذا البيت الكريم جمَّع قلوبًا كثيره، والأستاذ محمود محمد شاكر رجل محارب، وقد حارب وحده في ميادين كثيرة، حارب في تصحيح العقيدة، وحارب في سلامة اللغة العربية، حارب وحده غير متحيز إلى فئة، ولا منتصر لجماعة، ورأى الصغار يتطاولون والناس يركضون ويروحون ويجيئون، وهو هو، لم يغره هذا البهرج ولم يثنه عما خطه لنفسه من أول الطريق، أبيح لنفسي أن أشبه أستاذي الجليل بالخليل بن أحمد، ففي حياتهما مشابه كثيرة، يقول النضر بن شُميل -كما تعلمون- عن الخليل: لقد عاش الخليل بن أحمد في مربد من مرابد البصرة لا يجد قوت يومه، وأصحابه يأكلون بعلمه الأموال.

وقد خرج من هذا البيت علم كثير، وخرجت شهادات جامعية كثيرة، تسنم بها أصحابها علا المجد، ونسوا فيما نسوا، أثر هذا الرجل، هذا حديث موجع للقلب، لكنني أقفز منه إلى دعاء خاشع، فإن خير الحب ما اقترن بالدعاء..

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعل أعمالك أيها الشيخ الجليل في موازينك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا، وأسأله أن يجعل جهادك كلمة باقية في عَقبك إلى يوم يلقى الناس الله سبحانه وتعالى، وأن يبارك لك في ولدك، وأن يجعل هذا البيت دائمًا -كما قال أخي عبد الحميد- مجمعًا للأحباب، آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله.

٤/ كلمة الأستاذ الكبير
الدكتور محمد رشاد سالم، رحمه الله[١]

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى مَن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإني في الواقع لم أكن معدًا نفسي لهذا الموقف، وسأكتفي بكلمة قصيرة، لعل مما ذكره أخي الأستاذ عبد الحميد البسيوني من كلام الأستاذ العقاد ما يجعلني أنبه إلى هذه اللفتة من كلامه، وهو أنه نصح طالب فلسفة أو معيد فلسفة بأن يحضر مجالس الأستاذ محمود شاكر، فما أحسب أن هذه اللفتة تخلو من معان عميقة، فإن الأستاذ محمود شاكر ليس من أهل اللغة والشعر والأدب فقط؛ ولكنه يمتاز بأعظم شيء عرفته فيه وهو عمق الفهم، فإن فهمه للمسائل فيه نفاذ وفيه عمق يتجاوز الظاهر، ويتجاوز الأمور السطحية..

وقد استفدت منه كثيرًا في مجال الدراسات الإسلامية، وفي مجال الفلسفة، وفي مجال تقويم الفكر، وفي مجال العمل والدعوة لهذا الدين ولعقيدته مما قد لا يتنبه إليه كثير من الناس، فالأستاذ محمود شاكر - كما قال الدكتور محمود الطناحي- حارب في ميادين كثيرة، من هذه الميادين: العمل والدعوة لهذا الدين، فجهاده في هذا المكان وفي هذا المقام قد لا يشعر به الناس، وقد لا يعرفونه، لكنه فيما أعرف هو من أعظم إنجازاته ومن أعظم أعماله..

(١) كان من كبار محققي تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى.

فالأستاذ محمود شاكر كانت له نظرات عميقة في سير الحركة الإسلامية، وفيما يجب أن يقدم عليه ويتحلى به الشبان الذين يتحمسون للإسلام بالعاطفة فقط، ولا يريدون أن يجهدوا أنفسهم وأن يتحملوا عبء الجهاد الحقيقي؛ جهاد الدين.

كنا مجموعة من الإخوان وكنا في فورة الحماسة للعمل للإسلام وتلقانا الأستاذ محمود بالترحاب كعادته، وكان يرجو فينا الخير ويأمل منا الخير، ولكنه صدم ببعضنا.

وكان هذا الاعتقال سنة (٦٥) وأذكر أني اعتقلت معه في يوم واحد، وأفرج عنا في يوم واحد، بعد سنتين ونصف تقريبًا، وكان الأستاذ محمود محسوبًا على الإخوان رغم اختلافه الواضح مع الإخوان في التفكير وفي المنهج، لكن في تلك الفترة اعتقل كثير ممن كانوا لهم اتجاه إسلامي رغم أن كثيرًا منهم لم يكن من الإخوان.

لو أردت أن ألخص باختصار شديد أهم نقاط الخلاف دائمًا بين الأستاذ محمود وبين تفكير الإخوان لقلت: إنه حسب فهمي= أن الأستاذ محمود يرى أن الإسلام لا يُخدم بمجرد الحماسة العاطفية الفارغة، ولا يُخدم بمجرد العمل الحزبي السياسي على طريقة الأحزاب الغربية والأحزاب السياسية المحدثة، ولكن الإسلام يجب أن نعمل له؛ لأنه حضارة كاملة شاملة لابد أن يقام له صرح علمي واجتماعي وفكري وحضاري، وأن يجند المئات من الشباب أنفسهم للعمل لفهم هذا الدين فهمًا صحيحًا، ولخدمته علميًا وفكريًا أولًا، وإذا اتضحت المفاهيم والأفكار في أذهان المسلمين يأتي بعد ذلك العمل.

فلا عمل قبل العلم ولا يمكن أن يستقيم العمل للإسلام بدون فهم صحيح وبدون فكر صحيح.

أما الإخوان فكانت القضية الشاغلة لهم= الدولة والحرص على الحكم بمفاهيم إسلامية عاطفية، بمجرد الحماسة الفارغة لكلمة الإسلام، وللرغبة المتعجلة في الحكم، أدى هذا إلى أن تصطدم الحكومات بالإخوان ويصطدم الإخوان بالحكومات، وأدى هذا إلى كوارث، وإلى محن أصابت أكثر شباب المسلمين في هذا البلد.

وقد كانت نظرة الأستاذ محمود صائبة ولا شك؛ لأن من عباءة الإخوان خرج هؤلاء الشباب المتطرفون أمثال شباب التكفير والهجرة وغيرهم، وأدى ذلك إلى انحراف الكثير من الشبان في فهمهم للإسلام، لكن أظن أن التيار الواعي والشباب

الفاهـم قـد كثر بحمـد الله، والاتجاه إلى الاهتـمام بالعلـم وبالفهـم الإسـلامي الصحيـح زاد مـع مـرور الأيـام، ولا شـك أن هـذا مـن حسـنات الأسـتاذ محمـود التـي قـد يجهلهـا كثـير مـن النـاس وهـي محسـوبة لـه عنـد الله - إن شـاء الله -.

هـذه كلمـة مختـصرة وأنـا كـما قلـت لسـت ممـن يحسـن الـكلام، ولا ممـن يحسـن الكلـمات المرتجلـة لكـن الـذي أسـأل الله تعـالى أن يمـد في عمـر أسـتاذي وأن يمتعـه بالصحـة والعافيـة، وأن يجعـل في عقبـه فهـر وزلفـى الخـير والبركـة إن شـاء الله.

هـذه لفتـة قصـيرة أو نظـرة سريعـة لجانـب قـد يخفـى عـلى كثـير مـن النـاس مـن جوانب أسـتاذي وشـيخي وصديقـي الأسـتاذ محمـود محمد شـاكر.[1]

والسـلام عليكـم.

٥/ كلمة الأستاذ الكبير د محمود الربيعي:

الأسـتاذ الكبـير أبـو فهـر يُخْجِـل كل مـن يريـد أن يتحـدث في حضرتـه لأنـه رجـل بطبعـه عـالم، ومـن صفـة العـالم الحيـاء، وقـد اعـترف هـو نفسـه بهـذه الفضيلـة الكريمـة فضيلـة الحيـاء في مناسـبة سـابقة، لـذا فأنـا أحـس أنـه مـن الصعـب جـدًا عـلى مثـلي أن يتحـدث عـن مناقـب أبي فهـر، خاصـة بعـد أن أسـتمتعنا بمائدتـه العامـرة ولا نريـد أن نقـع تحـت طائلـة الكلمـة - العبـارة المعهـودة مـن إطعـام الفـم واسـتحياء العـين -!

لكـن نحـن نـأتي دائـمًا إلى بيـت أبي فهـر بحـب حقيقـي ونهفـو إلى دوحتـه مسـتمتعين ونقيـد أنفسـنا في هـواه بحكـم وشـيجة العلـم القديمـة.

وأنـا أتذكـر الصبـاح الجميـل سـنة (٥٩)، يـوم أن طرقـت البـاب عـلى أبي فهـر بموعـد ضربـه لي الصديـق العزيـز المرحـوم الأسـتاذ فـؤاد سـيد، فاسـتقبلني أبـو فهـر كـما لـو كان يعرفنـي مـن سـنين، وهـذا شـجعني عـلى أن ألـوذ بـه، وأن أسـتفيد مـن علمـه الغزيـر.

ولا أنسـى أبـدًا أنـه اسـتبقاني في ذلـك الوقـت وكنـت ضيفًـا عابـرًا عـلى طعـام الويكـه الجميـل، وكنـت بصعيديتـي بالطبـع أقدر معنى أن يسـتبقيني أسـتاذ كبـير كأبي فهر وأنـا أطرق بابـه للمـرة الأولى وعـلى طعـام صعيـدي أنـا أقـدره حـق قـدره هـو الويكـه.

(١) كانتا كلمتين جعلتهما في سياق واحد لتكمل بهما الفائدة.

فكانت أفضاله على مضاعفة ولعله لا يتذكر تلك الأمسية التي اجتمع فيها مازن مبارك وراتب النفاخ وقرأ لهما الأستاذ وعلى مسمع مني من مخطوطة لديوان جرير وكنت مبهورًا إلى أقصى حد، وإن لم أكشف للأستاذ حتى هذه اللحظة عن تلك الذكريات العزيزة..

ومن يومها أدركت أن دوحة أبي فهر دوحة يتعلق بها الإنسان طواعيةً واختيارً، ولا يستطيع الترك مهما لقى من عنت أبي فهر الذى يحب أن يلحق به تلاميذه أحيانًا ولكنه يعلم أننا نحبه وأننا متعلقون به وأنه لا خيار لنا في حبه، نحن نحبه كأستاذ عالم متجرد يعيش في عصرٍ انهارت فيه الأركان من أكثر من جانب وأصبحنا نحس أن أولي الفضل في أوطانهم هو الباقي، لا يمكن أن يكفي الحديث في أفضال أبي فهر على أصدقائه وتلاميذه والناس الذين وفدوا إلى داره في أول الشباب وهؤلاء وأنا أتطلع حولي إلى مجموعة منهم وقد اكتهلوا، تلك هي عبقرية المكان بتعبير الدكتور جمال حمدان الذي نلتقي فيه مع أبي فهر.

لا نريد أن نقول له زَورة بزَورة ولا إحسانًا بإحسان وإنما هو الحب الذي يجمعنا والذي نجني نحن ثماره في صمت ونخجل أن تتاح حتى لنا الفرصة في التعبير عنه.

مد الله في عمرك، وكل عام وأنت بخير بمحبة تلاميذك وأسرتك من حضر منهم كما قال الأستاذ أحمد إمام.

شكـرًا جزيـلاً.

٦/ كلمة القاضي اليمني العلامة إسماعيل الأكوع:

ليسمح لي الأستاذ والزملاء جميعًا أنني غير قادر على التعبير عما يجيش في خاطري من كلام، أتمنى لو تسعفني الذاكرة، وليسعفني القول أن أقول ما في نفسي ولكن حسب المقل أن يقول:

أمد الله في عمر أستاذنا الكريم وأحياه وعمَّم خيره على المسلمين جميعًا ونفعنا بعلومه وهدانا إلى الخير وإلى صراط مستقيم.

١٧/ كلمة الأستاذ حمدي إمام
من تلامذة العقاد، رحمهما الله

كل عام وأنتم بخير يا سيدي، ولا ننسى أن نرجو لك عمرًا مديدًا مرة أخرى، ولا ننسى أن نقول إنك فعلًا -كما قال شوقي هيكل وكما قالت الأخت عايدة- أعطيت الأمل لكثير من الأصدقاء والناس، فقد عرفك كثير من الشباب ومنهم أنا، في فترة قد خيم اليأس فيها على كل شيء، بعد أن فقدنا كل شيء، وجئنا إليك ووجدنا منك الجد والاهتمام، ووجدنا منك إعطاء الأمل وعدم اليأس فأعدنا ثقتنا بالحياة مرة أخرى. ولذلك نرجو الله أن يديمك سيدًا، وأستاذًا عظيمًا وأن تعلم وتعلم، كما علمت من قبل وأن تكون آراؤك إن شاء الله نافعة يثيبك الله عليها، فأنت لم تنتظر من أحد جزاء ولا شكورًا، إنما كنت تفعل هذا لوجه الله، فجزاك الله خيرًا.

أنا عندما أتكلم إنما أذكر حقائق لأبين فضله، وهذا الفضل إنما يدل على علمك وكرمك وشهرتك، فلم تكن منكور الفضل في يوم من الأيام، ولم تكن مجهول العلم والأثر في يوم من الأيام، حتى لمن لم يعرفوك، فلست أنسى في مجالسنا مع أستاذنا العقاد عليه رحمة الله أنه كان دائمًا يأتي ذكر اسمك.

ولست أنسى ذلك اليوم الذي رأيتك فيه أول مرة باسمك وأنت تقدم كتاب طبقات فحول الشعراء، ثم دار الحديث بعد الظهر عنك، وكان من حظي أني عثرت على نسخة من المتنبي وكنت قد قرأتها بل جننت بها!

وحدثت صديقي أحمد الشريف[1] فكاد يجن هو أيضًا، وطالبني بنسخة أخرى، فسعيت حتى أتيته بها، فلذلك كان حديثنا في ذلك اليوم عن علمك وكتبك وتحقيقك، فإذا بالأستاذ العقاد يتكلم عن ذلك الكتاب ويثني عليه، ويقول تلك الكلمة: «هذا أحسن كتاب عن المتنبي؛ لأنه من محمود شاكر، ولأنه أديب فنان شاعر».

هذه الكلمة أذكرها بحذافيرها، وأستشهد بأحمد الشريف في هذا، وأشهد الله على صدق حديثي.

(١) ابن خال الأستاذ العقاد رحمه الله.

ثـم جـاء ذكـر المحققـين وكنـت قـد عملـت مـع أحـد المحققـين في تحقيـق أحـد الدواويـن حينـما تخرجـت في دار العلـوم وعرفـت السـير في التحقيـق، وكان الأسـتاذ العقـاد يعـرف ذلـك وكنـا نتكلـم في هـذه المسـألة فـإذا بـه يضعـك على رأس المحققـين ويقـول هـذا الـكلام:

«إنـه لا ينظـر في النـص القديـم نظـرةً ميتـة، ولكنـه ينظـر إلى ذلـك النـص نظـرة حيـة مـن عقـل حـي ونفـس حيـة». هـذا نـص كلام الأسـتاذ العقـاد أيضًـا.

ثـم رتـب المحققـين ولا داعـي لذكـر الأسـماء، ولكنـي أقـول الحقيقـة إنـه وضعـك على رأس هـؤلاء المحققـين.

ثـم لا أنسـى لـك موقفًـا عظيـما وهـو أنني كنـت بالأسـكندرية منـذ سـنة (٦١ إلى ٦٥) ثـم عـدت إلى إخـوتي في العقـاد، فـإذا بي أجـد منـك كلمـة عظيمـة في الرسـالة... وكنـت تريـد أن تدقـق في النصـوص اليونانيـة لكـي تَكْبِـت لويـس عـوض وسفسـطته التـي كان يتكلـم فيهـا بـدون علـم، ثـم أثبـتَّ لـه أنـه لا يعـرف كيـف يقـرأ ولا يعـرف كيـف يترجـم، ثـم قلـت لهـم: فليـأتِ أبنـاء العقـاد إليَّ فأنـا والعقـاد واحـد، وبيتـي هـو بيـت العقـاد، وجئنـا فعـلًا إليـك بنـاءً عـلى هـذه الكلمـة ولسـت أعـرف هـل تذكـر ذلـك أم لا؟

وجئنـاك منـذ أواخـر (٦٤) إلى أن جـاء أغسـطس بالتحديـد (٦٥)، ثـم جئـت إلى ذلـك الشـارع فعرفـت مـا عرفـت وعـدت حزينًـا.

ولكنـي كنـت أذهـب إلى نـدوة نقيمهـا مـع الإخـوة، وهـا هـو واحـد منهـم الأسـتاذ محمـد زوام كان يشـتغل في الجغرافيـا والتاريـخ ولا صلـة لـه بـالأدب الإسـلامي ولا التاريـخ ولا الحضـارة الإسـلامية.

ثـم كانـت مجالسـنا دائـمًا عنـك وعـن مقالاتـك في الرسـالة، وكان هـذا الحديـث مـع كثـير مـن الصحفيـين والأدبـاء مـن مختلـف الاتجاهـات مـن شـيوعيين وليبيـين ومـن جنسـيات مختلفـة ومـن إخـوان مسـلمين، وكان النقـاش يـدور ليليًّـا وفي كل يـوم تقريبًـا عـلى هـذه المقـالات وكنـا نحـرص عـلى أن نشـتري أعـداد الرسـالة مـن الكُتْبِيَّة ونجمعهـا؛ لكـى نقرأهـا، تلـك التـي لم تنـشر في الكتـاب لأنـه صـودر الجـزء الثـاني وكان قـد أذيـع ونـشر الجـزء الأول.

ولكنـا سـعينا ومعـي أخـي عامـر رحمـه الله إلى أن اسـتطعنا أن نحصـل عـلى الجـزء الثـاني وهـو مَـلازم بعـد أن صـودرت المكتبـة وحُجـز عـلى هـذه الكتـب وكنـا نشـتري النسـخة بضعـف ثمنهـا ونوزعهـا عـلى زملائنـا وكنـا نقـرأ هـذا جميعًـا.

ومـن هـذا العلـم الغزيـر ومـن معرفتـك والتعريـف بـك في تلـك النـدوات كان هـذا الأسـتاذ محمـد زوام، الـذي أراد أن يدخـل إلى ميـدان الإسـلام ويتحمـس لـه، فكانـت رسـالته عـن محمـد بـن الحسـن الـوزان، والتـي أخـذ بهـا درجـة الماجسـتير ومـا زال يسـير في الدكتـوراه.. هـذا أثـر منـك وإن كنـت لا تعلـم، وهـا هـو يسـعى إلى بيتـك وأصبـح مـن أبنائـك وتلاميـذك، هـذا يـدل عـلى أنـك رجـل مشـهور غـير منكـور الفضـل.

ثـم إننـا لا ننسـى ونحـن صغـارًا وقـد كنـا قـد عبرنـا الثانيـة عشرة نقـرأ الرسـالة ونقـرأ الكتـاب فنـرى صورتـك في الرسـالة ونـرى صورتـك في الكتـاب.

ولا أنسـى ذلـك المقـال الـذى كان في أكتوبـر سـنة (١٩٤٧) وعنوانـه «أوطـان»في العـدد التـذكاري لشـوقي وحافـظ في مجلـة الكتـاب ولا أنسـى أني انصرفـت عـن عنـوان المقـال إلى صورتـك فيهـا ونظـرت إلى عينيـك فيهـما نظـرات بريئـة، وأحسسـت مـن هـذه النظـرات البريئـة بحسـن النيـة، ثـم أحسسـت بصـدق العمـل وكنـت أجلـك وأنـا صغـير، ثـم كـبرت وأخـذت أقـرأ لـك، وأخذنـا نقـرأ لـك، ونُجِلُّـك ونعرفـك حتـى اتصلنـا بـك.

ثـم لا أنسـى موقفًـا آخـر وهـو يـوم أن سـعى إلى هنـا صديـق وهـو كبـير وهـو المرحـوم الأسـتاذ عبـد القـدوس الأنصـاري صاحـب جريـدة المنهـل، وهـو يؤلـف كتابـه عـن ابـن جبـير، فقـد طلـب أن نسـعى إليـك؛ لنسـألك عـن بعـض المسـائل، فلـما جـاء ودخـل الشـقة، صمـت ونظـر حواليـه ثـم قـال: «إنـني أعلـم أن النـاس تكـون عندهـم مكتبـة في بيـت، أمـا هـذا فهـو بيـت في مكتبـة» !

ثـم سـألك فـإذا بتواضعـك وعلمـك، ثـم إذا بـك تُـصِرُّ عـلى أن توصلـه إلى خـارج بـاب البيـت في الشـارع إلى أن ركـب سـيارته، فعلمـت منـك كيـف يكـون التواضـع، وعلمـت منـك كيـف تفعـل مـع هـؤلاء النـاس.

إن الوقـت الـذي أضعتـه أنـت في خدمـة العلـم والعلـماء ليـس ضائعًـا؛ لأنـه لـو أنـك أنـاني تسـعى لنفسـك ولمصلحتـك لأخرجـت الآن مئـات الكتـب، ولكنـك قـد تجلـس السـاعات الطـوال، تقـرأ كتابًـا ألفـه أحـد النـاس، أو حققـه؛ لتخـرج لـه مـا فيـه مـن خطـأ،

ثـم تكتبهـا في رسـالة طويلة قـد تبلـغ صفحـات، وترسـلها لـه، غـير دالٍّ عليـه وغـير مـدل على أحـد، وغـير معـرف لغـيره مـن النـاس، وقـد يذكـرك وقـد لا يذكـرك، ولكنـك تـترك هـذا عنـد الله.

ثـم إذا بـك تحتضـن النـاس جميعًـا، نـرى في مجلسـك رجـلًا متحمسًـا للإسـلام، ونـرى في مجلسـك رجـلًا آخـر، ونـرى في مجلسـك رجـلًا شـيوعيًّا، وإذا بـك تصـادق الجميـع، هـذا يـدل عـلى سـماحة نفـس وعـلى محبـة للبـشر جميعًـا وعـلى عـدم عصبيـة.

وإذا بـك تجـر هـؤلاء النـاس إليـك وإذا بـك تؤثـر فيهـم وتحببهـم في الإسـلام فيتجهـون وقـد عرفنـا مـن هـؤلاء ناسًـا، وناسًـا كثيريـن، ثـم تُعلِّـم النـاس كيـف يتجهـون إلى اللغـة، ثـم كيـف يدققـون فيهـا، ثـم كيـف يقـرؤون الكتـاب، ثـم كيـف يبحثـون النـص، ثـم كيـف يكونـون صادقـين مـع أنفسـهم معبريـن، وقـد تغضـب ولكنـك تـرضى، وقـد تـذم ولكنـك لا تسـتمر في الـذم، ثـم تسـترضي مـن تذمـه في مجلسـك وقـد تسـعى إليـه طالبًـا منـه الصفـح والمغفـرة ولا أنسـى مقالـك الـذي كتبتـه مـرة لمجلـة الرسـالة بعنـوان «أعتـذر إليـك» وأنـت تقـول: إنـني أخطـأت في كـذا، وهـذا هـو الفضـل.

وإنـه لا يعـرف الفضـل لأهلـه إلا أهـل الفضـل، وأنـت رجـل فاضـل وقـد أنتجـت جيـلًا فاضـلًا ولـك أثـر عظيـم، ولذلـك نرجـو الله أن يمـد في عمـرك ونرجـو أن تدعـو لنـا وأن تهدينـا إلى سـواء السـبيل كـما هدانـا الله وأن يبـارك الله في عمـرك ولـك منـا الشـكر والتحيـة.

٨/ كلمة الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله في لقـاء إذاعي معـه:

شـواء الترجمـة!

الأسـتاذ شـاكر حـاضر دائـمًا بفضلـه وبأثـره وبعلمـه وبمنهجـه، والأسـتاذ شـاكر كان يمثل في حياتنـا وحيـاة جيلنـا جامعـة حقيقيـة كانـت تعلـم وتـدرس وتمنـح وتعطـي بـدون مقابـل وهـذا أعظـم مـا في الأسـتاذ محمـود، أنـه بعلمـه أكـرم مَـن عـاشرت مـن الأسـاتذة حقيقـة.

كنا آنـذاك شـبابًا عُيِّنـا معيديـن في الجامعـة، منـا مـن يحـضرون للماجسـتير ومنـا مـن يحـضرون الدكتـوراه، وكان الأسـتاذ محمـود شـاكر يعقـد في داره في مـصر الجديـدة (٣) شـارع الشـيخ حسـين المرصفي نـدوة أسـبوعية، وأحيانًـا كان يعقدهـا الثلاثـاء والسـبت يعنـي مرتـين في الأسـبوع.

يقـول الأسـتـاذ محمـود شـاكر[1]:

«إن الشـعر كان بالنسـبة للعـرب عمـلًا عامًـا، يمارسـه كل عـربي، بعكـس اليونـان، الذيـن يعـد شـعراؤهم عـلى الأصابـع»، فهـل يمكـن أن يكـون ذلـك سـببًا مـن الأسـباب التـي حالـت دون ظهـور الملحمـة في شـعر العـرب؟

الأسـتاذ محمـود شـاكر كان يـرى أن الشـعر العـربي بعامـة يمكـن أن توحَّـد بـين أجزائـه وقطعـه المتناثـرة وحـدة موضوعيـة لأن هـذا الشـعر كان يـدور حـول الحيـاة العربيـة وعناصرهـا التي يتعلـق بهـا الشـاعر أو يقـول حولهـا الشـعر، ومـن شـاعر إلى شـاعر يمكن أن نتبـين وحـدة عضويـة بـين كل قصائـد الشـعراء العـرب في الجاهليـة ويمكـن أن تبنـى مـن هـذا الشـعر كلـه ملحمـة أطـول مـن الإليـاذة، لكـن أحـدًا لم يقـم بمثـل هـذا العمـل؛ لأن المسـألة تحتـاج إلى منهـج كان الأسـتاذ محمـود يدرسـه لنـا فعـلًا..

وكنـتُ أتمنـى أن يطـول بنـا اللقـاءات التـي كنـا نحضرهـا في بيـت الأسـتاذ حتـى نسـتطيع أن نحقـق مـن خـلال رؤيتـه في دراسـة الشـعر وفي تحقيـق مصـادر الشـعر وفي ترتيـب عنـاصر الشـعر التـي جـاءت بهـا الروايـات أحيانًـا مضطربـة و«ملخبطـة» إلـخ؛ يمكـن أن نخـرج بشـكل ملحمـي يرتـب القصائـد وبحسـب موضوعاتهـا مـن ناحيـة وبحسـب تواريخهـا التـي قيلـت فيهـا بقـدر الإمـكان، وإن كان ذلـك أمـرًا دونـه أهـوال مـن البحـث والـدرس ومـن المعانـاة، وهـو أمـر لا أظـن أن أحـدًا يسـتطيع أن يتفـرغ لـه ليخرج في النهاية بكتـابٍ يحمـل مجموعـة أشـعار تتسلسـل في أحداثهـا وتتابـع في تواريخها الزمنيـة ثـم تقـدم لنـا صـورة ملحميـة عـن الحيـاة الجاهليـة بقلـم أو بشـعر أبطـال الشـعر في ذلـك العـصر الجاهـلي.

(١) يعني في مجلس من المجالس التي قيدها الدكتور عبد الصبور، وليس في كتاب.

لكن منهج الأستاذ كان منهجًا أكاديميًا رائعًا، لماذا لم يحاول الأستاذ محمود أن ينشر هذا المنهج؟

أيام الأستاذ محمود أذكر عندما كان يقيم هذه الندوة في بيته كان الأستاذ العقاد في نفس الوقت يقيم ندوة في بيته صباح الجمعة، ولكن ندوة العقاد كانت تختلف شكلًا ومضمونًا عن ندوة الأستاذ محمود، لماذا؟ الأستاذ العقاد كان يستقبل الناس صباح الجمعة حتى قبيل صلاة الجمعة ينصرف الناس، مجموعة الذين يفدون إلى ندوة الأستاذ العقاد كان منهم الحواريون والمريدون والمحبون الذين يستمتعون بحديث الأستاذ وكانت الندوة تتسع للنكتة وللتعليق الساخر وللكلمات اللطيفة لا أكثر.

أذكر في إحدى الندوات أني أهديت للأستاذ العقاد كتابي عن الأستاذ مالك بن نبي، ترجمته للأستاذ مالك بن نبي بعنوان «الظاهرة القرآنية» والكتاب بتقديم الأستاذ محمود شاكر، وقد ظفر من الأستاذ محمود شاكر بمقدمة عن إعجاز القرآن من أروع المقدمات والدراسات التي كتبت في هذا المجال، وكان في هذه الندوة موضوع الحديث التعليق على الأصل الفرنسي للكتاب والترجمة العربية وكيف تفوقت على الأصل الفرنسي؛ لأن الأصل الفرنسي فيه كثير من تجاوزات في روايات النصوص عن المستشرقين والأستاذ مالك باعتباره كان مهندسًا كهربائيًا اشتغل بالفلسفة والفكر وبقضايا الوطن العربي لم يكن لديه من الإمكانات ما يحقق به حديثًا أو نصًا منقولًا عن راوٍ إلخ، فكان يأخذ من المستشرقين أقاويلهم ورواياتهم ونصوصهم دون تمحيص ودون تحقيق ويبني عليها نتائج معينة قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة، لكن الطبعة العربية التي أعتز بأنها صدرت بإشراف وتدقيق الأستاذ محمود شاكر، يعني لم يفعلها مع أحد في تاريخ حياته؛ لأن ترجمة الكتاب.. وأنا ذهبت للأستاذ محمود فشواني شيًّا على السَّفُّود -كما يقولون- من أجل تجاوزاتي التي ظهرت في الترجمة نتيجة الحَرْفية، ومن أجل خوفي من أن أخالف المؤلف في رواية النصوص فكنتُ أرويها كما هي على مسئولية المؤلف.

فعلمني الأستاذ محمود في هذا اللقاء الذي دام ثماني ساعات: أنَّ عليَّ كمترجم أن أنقل النص باللغة العربية التي تليق، لا باللغة العربية التي تحاكي الأصل الفرنسي، فهذا نوع أو نمط من الحرفية يضر أكثر مما ينفع، واحد.

الأمر الثاني: أننا لا تتعبدنا النصوص التي يرويها المستشرقون ومن لف لفهم، وإنما ينبغي أن نتتبع هذه النصوص في مظانها وأن نحققها وأن نأتي منها بالصحيح وأما الخبيث فننفيه أو نعلق عليه لنلغي قيمته. هذه مسألة مسلمة.

فعدت إلى بيتي وحملت في تلك الليلة صحائفي تحت إبطي وكأنما أحمل خيبتي تحت ذراعي، وأنا أبكي في الطريق من مصر الجديدة إلى الإمام الشافعي، وسرت في تلك الليلة وحدي لا أدرى بالطريق من الدوامة التي لفتني طيلة الثماني ساعات من الظهر إلى بعد العشاء.

شواني - وأقول شواني - شيًّا ما زالت آثاره في جسدي حتى الآن.

ثم عدتُ إليه بكتاب آخر، هو الظاهرة القرآنية المكتوبة طبقًا لمنهج الأستاذ محمود، فشرفها بأن كتب لها المقدمة.

الأستاذ العقاد عندما قرأ الكتاب بُهر. أولًا بمقدمة الأستاذ محمود، وكان يحترم الأستاذ محمود جدًا، وكان يعتده من أبناء جيله، مع أنه من أبناء الجيل التالي للأستاذ العقاد، والأستاذ محمود فحل من فحول العربية.

ترجمة استطاعت أن تقف على رجليها وأن تستحق هذا التكريم، الأستاذ محمود ضنين كثيرًا بما يعطي لتلاميذه في المقدمات أو في الدراسات، هذا هو الفرق بين تلمذتي للأستاذ محمود شاكر وما لاحظته من ريادة ندوة الأستاذ العقاد، فلائل هم الذين أفادوا كالأستاذ أنيس منصور وكالأستاذ عبد الحي دياب، الذين كتبوا دراسات من وحي ندوة العقاد، لكن ليست معلومات ولا عطاءً من الأستاذ العقاد... وأنا أتحدث عن عطاء الأستاذ محمود أيضًا في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية.

هذا هو فرق ما بين الرجلين، وهما قد تعايشا في جيل واحد.

٩/ قصيدة الشاعر الأستاذ عبد الرحمن شاكر في أبي فهر رحمه الله

إلى أبي فهر من ابن أخيـه:

شامخات البحور في كوكب الشعر تنادت فأسمعته القصيدا

سابحات الأفلاك في لجج الدُّر تهادت إليه سحرًا نضيدا

طرب المُلْك حين جاز بناديه فغنى مَعَاطِفًا وبُرودا

لم يكن مَن أجيز إلّا أبو فهرٍ وحسبٌ بمن أُجِيزَ نشيدا

ما صنيع الملوك حين أجازوه وحازوا بها حَبَوْا تمجيدا

غير أنداء زهرةٍ ساقها الطل إلى روضة تَزِين الورودا

قلّدته السَّماء من قبلُ نَدَاها فكان علمًا فريدا

شَرُفَ الملك إذ تقبَّل منه وهو من قبله أفاد المزيدا

سائِلوا عنه كل ماضٍ جلاه بيديه فعاد فجرًا جديدا

من أبي الطيب المُنيف بيانًا كيف أحياه للخلود خلودا؟!

كيف عاد الشَّماخ من عَنَتِ البيداء طَيْرًا مُحَلِّقًا غِرِّيدا

كيف أصغى أبو العلاء بِرَهْنَيْه لمن دونه يفل القيودا

من إلى الضاد ينتمي وهو منها، غيرُ ساعٍ إليه ركنًا عتيدا

جَبَهَ المفسدين في لغة الضاد وحيدًا فكان حدًّا حديدا

كلنا، كلهم ندين له بالفضل لو ظلَّت الحروف شهودا

الباب الثالث

آنية البوح

أحاديث شيخنا ولقاءاته
مع الصحف والإذاعات،
وكلماته فى المحافل

(١) لقاء إذاعة الكويت

لقاء شيخ العربية العلامة
محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى بإذاعة الكويت[١]

لقاؤنا اليوم أيها السادة مع أديب عربي كبير، عرفتموه من خلال أبحاثه ومقالاته ومعاركه العديدة دفاعًا عن قيم الفكر الإسلامي والتراث العربي، ورغم أسلوبه الأدبي المتميز في كتابة المقال فقد وجه معظم جهوده لتحقيق كتب التراث ونشرها نشرًا علميًّا دقيقًا حتى أصبح من أئمة المحققين وأشهرهم في العالم العربي كله.

سيداتي وسادتي، لقائكم مع الأستاذ محمود محمد شاكر.

المحاور: أهلًا وسهلًا أستاذنا، أُرحب بك أمام ميكرفون الإذاعة الكويتية باسم مستمعي إذاعة الكويت.

- مرحبا بك وبالإذاعة الكويتية.

المحاور: أستاذ محمود، يسرني أن أنقُل عن طريق ميكرفون إذاعة الكويت صوتك وآراءك إلى آذان تلاميذك ومحبيك الكثيرين في الكويت، والمعروف أنك تنتمي إلى أسرة عريقة في علوم الإسلام؛ فوالدك المرحوم محمد شاكر كان قاضي القضاة بالسودان ووكيلًا للأزهر، وشقيقك المرحوم الأستاذ أحمد شاكر كان من كبار الثقات في علوم الحديث والسنّة، فهلا تكرمت وحدثتنا عن أصول الاتجاه، أو كيف اتجهت الأسرة هذا الاتجاه، وعن تأثير هذا الاتجاه فيك أنت؟

- كانت أسرتنا في جرجا أسرةً من التجار، ثم نشأ والدي في جرجا وحفظ القرآن وتعلم علوم الدين والعربية في معهد جرجا، ثم انتقل إلى القاهرة وبقي فيها إلى أن صار كاتبًا للشيخ المهدي المفتي، ثم تحول بعد ذلك إلى القضاء، ثم سافر إلى السودان فكان قاضي قضاة السودان، بدأ العصر العلمي في أسرتنا بأبي فيما نعلم، أما ما قبل ذلك فعلمنا به قليل.

(١) عندي أن هذا أهم حديث أجراه شيخنا، وقد وضعته كما هو.

المحاور: بالنسبة لشقيقك المرحوم أيضًا كان له أبحاث في السنة والحديث.

- أما أخي فقد نشأ في السودان في مدرسة غردون فيما أظن، فلما عاد والدي إلى مصر وصار شيخا لمعهد الإسكندرية أدخله المعهد ونقله من المدارس، وهو أخي الأكبر الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله.

المحاور: من خلال هذا الجو الديني الآن نريد أن نصل إلى شخصيتك، وكيف تأثرت بهذه الأجواء؟ وبعد هذا التأثير كيف اتجهت الاتجاهات الأدبية ذات الخط الإسلامي الملتزم؟

-أما أنا فكانت حياتي مختلفة كل الاختلاف؛ فإني دخلت في السابعة من عمري إلى مدرسة والدة أم عباس بالصليبية، وذلك في حوالي سنة (١٩١٦)، وتعلمت كما يتعلم سائر المصريين، وكان النظام الذي تسير عليه المدارس المصرية هو النظام المعروف بنظام «دنلوب»، وإن كنت أعتقد أن أحدًا ممن يستخدمون هذا اللفظ لا يعلم على التحقيق ما معنى نظام دنلوب، وهو المستشار الإنجليزي الذي كان يتولى أمر وزارة المعارف -كما كانت تسمى- وأول أثر شهدته لهذه المدارس أني وأنا صغير بالمدارس الابتدائية مع نشأتي في بيت من بيوت العلم والشعر والفصاحة والديانة: فإني كرهت العربية كرهًا شديدًا.

المحاور: نتيجة للدراسة؟

- ككل شاب مصري إلى هذا اليوم. وصار أمر العربية مُحْتَقَرًا وصار مدرسوها أشد احتقارًا كالعهد بهم إلى هذا الوقت، فلما جاءت ثورة سنة (١٩١٩) نُقلت من مدرسة أم عباس إلى المدرسة القريبة لقربها من بيتنا، وفي ذلك الوقت صار بيتنا مجمعًا لجماعات كبيرة من الوزراء والعقلاء والحكماء والعلماء والشبان من كل المدارس المصرية، وصار يتردد عليه طوائف مختلفة من جميع أصناف الناس، وكانت أيامًا عجيبة.

المحاور: هل ممكن تذكر لنا شخصيات برزت في مجال الأدب أو الفكر كانوا يترددون على بيتكم؟

- من الممكن أن أذكر من هؤلاء الرجال طائفة كبيرة ممن قضى وممن بقي، فكان يتردد على هذا البيت رجال كالرافعي والمازني، ورجال من الكتّاب الكبار في الصحافة في ذلك الوقت، كبعض رجال الأهرام وبعض رجال المقطم، وهما

الصحيفتان المشهورتان في ذلك الوقت، وكثير من كتاب هذه الصحف، ولكن لم يكن لهؤلاء عندي تأثير، إنما التأثير جاء من طريقٍ آخرَ وهو أني كنت صغيرًا وكانت عهود الثورة عهودا كعهد ثورة سنة (١٩١٩) عهدًا غريبًا علينا، وكنت صغيرا، وفي هذا الموج المتلاطم من الرجال نشأتُ لي حرية لم ينلها كثير من إخوتي، فكنت أذهب وأستمع الخطب وأنا صغير في السنة الثالثة والرابعة، أستمع للخطب في الجامع الأزهر، وهذا تاريخ طويل لا يمكن أن أصفه لك في دقائق، ثم عرفت فئة من الصغار أكبر مني سنًّا بطبيعة الحال، صغار السن في السادسة عشرة والسابعة عشرة من طلبة الأزهر ومن كلية الحقوق ومن سائر المدارس العليا، من الذين كانوا يترددون على بيتنا، ومن الذين كانوا يتولون أمر الخطابة في الجامع الأزهر في أيام الثورة، وفي ذلك الوقت كان كثير من هؤلاء الشبان يحفظون الشعر ويتناشدونه، وكنت لا أبالي في أول الأمر أنني أسمع؛ لكراهتي كما قلت لك للغة العربية، ولكن في يوم من الأيام كنت في مجلس في غرفة في رواق السنارية - وهم السودانيون - في غرفة الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن الذي صار فيما بعد وكيلًا للجامع الأزهر، مع إخوتي وأنا صغير، وكنت أسمعهم يتطارحون الشعر ويقرؤون في ديوان شاعر يقال له: المتنبي، كان لي قريب عنده نسخة من ديوان المتنبي طبعة الشيخ اليازجي بشرحه، وهي نسخة أنيقة وجميلة، ولكنه كان يحب كثيرًا من اللهو، فطلب مني أن أسأل له عمته التي هي أمي أن تعطيه شيئا من المال، فبادرته شيئًا بشيء قلت له: آتيك بهذا وآخذ هذا الديوان، فقال: خذه، فأخذت هذا الديوان وأنا صغير في الرابعة الابتدائية، وكان مضبوطًا مُعجَمًا إعجامًا كاملا، فظللت أدخل به الحمام وأقرأ هذا الشعر، وكنا نحن فعلًا في السنة الثالثة والرابعة نحسن القراءة.

المحاور: يعني هل في تلك السن كان عندك استعداد لاستيعاب المتنبي؟

- حفظته من أول حرف فيه إلى آخره، ولو سألتني الآن عن بيت من المتنبي لما عرفته.

المحاور: هذا التحذير حتى لا أسألك؟ أستاذنا ظاهر أن قصة حياتك مع الأدب طويلة، لكن أنا عندي أسئلة كثيرة.

- المهم أن التأثير الحقيقي لهذا هو رد الفعل الذي انتبهت إليه فيما بعد ما بين الكراهة الشديدة للغة العربية، وكنت في ذلك الوقت أضعف طالب في المدرسة في اللغة العربية وأقوى طالب في سائر العلوم حتى الإنجليزية، ففي تلك السنة

انقلب الأمر فصرت أحب العربية حبًّا شديدًا بقراءة الشعر فقط دون أن أفهم ما هذا الشعر، فقرأت ديوان المتنبي وديوان البارودي وأنا في السنة الرابعة الابتدائية، فهذا كان هو أول التأثير، لم يكن لأسرتي على وجه التحقيق تأثير إلا فيما بعد، يأتي فيما بعد بصلتي بأخي الأكبر بعد سنين طوال بدأت الصلة وبدأ تعرفي على التراث العربي والإسلامي تعرفًا كاملًا.

المحاور: أستاذنا، أنت انقطعت عن الدراسة أو تركت الدراسة في مرحلة متقدمة، ممكن أن نعرف السبب؟

- هذا الذي رويته لك يأتيك بالبيان؛ فإني بعد ذلك.. فأنا درست في المدارس الثانوية، وظللت أتابع حفظ الشعر وقراءة الكتب، وقرأت وأنا في السنة الأولى الثانوية لسان العرب حرفًا حرفًا من أوله إلى آخره وأنا في داخل الدراسة، ثم ظللت أتنقل في الدراسة ومتقدمًا فيها أيضًا، ودخلت القسم العلمي لا القسم الأدبي، كانت المدارس مقسمة إلى قسم علمي وأدبي، فأنا كنت أختار القسم العلمي لأني كنت متميزا في الرياضة، وكنت أحبها حبًا جمًا، ولكني كنت أحب الأدب في ذلك الوقت حبًا جمًا، واتسعت قراءاتي اتساعًا كبيرا ما بين سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٥، فقرأت على كبار الشيوخ في ذلك؛ قرأت على الشيخ سيد بن علي المرصفي أستاذي وأستاذ أستاذنا الدكتور طه حسين، والأستاذ أحمد حسن الزيات، قرأت عليه كتاب «الكامل» وديوان الحماسة لأبي تمام، وقرأت عليه جزءًا من «الأمالي» في ذلك الوقت وأنا في المدارس الثانوية، فلما نلت شهادة البكالوريا -كما كانوا يسمونها، وهي الثانوية العامة الآن- أنشئت الجامعة في ذلك الوقت، فتحيرت بين القسم العلمي، وبدأ في ذلك الوقت تحول كامل في شعوري نحو العلوم الرياضية والمدارس التي تتبعها، يعني مدرسة الطب، مدرسة الهندسة، شعرت أني لا أصلح لها ولا أريدها، فكنت أول من دخل أيضًا كلية الآداب في ذلك الوقت بالشهادة العلمية إلى القسم الأدبي بفضل الدكتور طه حسين أولًا وبعض الأساتذة الكبار أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق؛ لأنهم كانوا يعرفونني ويعرفون أني مشتغل اشتغالًا تامًا بالأدب، فكان علمي بالأدب في ذلك الوقت متقدمًا على علم زملائي، فلما كنت في الجامعة كان الفرق بيني وبين ما يدرس قليل جدا، والفرق بيني وبين زملائي، لا أحب أن أثني على نفسي، ولكنه كما ترى فرق بعيد؛ لأن المدارس لم تكن تعلم شيئًا عما قرأت في ذلك الوقت، فكنت أحس أني فضلة في الجامعة في الحقيقة أولاً.

ثانيًا: أن الدكتور طه حسين عندما بدأ.. كما ذكرت في مقالاتي الأخيرة التي كتبتها في الرسالة في سنة ١٩٦٥.. بدأ الخلاف بيني وبين الدكتور طه في رأيه في الشعر الجاهلي، وأرجو أن تعلم أني أعد الشعر الجاهلي أعظم شعر وصل إلى الدنيا من شعر القدماء، وكنت أجله إجلالًا عظيما، ولا أزال كذلك، ولا أزال أزداد معرفة بجلالة قدره، فكان رأي الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي رأيًا فيما أرى ولا أزال أرى وكنت أرى أنه رأي مبتسر غير ناضج وغير مفهوم، والدكتور طه حسين نفسه ناقض نفسه بنفسه فيما بعد عندما تكلم عن كثير من الشعراء الجاهليين ولكنه لم يقل هذه الحقيقة.

المحاور: هو في الشعر الجاهلي كان له كتاب في هذا الموضوع، ثم أعقب في الشعر الجاهلي في حديث الأربعاء ناقض نفسه.

ناقض نفسه كل المناقضة، ولا يزال يناقضها، فمن أجل ذلك كنت في ذلك الوقت مهتمًا اهتمامًا شديدًا بأمرين عظيمين:

الأول: أني أحسست في ذلك الوقت أني عربيٌّ فقط، لست مصريًا ولا شاميًا ولا عراقيًا ولا مغربيًا ولا تونسيًا ولا مراكشيًا ولا سودانيًا، أنا من كل هذه الأمم، أنا ابن هذه الأمم جميعًا.

والمسألة الأخرى: أني كنت شديد الملازمة لمسائل الخلاف في الديانة وتصحيح العقيدة؛ لأنها عندي أهم من جميع الفروع، فكان من الصدف أني في ذلك الوقت قد اتصلت بالشيخ محمد حامد الفقي رئيس جمعية أنصار السنة وبأخي أيضًا، وكان لهما رأي في الوهابية أو الوهابيين كما يسمونهم، وهم حنابلة على وجه التحقيق، فقرأت عن سيرة محمد بن عبد الوهاب ما قرأت، فلما فتح ابن سعود شمال الجزيرة العربية كنت أظن في ذلك الوقت أنه قد بدأ تحقيقُ شيء عظيم من أحلامي، وهو نهضة العربية نهضة كاملة ونهضة العقيدة الصحيحة المبنية على ترك الوثنيات وما إليها الداخلة علينا على أصحاب هذا الدين، فانبعثت بكل قواي للخروج من مصر مع شعوري مما ذكرته لك أني أصبحت قلقًا في الجامعة لخلافي مع الدكتور طه من ناحية، ولفضل رجل عظيم جدًا علي وهو الأستاذ محب الدين الخطيب، ورجل آخر وهو أحمد تيمور باشا، فقد سددا خطاي فيما كنت قلقا إليه في ذلك الوقت، فاتجهت

اتجاهًا كاملًا إلى أن أعمل عملا – وهذا بالطبع ثورة من ثورات الشباب- أن أعمل عملًا جديدًا فخرجت مهاجرًا لا مسافرًا ولا مرتزقًا؛ لأنك تعلم أن جزيرة العرب في ذلك الوقت لم تكن كما هي اليوم، ولا كما تكون الكويت اليوم، وليست مصدرًا للمال، إنما هي مصدر يمكن للبؤس في ذلك الوقت، وأدلك على ذلك أني بقيت مرة تسعة أشهر لم أقبض مرتبًا حينما أرادوا أن يوظفوني، ووظفت وقبلت الوظيفة، بقيت تسعة أشهر لم أقبض مرتبًا إنما كان يأتيني من أبي ما أستطيع أن أعيش به، ومع ذلك فالناس هناك أكرموني أشد الإكرام، وخاصة السيد محمد نصيف، وهو رجل من عظماء رجال هذه الأمة وعنده مكتبة لا مثيل لها في العالم العربي.

المحاور: إذًا لهذا السبب تركت الدراسة؟

لهذا السبب، لأني اندفعت إلى تحقيق شيئين، وهذا التحقيق كما أقول لك هو لنفسي أن أحقق عروبتي في داخلي وأن أحقق نقاء عقيدتي في داخلي، لست داعية كما ترى لأني لا حزب لي.

المحاور: إلا حزب الله طبعًا.

أنا أقول: لا حزب لي لأن هذا موضع خلاف، ولا أحب الطريقة الصوفية في استخدام الألفاظ أن لا حزب لي، أي لا أتحزب على الطريقة الحديثة.

المحاور: أستاذنا، لك في الكويت والسعودية والسودان وغيرها من أقطار العروبة شهرة كبيرة قد تفوق شهرتك في مصر، فما تفسيرك لهذه الظاهرة؟

قد مضى تفسير هذه الظاهرة، وهي أني كما قلت لك: حققت في نفسي شيئا مهمًا جدًا، وهو أني أشعر أني عربي فقط، لا مصري ولا عراقي ولا شامي، بل كل هؤلاء، بل أنا من كل هؤلاء، أنا بعضهم، فكانت هذه الخصلة ظاهرة فيما أكتب، ثم لما لقيني إخواننا من الكويتيين والعراقيين والشاميين والمغاربة ودخلوا بيتي عرفوني كما أنا، كان كل عربي يدخل بيتي يجد في بيتي عربيًا مثله لا يفارقه في شيء، لا أتعالى على أحد منهم، وأحبهم جميعًا بفضائلهم ورذائلهم كما أحب في نفسي فضائلها ورذائلها كسائر البشر.

المحاور: أستاذنا، تتلمذ عليك الكثيرون من أبناء الوطن العربي، فهلا ذكرت لنا بعض من تعتز بهم من هؤلاء التلاميذ؟

كما أني لا حزب لي فأنا لا تلامذة لي على وجه التحقيق، صغير الناس وكبيرهم عندي سواء، فقيرهم وغنيهم، جاهلهم وعالمهم، وكل من دخل بيتي من أصحابي وأصدقائي وعاشروني لم يرو في أستاذا بالمعنى المفهوم عندكم، وإنما رأوا صديقًا يعطيهم من نفسه ما يريدون، كل ما عندي فهو لإخواني، على هذا الأساس إذا أردت أن تعتبر هؤلاء تلامذة لي اعتبرهم، ولكني لا أريد أن أستخدم هذه الكلمة.

المحاور: تواضعًا يعني.

لا أتواضع، أنا لا أتواضع لأحد، أنا من الكبرياء بالمنزلة التي لا تخطر ببالك، ولكني أقول لك الحق كما ينبغي، كل من دخل بيتي فهو أخي وصديقي أو ولدي، فمن كبار هؤلاء الدكتور ناصر الدين الأسد صاحب «مصادر الشعر الجاهلي»، ومنهم محمد يوسف نجم، وهو فلسطيني - في الجامعة الأمريكية في بيروت - والدكتور إحسان عباس، وكثير من أصحابي من أبناء الجزيرة العربية، وعلى رأسهم بالطبع من المصريين، وأنا كما ترى لم أذكر أحدًا من المصريين، وسأذكر لك رجلًا واحدا، لأن المصريين يعدون أنفسهم أكبر الناس، ويأبى أحدهم أن يعترف بأخيه أو لأستاذه بفضل عليه، فالمصري الذي أذكره لك هو يحيى حقي، فيحيى حقي عرفته في سنة ١٩٤٠ وتعاشرنا ليلًا ونهارًا عشر سنوات، وأخذ مما في نفسي كل ما يريد، لم أضن عليه لا بوقت ولا بمعرفة، وهو لم يضن علي أيضًا بشيء مما عنده، فكلانا اكتسب من أخيه شيئًا استفاد به في حياته، فإن شئت أن تعد هؤلاء تلامذة لي فعدهم، ولكني أعدهم من أصدقائي، وأرى لي أثرًا في حياتهم كما أرى لهم أثرا في حياتي، وسواء كانت الحياة العلمية المجردة أو الحياة الفكرية الأخرى سواء كانت سياسية أو أدبية أو ثقافية أو فنية فلي مع كل منهم حديث إن شاء أن يحدثك عنه حدثك، وإن لم يشأ فهو حر.

المحاور: أستاذنا، هل كان من زوارك من الكويت، أو من العاملين في الحقل الأدبي في الكويت.

- أنا عرفت الكويتيين في سنة ١٩٥٦، ولأول مرة في حياتي أرى شبانًا من الصغار في السن ما بين السابعة عشر والثامنة عشر والتاسعة عشر فيهم من الرجولة ما لا أجده في أقرانهم أو أسنانهم أو لداتهم من المصريين، فجاءني هنا في بيتي في هذا البيت

الـذي أحدثـك منـه يعقـوب غنيـم وجمعـة ياسـين وصالـح العثـمان وعبـد الله العيسـى وآخريـن، فـلأول مـرة في حيـاتي قبلـت أن أدرس لهـم، فقـرأت لهـم كتـاب الأصمعيـات أو قصائـد مـن كتـاب الأصمعيـات.

المحاور: هم كانوا في دار العلوم في ذلك الوقت؟

- أكثرهـم في دار العلـوم أو الأزهـر، وبـدأت عمـلًا جديـداً لم أسـجله بطبيعـة الحـال، وكانـوا هـم يريـدون أن يسـجلوه عـلى أداة كالتـي تسـجل عليهـا، كنـت أقـرأ لهـم هـذه الـدروس، فقـرأت لهـم هـذه القصائـد وحققـت فيهـا نظـرتي للشـعر الجاهـلي، وعملـت فيهـا عمـلًا أثبـت بـه النظريـة الجديـدة التي اعتقدتهـا في هـذا الشـعر، وكان يحضرهـا أكثر مـن ٢٥ أو ٣٠ رجـل منهـم ومـن غيرهـم.

المحاور: هنـا في هـذا البيـت.

- نعـم وظـل هـذا مستمرا في سـنة ١٩٥٦ و١٩٥٧ و١٩٥٨ ثـلاث سـنوات أو أربـع سـنوات، وبالطبـع كانـوا صغـارا، وكان يحـضر في هـذه الـدروس أيضًـا الدكتـور نـاصر الديـن الأسـد وسـواه مـن إخواننـا الكبـار.

المحاور: الدكتور ناصر الدين الأسد من أي قطر؟

مـن الأردن، وهـو كان مديـرا لجامعـة الأردن أخـيرًا، وهـو الآن وكيـل الإدارة الثقافيـة في الجامعـة العربيـة، وهـو مـن أصدقائـي ومـن أفضـل الرجـال الذيـن عرفتهـم.

قـرأت لهـم هـذا الكتـاب عـلى أصـول جديـدة وبطريقـة جديـدة، وانفعـل بـه كثـير منهـم، ولكنـي كـما أقـول لـك أنـا عندمـا أقـرأ لهـؤلاء النـاس أتـرك كل امـرئ ينفعـل بـما أقـرأ بالطريقـة التـي ينفعـل بهـا.

المحاور: هل لا زالت لك صلة مستمرة معهم؟

لا أقـول: صلـة، بـل هـم أصحـاب فضـل كبـير عـلي، جميـع الكويتيـين لهـم فضـل كبـير عـلي في محنـي، أنـا الآن رجـل بعيـد عـن النـاس ولا أسـتطيع أن أفي هـؤلاء حقهـم مـن الفضـل والكـرم ورعايـة بيتـي في غيبتـي ثـلاث سـنوات.

المحاور: والله أنت أيضًا أعطيتهم مما عندك من ذخيرة فكرية استفادوا بها وتستفيد بها الأجيال القادمة.. أستاذنا، يعتبر بحثك عن المتنبي من أهم الدراسات التي كتبت عن هذا الشاعر الكبير، لماذا لم تواصل جهودك في ميدان الدراسات الأدبية؟

– أدع الحديث عن المتنبي وأدع الحديث أيضًا عن المواصلة، ولكنني لا تمدحًا، ولكن هذا شيء يقرره واقع حياتي عندما صدر هذا الكتاب وتناقله الناس، كتبت عنه كلمات كثيرة فيها إعجاب شديد بهذا الكتاب، وكنت في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمري أو السابعة والعشرين من عمري على التحقيق، وجاءني ثناء من الصحف من المهجر الأمريكي ومن الشام ومن العراق ومن كل مكان جاءتني هذه الصحف وفيها كلمات كنت أراها مبالغة شديدة، ولأني أشتغل بالنقد طول حياتي – بنقد الكلمات ومعرفة ما في النفوس – فإني رأيت في هذه المقالات ظاهرة لا تعجبني، وهي أن هؤلاء الناس رأوا شيئًا جديدًا مكتوبًا عن المتنبي كأنه قصة متسلسة متابعة لا نقص فيها لأني استقيتها جميعًا من داخل شعر المتنبي ناقدًا لكل ما روي من الروايات عنه بغير ذكر أيضًا للمصادر، فلما قرأت هذه الكلمات مع غرابة ما أتيت به من الآراء في تاريخ المتنبي سواء كان ذلك في أمر مولده أو في أمر نسبته من أي القبائل هو أو في أمر نبوته أو في أمر ما انطوت عليه جوانحه من حب لامرأة ذكرتها في هذا الكتاب، وهي أخت سيف الدولة، فغرابة هذه الأشياء انفعل بها هؤلاء الكاتبون وكتبوا كلامًا كثيرا، عندما نظرت إليه نظرة تدقيق وجدت أنه كتب كثناء مجرد من كل شعور علمي حقيقي، ففهمت من هذا أن هؤلاء وهم أصحاب فضل علي وهم الذين أعطوني هذه الشهرة لكنني شعرت فعلًا أن هذا النوع من الكلام لا يرضيني، فنفذ هذا الكتاب وقد طبعت منه ثلاثة آلاف نسخة من المقتطف، وثلاثة آلاف أخرى للبيع، فنفذت جميعها في ذلك الوقت، وكان شيئًا عجيبًا في سنة ١٩٣٦ هذا الثناء بغض إلي الكتابة؛ لأني رأيت الناس يثنون بغير حق.

المحاور: المفروض هذا عامل تشجيع للكتابة.

– ربما كان عند سواي، كل الناس يحبون الثناء، وأنا أيضًا أحب الثناء، ولكني أحب الثناء إذا كان في موضعه، والثناء مفهومه خطأ عندنا، الثناء عندنا هو مدح لا أصل له.

المحاور: أنت تقول: أن من المهجر والمشرق العربي والمغرب العربي كتبوا ثناءً على هذا الكتاب، يعني الوضع الطبيعي أن هذا الثناء هو حافز لكي تتقدم أكثر ولكي ترضى عن نفسك.

- نعم، حفزني للتقدم ولكن لم يحفزني إلى احترام ما أنا فيه؛ لأني أعلم عيوب ما كتبت أكثر مما يعلمه هؤلاء.

المحاور: هذه نقطة غامضة.

- كنت أحب، ومع الأسف لم أجد كاتبًا إلى هذا اليوم نقد هذا الكتاب نقدًا صحيحًا أو فهم طريقة نقد ما كتبت كما.

المحاور: كما تفهمه أنت.

كما ينبغي أن ينقد، فنقده الدكتور طه حسين في كتابه «مع المتنبي» نقدًا لا أستطيع أن أعده نقدًا في الحقيقة؛ لأنه لا أصل له، وقد كتبت عن كتاب الدكتور طه حسين في ذلك الوقت لأنه ألّف كتابًا غير ناضج أيضًا، وسلك فيه سبيلًا قلدني فيه، وكتبت في «البلاغ» في ذلك الوقت ثلاث عشرة مقالة عن ثلاث وسبعين صفحة من أول الكتاب محشوة بأشياء كثيرة تدلك دلالة قاطعة على أن الدكتور طه لم يسلك هذا الطريق الجديد على كتبه في كتاب المتنبي إلا بعد أن قرأ كتابي، كتابه صدر في سنة ١٩٣٧ أو في سنة ١٩٣٨، وكتابي صدر في سنة ١٩٣٦، ومن الذين أثنوا علي أيضًا الدكتور طه حسين نفسه، لقيني مشافهة وأخبرني بثنائه الشديد على هذا الكتاب في العيد الألفي للمتنبي في الجمعية الجغرافية، لكن كما تعلم أيضًا كل هذا الثناء لا يؤثر علي، لم يؤثر علي ولا يغير رأيي في شيء، ولا يغير رأيي في الناس، ولم يكتب أحد كلمة أستطيع أن أحترمها سوى رجل واحد كتب نقدا لي من وجهة نظره فيه شيء من النقد الحقيقي، وهو اسمه الأستاذ الوديع بلهوق، نشرها في مجلة «المقتطف»، ولم أحتفظ بشيء مما كتب عني سوى هذه المقالة ومقالة أستاذي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

المحاور: لكن عدم الاستمرار في الأبحاث؟

- لم أستمر لأني في ذلك الوقت كنت صغيرا في السابعة والعشرين، والثناء علي كان كثيرا، والطلب بعد ذلك على طبع الكتاب فاجأني بشيء جديد لم أكن أعهده،

والاحترام الذي لقيته سواء من صاحب «البلاغ» عبد القادر حمزة في ذلك الوقت ومن كثير من الرجال الذين لقيتهم وضعوني في مكان أنا كنت أرى بطبيعتي كما تراها اليوم أني لا أستحق شيئًا من هذا، في ذلك الوقت كنت لا أستحق شيئا مما لقيت، وأقول لك هذا صادقًا، لا يحملني على هذا لا التواضع، ولست متواضعًا كما ترى.

المحاور: لا، أنت رجل كان عندك كبرياء.

- بغير كبرياء، أنا الذي أقوله لك هو يدل كلامي على أني غير متواضع، ولكن أنا أيضًا أطلب حقائق في هذه الدنيا لا أستطيع أن أتخلى عنها أبدًا، وعلى رأسها حقيقة نفسي، أنا قضيت حياتي أعالج نفسي، أعالج أثر «دنلوب» فيّ، أعالج أثر الاستعمار في قلبي، في ضميري، في عقلي، في نفسي، في نظري، في رؤيتي، أعالج أكبر المسائل في داخلي.

المحاور: أستاذنا، المثقفون العرب كلهم أحسوا بنوع من الكساد في السوق الأدبية لما توقفت مجلة «الرسالة» واسعة الانتشار في مجال الأدب، حقيقة هذه المجلة كان يتلقفها كل المهتمين، يمكن تحدثنا عن قصتها على اعتبارك من كبار المساهمين في تحريرها منذ نشأتها حتى توقفت، ثم أعيدت وتوقفت؟

- يحتاج الكلام عن مجلة «الرسالة» إلى حديث خاص، لكن هذه هي مجلة الرسالة بين يدي تراها وراءك، ترى فيها أقلامًا ورجالًا وتسمع فيها مئات الأسماء في ذلك الوقت كتبت في هذه المجلة من الشام والعراق، ثم لا ترى – من العجب يعني في بلادنا – أنك لا ترى أحدًا مذكورا من هؤلاء، مع أن لبعضهم بدءا يعتبر من أجود البدء، ومع ذلك فقد خفيت هذه الأسماء ولم يبق ممن كان يكتب في الرسالة إلا عدد قليل محدود، فالأقلام التي اجتمعت من كل مكان في البلاد العربية بعد الثورات المتتابعة التي كان آخرها ثورة سنة ١٩١٩ الثورات الصحيحة الأصل الصحيحة المنبع، اجتمعت من جميع البلاد العربية الأقلام وكتبت في هذه المجلة، وصار لها بطبيعة تداول هذه الأقلام في هذه المجلة انتشارًا واسعًا في كل بلد عربي، ولصدق كثير ممن كان يكتب فيها كان لها تأثير بالغ على كثير من رواد الأدب المحدثين، ولو أنهم قد انفصلوا عنه انفصالًا كاملًا وظلت هذه المجلة باقية إلى سنة ١٩٥٢ فيما أظن أو أوائل ١٩٥٣.

المحاور: هي بدأت سنة كم؟

- حوالي سنة ١٩٣٥ أو ١٩٣٦، فيما أظن ١٩٣٦، الحقيقة أن الأستاذ رحمه الله أهملها في آخر حياته.

المحاور: الأستاذ الزيات.

- نعم، لأنه شغل عنها بشئونه الخاصة، فكان الأمر في الرسالة موكولًا إلى من لا يصح أن توكل إليه أمور المسألة الفكرية، وهذا خطأ أساسي في تحرير المجلات الأدبية؛ لأن المجلة الأدبية ينبغي أن تقوم على صاحب فكرة، لما كان الزيات صاحب فكرة وصاحب جهود في الاتصال بكل أديب كان للرسالة مكان، عندما انفصل الأستاذ الزيات وترك الأمر لغيره كانت الكارثة، فكان لا بد من موتها، فماتت.

المحاور: ثم أحييت مرة أخرى.

- ثم أحييت بطريقة مصطنعة سنة ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ وطُلب مني أو طَلب مني الأستاذ الزيات عند بدء هذه المجلة الجديدة أن أكتب فيها فرفضت، ولكن السبب الذي دعاني إلى الكتابة فيها مجرد كتابة، لم أكن كما كنت أكتب في الرسالة الأولى، الرسالة الأولى كنت أعد نفسي صاحبها في ذلك الوقت، أما الآن فكنت بوجود الأستاذ الزيات ملحقًا بالماضي، ولكن كتابتي فيها كانت شيئًا منفصلًا عن حقيقة هذه المجلة، كنت لا أرضى عن كثير مما فيها.

المحاور: أستاذنا، يعني بصفة عامة المجلات الأدبية في السوق العربية لا تعمر.

- لعدم تعمير المجلات الأدبية في العالم أسباب كثيرة، لكن في بلادنا لا يصح أن نربط عدم تعمير المجلات الأدبية بالأسباب التي تحدث في البلاد الأخرى.

المحاور: الظروف تختلف.

- مختلفة تمام الاختلاف، فالسبب في عدم بقاء المجلات الأدبية في بلادنا مرده في الحقيقة إلى أن الجيل الذي يصدر عن المدارس المصرية، ويتبعها سائر المدارس في البلاد العربية على اختلاف ما بينها في القوة والضعف، الذين يصدرون عن هذه المدارس لا يزالون يعدون الأدب أو الفكر فضلة ليس أصلا في حياتهم؛ لأنهم لا يبدؤون بدءا صحيحًا، فالطالب المصري والعربي عامة لا يستطيع أن يقرأ إلا في حدود معينة.

المحاور: الخاصة بالدراسة.

- ولا تستطيع مجلة أدبية أن تعيش في مثل الحدود التي يطلبها هذا الطالب المتخرج من المدارس الثانوية والمدارس العالية أيضًا.

المحاور: إذن هل مجلة الرسالة الآن دفنت بغير رجعة، يعني لن تعود مرة أخرى؟

- لا أدري، لا علم لي بالغيب، إنما الذي دفن فيما أتصور هو الحياة الأدبية الصحيحة.

المحاور: كيف؟ هذه النقطة تريد تفسيرًا؟

- الحياة الأدبية الصحيحة ستدفن دفنًا كاملًا، فإن هذا الجيل الذي نراه منزوعٌ من أصوله نزعا كاملا، الجيل الذي نشأ في السنوات الأخيرة كله منزوعٌ من أصوله نزعا كاملا، واعلم أنه لا بقاء لأمة ما بغير حصيلتها الماضية، بغير هذا التيار المتدفق من القرون الطويلة، وأعني بالتيار المتدفق لا أعني به التيار التاريخي المزيف عن طريق الآثار أو سواها، إنما أعني به التيار الفكري واللغوي الذي يعيش به الإنسان، الإنسان يعيش بلغته، فهذا الانفصال بين الماضي والحاضر قاطع بأن كل طريق في الحياة الأدبية سوف ينقطع أيضًا.

المحاور: أنت تدق أجراس الخطر؟

- لا تستطيع أمة أن تعيش بغير تاريخها، والذي يريد أن يُنشئ في هذا الزمن أمة أخرى عن طريق التوهم فهو مخطئ، هذا ضرب من العبث، الأمم بلسانها فقط، الأمم بحركتها الأدبية واللغوية فقط، أما الأشياء الأخرى من الصناعة وكذا وكذا والآراء الاجتماعية فهذه زائلة ومتحولة، ويمكن أن تتحول في أي وقت، لكن إذا تحول التاريخ فلا يمكن أن يبقى إنسان على صورة صحيحة في هذه الحياة.

المحاور: تابع القراء في مجلة الرسالة وغيرها معركتك الضارية مع لويس عوض، كيف بدأت؟ وكيف انتهت؟ وسؤال آخر: ما أهم المعارك الأدبية التي خضتها من قبل؟

- أولا أنا أنكر عليك توجيه هذا السؤال؛ لأني لم أخض معركة، وهذا الشيء الذي كتبته في سنة (١٩٦٤ و١٩٦٥) ليس معركة في الحقيقة إلا إذا عددت حياتي - وهي مسألة صحيحة - حياتي كلها معركة، فالرجل الذي ذكرت اسمه في هذه

المسألة لا وجود له عندي في الحقيقة، وقد ذكرت هذا في مقدمتي لهذه المقالات التي طبعتها وطبع منها الجزء الأول، وهو يباع، والجزء الثاني طبع أيضًا ولكنه ملقًى في المطبعة إلى هذا اليوم للظروف التي حالت بيني وبين نشره في ذلك الوقت، فالرجل الذي ذكرته ذكرت رأيي فيه، أنا أعلم حقائق كثيرة عن هذه الدنيا، ومن هذه الحقائق أن كثيرًا من الناس في كل زمان يُرَون ثم يختفون إلى الأبد، ومع الأسف أني أحب أن أقول لك: إني أرى الآن بشائر هذا الدور الذي مر بكثير من الأمم، مئات من الأسماء التي تراها اليوم إذا قدر لنا أو إذا قدر لهذه الأمة البائسة التي أتوقع ضياعها إذا لم تستيقظ، إذا قدر لهذه الأمة أن تستيقظ حقًا فلن يذكر أحد من هؤلاء قط، لن يحترم إنسان في الدنيا عقله إذا ذكر اسم هؤلاء في التاريخ الأدبي، وأظنك تعلم أن تاريخ الأدب الإنجليزي وتاريخ الأدب الفرنسي مرت به من أمثال هذه الفترات، فكان لرجال كثيرين ذكر طويل أو وجود طويل في المجال الأدبي ثم انتهى الأمر بأن يصبحوا سطرًا، ولا يمكن أن يقرأ لهم أحد كتابًا.

المحاور: لا يُخَلــد.

- لا يحترمون، لا يخلدون، هذا شيء كثير، في كثير من الكتاب المحسنين لا يخلدون ويظل كاتب محسنـًا.

المحاور: نحن نريد أن نأخذ المسألة بالتدريج، أنت الآن نفيت وجوده نهائيًا، إنما نريد الدوافع والأسباب التي جعلتك تقف هذا الموقف.

- الذي دفعني أني وجدت في ذلك الوقت شيئًا غريبًا جدًا كنت أراه مفرَّقا ثم رأيته مجتمعًا، وقد ذكرت في مقدمة «أباطيل وأسمار» كيف تنبهت إلى هذا، فقد انفتحت عيناي على شيء مخيف، وهو أني أرى اكتساحًا كاملًا منظمًا للعقل العربي والمصري، وأنا ذكرت المصري في هذه المرة مع ما قلت لك من رأيي لأن الخطر آت من مصر، أني أرى توجيها شديدًا لمحق كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالحياة الصحيحة للفكر الأدبي في المستقبل، ومعنى هذا أن هذه المعركة ليست معركة أدبية على التحقيق، إنما هي معركة سياسية، بمعنى أنهم يريدون أن يمنعوا وجود الأمة على ما ينبغي أن توجد عليه الأمم؛ لأني كما قلت لك: أعتقد أن تاريخ الأمم هو تاريخ النفس الإنسانية في تعبيرها عن ذاتها، فإذا محق هذا التعبير الحقيقي الصحيح، إذا محق هذا فقد انتهت الأمة،

فالحرب من هذه الناحية حرب للكيان السياسي، لا للكيان الأدبي، إنما أنا اعتقد أن هذا الذي ذكرت اسمه في كلامك لأنه يساوي شيئًا في التاريخ الأدبي بأن له فهمًا أو إدراكًا أو شيئًا، هذا موضوع وضحته واضحا، أي قارئ محسن يستطيع أن يرى أن هذا لا يحسن أن يقرأ الأشياء التي يقرؤها باللغة العربية وباللغة الإنجليزية أيضًا، لأني بالطبع أحسن الإنجليزية وأعرفها، ولو أني عاديت هذه الأشياء وتركتها جانبًا، لكن أنا أعلم أن الذي كتبه عن فلان وعن فلان أعلم أنه كلام سخيف جدًا ولا يقبله أي إنجليزي في الدنيا.

المحاور: حتى الإنجليز نفسهم.

- وإذا لم تصدقني فليرسل كتابه لأستاذ إنجليزي إذا أجابك بغير ما أقول لك أكون مخطئًا في كل ما قلت.

المحاور: السامع الآن لا يعرف القصة من أساسها، أولًا أنا ملاحظ أن الأستاذ محمود شاكر يتحاشى أن يذكر اسم لويس عوض؛ لأنك نفيته نهائيًا من الوجود.

- لا لم أنفه من الوجود، هو موجود برغم أنفي، لكن أنا لا أريد أن يعني هذا الاسم ثقيل علي من قديم، وذكرت هذه القصة أني أقرؤه من بلوتولاند، وهو صغير، وأراه وأعرفه، وأعرف كيف نشأ وما نشأ أستاذه، وكيف كون وكيف كون أستاذه، ومن يليه الآن كيف يكون، أعلمهم، وهذه مسائل لو كنا في أمة أخرى لو كانت لنا أمة حية كانت فهمت هذه الأشياء، الأمم الأخرى تفهم هذا لكننا نحن لا نريد أن نفهم.

المحاور: أستاذنا، نحن نريد بداية الخيط الذي جعلك تتصدى...

- هذا الخطر وجود هذا الخطر لأني أرى أن هذا خطر سياسي، ومقالاتي تدل على هذا؛ أني أراه من الناحية السياسية، لا من الناحية الأدبية، أما من الناحية الأدبية فبلا شك أن هذا الإنسان الذي ذكرت اسمه لا يستطيع أن يقرأ أبيات أبي العلاء ولا غير أبي العلاء، يعني (مش) أبيات أبي العلاء فقط، هو لم يستطع أن يقرأ شعر شاكر السياب على الوجه الصحيح، وهو معاصر، ولم يستطع أن يقرأ كلام الجبرتي عندما قال: إن الجواري في بيوت المصريين لما جاء الفرنسيس إلى مصر يقول الجبرتي: إن هؤلاء الجواري كانوا يذهبون إلى الفرنسيس لرغبتهم في مطلق الأنثى، فظن

أن مطلق الأنثى هي مسألة تحرير المرأة، من كلمة مطلق، يعني إطلاق المرأة، مطلق الأنثى، يعني أي امرأة، تعبير دارج على ألسنة العوام، ومع ذلك لم يفهمه وكتب هذا في صحفكم المحترمة الوقورة التكنولوجية.

المحاور: الملاحظ أن الدكتور لويس عوض تطرق إلى بعض رجالات العرب ومفكريهم القدامى، واتهم ثقافاتهم بأنها لم تكن عربية إسلامية.

- هذا سخف.

المحاور: وأنت رددت عليه؟

- لا، أنا لم أرد على هذا، كنت سأرد عليه، لا على هذا الخلق، لكن كنت سأرد على من يقول هذا، هذا تابع بسيط مبتذل موجود في كتب جرون باومو، ومن اليهود، وأمثاله جولد زيهر، كلام سخيف لا يعتد به، ولكن أنا كنت سأتناول هذا الأمر لولا ما قطعني عنه، كنت سأتناوله أيضًا من الناحية السياسية لأبين كيف يقال هذا الكلام ولم يقال؟! أما أن العرب قرءوا كلام الأوائل فهذا شيء مقطوع به، هذه أمة من أعظم الأمم، لا توجد أمة أخرى على ظهر الأرض احترمت العقل الإنساني كما احترمه العرب، هم لم يحترموا ديننا، لم يحترموا مفكرينا، لم يحترموا علماءنا، بل سرقوهم من فلاسفتهم فيلسوفًا فيلسوفًا، سرقوا أشياءنا وادعوها لأنفسهم وأنكروها علينا، وأنكروا تأثرهم بها، لكن العرب لم ينكروا قط من أين أخذوا، كانوا يأخذون، والشيء الثاني الذي أحب أن أدلك عليه أن هذه المسألة التي تناولها في أبي العلاء مسألة أخرى؛ لأنه نسب هذا إلى أصحاب دير الفاروس، وقد ذكرت قصة دير الفاروس، لا على لساني، بل على لسان أحد رجال النصارى في ذلك الوقت، وأن صاحب دير الفاروس كان هؤلاء الرهبان على عهد أبي العلاء فيما ذكر ابن بطلان، وهو نصراني، كانوا يأخذون الأجر على القيادة بالمعنى الذي تفهمونه في الكويت، يعني كان يتولى أمر وصل رجال بنساء، هذه كانت همتهم، لم تكن همتهم في الفلسفة ولا في العلم، وإلا فليأتني أحد بشيء كان في هذه الأديرة، هذه الأشياء محفوظة في مساجدنا، لا في الأديرة، علم اليونان ترجم عندنا قبل أن يوجد دير الفاروس، وفي الوقت الذي يتكلم فيه هذا الإنسان عن أبي العلاء ليعلم أنه كان في المنطقة الأخرى على أقصى الدنيا الرئيس ابن سينا الذي صحح منطق

أرسطو، فأبو العلاء غير محتاج إلى أن يأخذ عن راهب دير الفاروس، هذا هزل، عن راهب كل ما تقرؤه في كتب الأديرة تعلم به قيمة هؤلاء المشرقيين الذين كانوا يقيمون في هذه الأديرة، ليس عندهم كتاب لا في فلسفة ولا في يونانية ولا في علم ولا في شيء، إنما كانوا بين الخمر وبين الأشياء التي ذكرها ابن بطلان كما رويتها في الرسالة بنص ابن بطلان، لا بنصي.

المحاور: أستاذنا، أوّلا أنت استنكرت علي السؤال وقلت: أنكره، والحقيقة أن هذه المعركة...

- لأنك سميتها معركة، لكن المعركة الحقيقية هي بيني وبين العالم الأوربي، أنا ليست لي معركة مع هؤلاء أبدًا، لا مع الدكتور طه حسين ولا مع هذا الذي ذكرت اسمه ولا مع سواه، إنما كانت معركتي بين عربيتي وبين الذي يريد أن يذلني.

المحاور: إنما أنت تعتقد أن الثقافة الأوربية أو الدخيلة متمثلة بهؤلاء.

- الثقافة شيء غير هذا، الثقافة غير إذلال، غير أن تغلبني على عقلي وبيتي وأهلي وتراثي أو شيء آخر.

المحاور: التيار، أنت ترى الخطورة متمثلة في هؤلاء.

- فقط. أنا معاركي مع هذه الخطورة في كل ما أكتب، حتى في شعري، أنا قائم بشيء في نفسي لا أفسره، لم أكتب قط عن هذه الأشياء، ولم أدع لنفسي شيئًا، ولا مدحت كتابًا من كتبي، ولا بينت طريقًا من طرقي، وعملي في التراث نفسه هو معارضة حقيقية للطرق التي يزعمون أن هؤلاء الناس علمونا بها، لأني ألتزم بما علمني به آبائي، مع وضع الأصول الصحيحة التي أرى أن بعض آبائي قد غيرها، أو لم يصل فيها إلى الغاية الكاملة، حتى في تحقيق التراث، فأنا أخدم بطريق ارتضيته لنفسي.

المحاور: أستاذنا، قلت في سياق حديثنا: في شعري، نريد أن نعرف شيئًا عن قصتك مع الشعر.

- كما حدثتك أني أول ما قرأت قرأت شعر المتنبي وحفظته، ومنذ ذلك الوقت أحسست أن حياتي كلها منصرفة إلى الشعر.

المحاور: الآن؟

- قديمًا عندما نشأت فكنت وأنا في الحادية عشرة أكتب الشعر بوفرة.

المحاور: في الحادية عشرة؟

- في الحادية عشرة والثانية عشرة.

المحاور: هل تحفظ شيئًا من هذا الشعر؟

- لا أحفظ شيئًا منه، أنا مزقت كل هذا، أنا لا أنشر شعري، فبدأت هذا البدء، وكما تعلم أنه كان في ذلك الوقت مع الأشياء الكبرى شوقي وحافظ ومطران والعقاد والمازني، والمناقضات الشديدة بينهم وأئمتنا من كبار الشعراء في العالم العربي، وأنا كنت طفلًا في ذلك الوقت.

المحاور: كان الزهاوي في ذلك الوقت.

ونشأت بيني وبين كبارهم صداقة، (زي) الأستاذ المازني، وأحمد شوقي عاشرته دهرا طويلًا، والأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والأستاذ العقاد، وكنت منصرفًا بكل ما في نفسي إلى الشعر، ولم أكن أبالي بشيء غير الشعر، ثم عرض لي وأنا أقرأ الشعر العربي، وأنا قرأته كما قلت لك، أنا كنت طالبًا في القسم العلمي، فقرأت كما أقرأ المسألة الرياضية، بمعنى أني بدأت أرى أنه ينبغي أن أتسلسل تسلسلًا علميًا، فبدأت بالشعر الجاهلي شاعرًا شاعرًا، شاعرًا شاعرًا، وهذا تراه في مكتبتي، كتبي التي اشتريتها منذ أول يوم وأنا في الحادية عشرة والثانية عشرة كلها الشعر العربي، لا ينقصني ديوان ولا كتاب ولا شيء عن الشعر العربي أبدًا، فقرأت الشعر العربي بتنظيم، فصدمت خلال هذه القراءة بشيء وهو تاريخ هذه القصائد، فظللت أقرأ أقرأ، فوجدت نفسي في حيرة، كثير مما أقرأ لا أستطيع أن أفهمه فهما صحيحا، ولا أستطيع أن أقتنع أيضًا أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام ضرب من البلهاء، وكثير من الغموض كان يحيط بكثير من الشعر، وخصوصا الشعر الذي في صدر الإسلام وفي العهد الأموي والعباسي، فاقتضاني ذلك أن أراجع كتب التاريخ، ففوجئت أيضًا وأنا أقرأ أني وقعت في مشاكل تاريخية وعقائد وأشياء، فبدأت أهتم، ووجدت نفسي أني لا أستطيع أن أحس بما في هذا الشعر إلا أن أحس بهذا المجتمع،

فوصلني هـذا بكل كتب التاريخ الإسلامي، وكان من فضل الله علي أن أخي الشيخ أحمد كان يقرأ قليلا في هذه الأشياء، ولكنه كان واسع المعرفة بالتراث الإسلامي، فهداني إلى قراءة الكتب الإسلامية الأولى، فقرأت «الأم» للشافعي، وقرأت وقرأت وقرأت من الكتب، لا على أني متفقه، إنما قرأته قراءة الشاعر والأديب على طول الزمن، صرفني هذا الشيء الرائع الذي لا مثيل له في تراث الأمم عن أن أنصرف وأنا حزين إلى الشعر، فظل الشعر جزءا أتغنى به في داخلي، لكني لا أستطيع أن أحققه لكثرة ما يدفعني إلى طلب المعرفة في وجوه مختلفة من كل فروع المعرفة الإسلامية والعربية، ومع انشغالي في ذلك الوقت بالأدب الإنجليزي وأنا طالب مع كثير من أصدقائنا؛ الأستاذ توفيق البكري، وزعيم حزب اللواء الأبيض الأستاذ عرفات عبد الله، كنت في ذلك الوقت أقرأ معهم الشعر الإنجليزي، وكان اهتمامنا بطبيعة الحال نابعًا من اهتمام أمثال الأستاذ العقاد، والأستاذ محمد السباعي والد الأستاذ يوسف السباعي، والأستاذ المازني، فكانت هذه دوافع ولكني أنا تخليت في وسط الطريق عن هذه الأشياء؛ لأني وجدت أن طريقي ينبغي أن أسلكه سلوكًا صحيحًا لنفسي لتحقيق ذاتي، فتركت الشعر ولكني لم أنقطع عنه، فأنا أقول الشعر أحيانًا، وصلتي بالشعراء وثيقة، فمن أكبر أصدقائي في ذلك الوقت علي محمود طه، وعمله معي طول السنين الماضية إلى أن توفي في دواوينه، كنت ألازمه، وكان أيضًا محمود حسن إسماعيل بالطبع، وأنت تعلم أنه صديقي، وهو يوميًا عندي، وجميع الكويتيين يعرفونه أيضًا مني، من طريقي، يعني معرفة شخصية، فهو أشهر من أن يعرف، لكن من الطريق الشخصي، فمعرفتهم به عن طريقي، فأنا أعيش في الشعر، ويحدثك عن هذا رجل مثل يحيى حقي ومحمود إسماعيل أيضًا.

المحاور: أستاذنا، كنا نريد إذا كان هناك بالإمكان أن نسمع آخر قصيدة، نُسمِع فيها مستمع الإذاعة الكويتية.

أنا لا أستطيع أن أحدثك عن الشعر بالمعنى المفهوم أن آخر قصيدة، لكن أنا أقول لك: إن كثيرا من شعري لم أنشره، وبعضه لم يتم، أما قصة القوس العذراء التي ذكرتها فأنا كتبتها لسبب، وهي كلمة فيما أرى إلى اليوم لم يقرؤها أحد باهتمام، الذين قرءوها قرءوها على أنها مجرد كلمة عابرة، في مبدئها نثر بالطبع يتناول بعض الموضوعات، فقرءوها قراءة سطحية، وقرءوا القصيدة أيضًا قراءة سطحية.

المحاور: نسمع جزءًا منها يعني.

- لا، لا أحب، النسخة منشورة لكن في قصائد أخرى، كنت اهتممت بها اهتمامًا شديدًا، وهي قصائد طوال كنت أرجو أن أتمها، منها قصيدة بدأتها فيها تفسير للحياة الإنسانية كما أراها من وجهة نظري، وهي قصيدة طويلة مقسمة إلى أقسام لم أنشرها، فإذا شئت، وهذا شيء لم يحدث قط أني أقرأ شعري بعد أن مضت فترة الرسالة لم أنشر شيئًا سوى القوس العذراء، وليس لي نية أن أنشر هذا الشعر، مع أن كثيرًا من إخواننا الكويتيين ما دمت أتحدث في الإذاعة الكويتية قد كتب هذا الشعر لنفسه، وكانوا يحثونني على طبعه، ولكنني ممتنع عن طبع هذه الأشياء، فربما كان من المستحسن أن أقرأ لك - المستحسن (مش) من قبلي، المستحسن من قبل ما يصح أن يكون عليه هذا الحديث - أن أقرأ لك قصيدة اسمها «اعصفي يا رياح»، وهي قصيدة طويلة كما قلت لك وتبدأ هذه القصيدة هكذا:

اعصفي يا رياح من حيثما شئت وعفي الطلول والآثارا
وانسفي يا رياح آية هذا الليل حتى يحور ليلًا سرارا
وازأري يا رياح في حرم الدهر زئيرًا يزلزل الأعمارا
اعصفي وانسفي كأنك سخرت خبالًا يساور الأقدارا
اعصفي وازأري كأنك غيرى قذفت حقدها شرارا ونارا
اعصفي كالجنون في عقل صب هتك الغيظ عزمه والوقارا
اعصفي كالشكوك في مهجة الأعمى تخاطفن حسه حيث سارا
اعصفي كالفناء ينتسف الأوكار نسفا ويصرع الأطيارا
اعصفي كالوفاء صادمه الغدر فأغضى إغضاءة ثم ثارا
اعصفي كالضلال يسخر من هاد أذل القفار علما وحارا
اعصفي كالأسى أفاق من الصبر فلم يستطع قرارا وفارا
اعصفي وانسفي فما أنت إلا نعمة تنشئ الخراب اقتدارا
عالم لم يكن ولا الساكنوه غير أشباح نقمة تتبارى

ولا أستطيع أن أقرأ لك كل القصيدة، ولكني أقرأ لك هذا المقطع الذي يدل عليها.

انظري يا رياح يا وحشة الطرف إذا دار يمنة أو يسارا
ما الذي تبصرين؟ أشباح فانين؟ مرارا ترى وتخفى مرارا
وجدوا ثم أوجدوا ثم بادوا واحتذى نسلهم فزاد انتشارا
وتمادى البقاء فيهم دواليك فشيء بدا وشيء توارى
أوغلوا في الحياة جيلا فجيلا وتجلى طريقهم وأنارا
فمضوا يبدعون في حيث حلوا وتباروا حضارة وابتكارا
ما كفاهم ما بلغوا فاستطالوا ثم خالوا فأسرفوا إصرارا
شغفوا بالخلود في هذه الدنيا فأعطتهم الخلود المعارا
عمروا الأرض زينة ومتاعًا ثم نودوا: كفى البدار البدارا
ثم مروا أشباح فانين ما تملك في حومة الزوال قرارا
لم يكن غير خطفة البرق إذ تبني وتعلي ولم يكد فانهارا
ذهبت ريحهم وهبت رياح فأقامت على القبور الديارا
ضل هذا الإنسان يكدح للخلد وأقصى الخلود كان فصارا

المحاور: أستاذنا، أشكرك جدًا باسم مستمعي إذاعة الكويت على إعطائنا هذا الوقت وأنك أعطيتنا من شعرك، من روحك، من وجدانك قصيدة لم تنشر ولم تسمع من قبل، نعود إلى أسئلتنا وما أكثرها، وأنا أحس أننا أثقلنا عليك، ولكن رجل له مكانة أدبية مثلك لا بد أن يعرف عنه المستمع أشياء كثيرة.

أستاذنا، تُبذل جهود مختلفة لنشر التراث في الجمهورية العربية المتحدة والكويت وغيرهما من أقطار العروبة، ما رأيك في هذه الجهود؟ وماذا ينقصها؟ وما السبيل لنشر التراث العربي على خير وجه؟

- بقي عدد قليل جدًا من الذين يحسنون نشر الكتب القديمة على وجه يعتمد، وأنت تسألني: ماذا ينقص هذه الجهود، فأنا أدع المتميزين جانبًا المعروفين بدقتهم، وهم عدد قليل جدًا، وأحدثك عن الباقين، فسؤالك: ماذا ينقصهم هذا غريب

مع ذكر الجهود، في الحقيقة أنهم يتلفون شيئًا كثيرًا مما ينشرون، والجيل الماضي، لا أعني جيلنا، بل أعني الجيل الذي سبقنا، الذي كان ينشر الكتب في المطبعة الأميرية وسواها، حتى أمثال أستاذنا العظيم، وهو كتبي يكاد يكون أميًا، وهو الأستاذ أمين الخانجي رحمه الله، رجل من أعظم الرجال الذين رأتهم عيني، مع أنه لم يتعلم قط لكنه كان كتبيًا، أي تاجرًا، ولكن كانت له معرفة وثيقة بالكتاب وحب لم أر لأحد أحدًا يحب امرأة كحبه للكتاب، فهؤلاء مع بعدهم عن زمن النشر الحديث والاستعداد الضخم الموجود في أيدينا كانوا أفضل بكثير جدًا من كل من ينشر في هذه الأيام، فالذي ينقص هؤلاء لا لأن لهم جهودًا، لكن ينقصهم شيء آخر، ينقصهم أنهم ليسوا أصحاب معرفة أولاً، وليس في قلوبهم احترام لشيء، لا للنص المكتوب، ولا للكلام المكتوب، ويبدلون فيما يعملون تبديلًا فاحشًا.

المحاور: المقصود من نشرهم هل هي خطة مقصودة؟

- لا ليست مقصودة، لكن شبان يتعلمون يدخلون الجامعة أو مكانا ما (ويعدين) يجدون أن هذا باب للارتزاق، هذا كل ما في الأمر، يريدون أن يعيشوا لكن ليس لهم عقيدة. تراها من أول ورقة.

المحاور: هو الجهل بالشيء مثلًا.

- هو ليس جهلًا، هو لا شيء ولا علاقة لهم به، هو طريق، ومع الأسف أقول لك وأنا آسف: أن هذا موجود أيضًا في الصحافة، في الكتابة، موجود في كل شيء، في جميع أعمالنا، ظاهرة عامة ولا تقتصر على هذا الباب، فإذا كان هناك يراد الإصلاح فالإصلاح في الوجود الإنساني، الإنسان هو أصل هذه الأشياء، لا أستطيع أن أتصور أن التلف يوجد في هذا الأمر ثم لا يوجد في الهندسة أو في الطب، محال، هذا شيء قائم في طبيعة الأجيال الممزقة التي تصدر عن بلادنا اليوم مع الأسف.

المحاور: والله هذا شيء يؤسف له فعلًا. الملاحظ أن الشباب العربي معرض في غالبيته عن مطالعة تراثه، كيف نعالج هذا الإعراض؟ وما أهم الكتب القديمة التي تنصح الشاب العربي بقراءتها؟

- أيضًا هذا السؤال مبني على الأسئلة السالفة، لا أريد أن أعطي الناس عذرًا؛ لأن كل امرئ مسئول، مسئول بين يدي الله تعالى، لا يستطيع أن يعتذر عن شيء،

والـذي يـشرك بـالله تعـالى مسئـول؛ لأن الله تعـالى أعطـاه عقـلًا فـكان ينبغـي بهـذا العقـل أن يعـرف شيئًا مـن الطريـق، لا بـد أن يسـأل بشـكل مـا، كل إنسـان لا بـد أن يسـأل، فأنـا لا أريـد أن أعطـي هـؤلاء الشـبان عـذرًا.

المحاور: تحملهم المسئولية؟

لا أريـد، أن أحمـل نفسـي المسئولية، وأحمـل النـاس المسئولية، لا أسـتطيع أن أتخلى عـن المسئولية، أنـا لسـت أفضـل منهـم، أنـا نشـأت كنشـأتهم، المسـألة تـأتي هكـذا.

المحاور: أستاذنا، أنت نشأت كنشأتهم وأنت تقرأ المتنبي؟!

- قلـت لـك: إني كنـت كارهًـا لهـذه اللغـة، كنـت أحتقرهـا كـما يحتقـر كل شـاب لغتـه الآن، وكـما يحتقـر كل صاحـب إعـلان في التلفزيـون أو في الراديـو لغتـه، الآن جميـع الإعلانـات تجـد فيهـا اسـتعمال لغـير اللغـة العربيـة، أسـماء الفنـادق، لا يلجـأ إنسـان إلى اسـم عـربي إلا في النـادر، في مصـر وفي الكويـت وفي أماكـن كثـيرة، حتـى في جزيـرة العرب المسـماة بالسـعودية، فهـذا الاحتقـار العـام شيء أصيـل نشـأنا عليـه، وأنـا لا أعـذر نفسـي ولا أقـول: إني فعلـت مـا لم يفعـل غـيري، فالمسـألة عندمـا تسـألني عـن هـذا أقـول لـك: هـذه النشـأة التـي ينشـأها الشـبان لا تمكنهـم، لا اعتـذارًا لهـم، ولا أعطيهـم العـذر، لكنـي أقـرر كـما يقـرر الباحـث المحلـل لأي مـادة طبيعيـة؛ أقـول لـك: إن هـذا الشـاب عـلى هـذه الصـورة غـير قـادر، أمـا أنـه مسـئول فهـذا أمـر آخـر، هـو غـير قـادر، عـلى هـذه الصـورة لا يسـتطيع أن يتصـل بتراثـه؛ لأنـه مقطـوع عنـه، كأني أفـرض عليـك مثـلاً أن تقرأ سـوفكليس باللغـة اليونانيـة وأنـت تجهـل اليونانيـة، فهـذا شيء مقطـوع بعجـزك عنـه، لكـن إذا كانـت حاجتـك العلميـة حقيقيـة إلى سـوفكليس فينبغـي أن تتعلـم اليونانيـة وتقرأهـا باليونانيـة، فالشـاب معـذور إذن، فالمسـئولية واقعـة علينـا مـن حيـث نحـن الأمـم عـلى الفكـر العـام أنـه ينبغـي أن يعـاد تعليـم الشـاب العـربي تعليـمًا صحيحًـا مبنيًـا عـلى أصـول لغتـه، النحـو العـربي ليـس صعبًـا، النحـو العـربي ممكـن أن يكـون في ثـماني ورقـات كـما صنـع صاحـب الآجروميـة، الكتـاب الـذي كان يـدرس في المعاهـد الصغـيرة منـذ عشريـن سـنة وثلاثـين سنة وأربعـين سـنة، الآجروميـة ثـماني صفحـات فيهـا النحـو العـربي كلـه، ثـم يرتقـي إلى قطـر النـدى والشـذور، ثـم إلى ابـن عقيـل، ثـم إلى شرح الألفيـة، ثـم الأشـموني، ثـم إلى

سيبويه، فهذه اللغة ينبغي أن يكون.. كل لغات الدنيا تحترم نفسها لها هذا المنهج، كل لغات الدنيا لها صَرْف، أنت في الفرنسية تظل تحفظ الولد، وأنا حفظت هذا سنين طويلة، تحفظ في الفرنسية كل الأفعال الشاذة، بالمئات، وفي اللغة الإنجليزية كذلك أشياء غريبة نحفظها ونسير على نهج، إلا العربية فإن هذه اللغة القائمة على الاشتقاق؛ أن تقول: كتب يكتب كاتب مكتوب كتاب، جميع الصيغ لا تدرس للطالب ولا يعلمها، تصبح كل كلمة في ذهن الطالب قائمة برأسها، كأنه ينبغي أن يكون لكل كلمة تفسير، مع أن هذه اللغة مبنية على أشياء ككل لغات الدنيا، مبنية على أشياء، عندما تؤخذ من طريقها كلما يترقى الطالب وجدها سهلة تسهل، أنا تعلمت الإنجليزية وأنا لا أعلمها من سنة أولى ابتدائي، من السنة الأولى الابتدائية إلى أن وصلت للسنة الرابعة، وكنا نمتحن في ترجمة وكذا وكذا، يعني كل إنسان يتعلم بسهولة أي لغة، ولو لم تكن لغة أبيه، فما ظنك بأن تكون لغة أبي وأمي وأن تكون هذه اللغة مع وجود العاميات، هذه قريبة الشبه في اشتقاقاتها، وكل شيء لها تصريف حتى العامية لا يمكن أن تعلم على الهيئة التي يعلم بها اللغة العربية التي هي لسان، فالطالب الذي لا يقرأ عن هذا الطريق ماذا أقول له؟ لا بد أن ينصرف، كيف يقرأ، إذا جئت للتراث الأدبي أقول له: اقرأ شعر الجاهلية، لا يستطيع، المتنبي، لا يستطيع، حافظ إبراهيم، لا يستطيع، شوقي، لا يستطيع، أقول له: اقرأ ابن سينا، لا يستطيع، لا التراث العلمي ولا الفكري ولا الأدبي ولا أي شيء، غير مطيق، ليس عنده أداة.

المحاور: إذن فالأستاذ محمود شاكر يوعز أن السبب في إحجام العامة عن القراءة يعود إلى هيئة التدريس أساسًا أو النظم التعليمية؟

- لا، لا أقول: تعود، أقول هنا: المسئوليات، إن هذا مسئولية الأمة، إن هذه مسئولية الأمة، ينبغي أن تكافح في سبيلها، إن لم تكافح في سبيل أن تصبح لغتها هي اللغة، لا يمكن أن تعيش، يكفيكم أن اليهود الذين يذلون اليوم أعناقنا أنشئوا لغة من لا شيء، والذي لا يصدق يقرأ ما قالوه عن جهودهم في الأدب الخبيث اليهودي الحديث كيف صنعت هذه الجهود لتعلم أنكم أنتم في آخر ركب البشرية.

المحاور: أستاذنا، أنا أحس أننا أخذنا ما فيه الكفاية من وقتك، وهنا مرة أخرى أتوجه بالشكر، وإذا كانت هناك كلمة أخيرة أيضًا عن طريق ميكرفون الإذاعة الكويتية لمستمعيك وقرّائك ومحبيك أيضًا.

- أحب أن أقول لكل امرئ: أنه مسؤول أمام هذه الأمة التاريخية العظيمة المسماة بالأمة العربية مسئولية حقيقية، وإن على كل امرئ أن يبصر طريقه بوضوح قبل أن يفوت الوقت، فإن الأمم ليست بالصورة التي نتصورها، الأمم تفنى وتزول، ومن السهل أن تزول، وأنتم ترون بأعينكم أنكم تعاملون في العالم الآن وأنا فيكم بطبعي من هذه الأمة، إننا نعامل الآن معاملة شاذة جدًا في تاريخ البشر، لا يمكن أن يحدث في تاريخ البشر في العصر الحاضر ولا في عصور سابقة هذا الضرب إلا ما حدث بالطبع في أمريكا أو في بعض أفريقيا، هذا الضرب من طرد الأمة من بيوتها وإخراجهم من أوطانهم وتشريدهم في الآفاق دون أن يتحرك في العالم ضمير إنسان ولا الضمير العربي، يطرد الناس من بيوتهم وينشر الخبر عندنا وفي الدنيا ولا يباليه إنسان، أن نُسفت عشرات البيوت، طردت عشرات العائلات وهذا خبر يتلقى بكل بساطة كأن هؤلاء لا يعدون شيئًا في الدنيا، فهذا موقف العالم منا، وهذا الموقف مبني على شيء، على أننا لا نريد أو لم نستطع بعد أن نبصر الطريق الصحيح لموقف العالم منا، ولم نستطع بعد أن نبصر الطريق الصحيح لموقفنا نحن من هذا العالم، ولم نستطع أن نبصر بعد ما ينبغي علينا أن نفعله في سبيل تحقيق حياتنا، وكما قلت لك مرة أخرى:

إن حياة الأمم في ألسنتها، اللسان هو حياة الأمة، لا حياة لأمة بغير لسان، واللسان كالنهر الجارف يجمع كل محصول الأمة، كالغيث المنهمر آلاف القرون، يتكون منه هذا النهر، فإذا انقطع تيار هذا النهر فقد وقعت في خيبة.

المحاور: سيداتي وسادتي، باسمكم جميعا أشكر الأستاذ محمود محمد شاكر لإعطائنا هذا الحديث.. شكرًا أستاذنا.

- حفظكم الله.



(٢) حفل مجمع اللغة العربية

كلمة الأستاذ العلامة أبي فهر
في حفل استقباله بمجمع اللغة العربية

في الساعةِ الحادية عشرة من صباح الأربعاء (٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ)، الموافق (٦ من أبريل سنة ١٩٨٣ م) أقام المجمع حفل استقبال عضوه الجديد الأستاذ محمود محمد شاكر، وها هي الكلمة التي ألقاها الأستاذ في الحفل:

كلمة الأستاذ محمود محمد شاكر

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرًا. وصلى الله على النبي الأمي الذي أرسلهُ بلسانٍ عربيٍ مبين ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور. اللهم صل عل محمد وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل وعلى سائر النبيين وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فقد وقعت فجأة في الحرج والحيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأنتم أيها الرجال الأجلاء، غير عامدين ولا متواطئين، أخذتموني على غرة، وقذفتم بي في الموج ذي التيار والزَّبَد، وقلتم لي: اسبح! وما أنا بسابح. وأنَّى لمثلي أن يسبح وقد عاش حبيسًا مغمورًا أكثر من أربعين سنة، بين جدران من العزلة قد ضربتها على نفسي، وبين رفوف كالتوابيت من حولي، فيها رجال «صُمُوت» لا ينطقون ولا يتحركون إلا أن آذَنَ لهم.

وإذني لهم: أن أمد يدي إلى أحدهم ضارعًا مستميحًا، أسأله أن يتفضل عليَّ بشيءٍ من معروفٍ يزيل شكي، أو يردُّ عني حيرتي أو يُحْيِي مواتًا في نفسي، أو يرفع غشاوة غطت على بصري، أو يجلو صدأ ران على بصيرتي، ويتمادى الأمر بيني وبينه شيئا فشيئًا، فأحاوره ويحاورني، وأجاذبه أطراف الأحاديث ويجاذبني، حتى إذا بلغ مني الجهد، طويت ما بيني وبينه، ورددته إلى تابوته وإلى صمته محفوفًا بالتكريم والشكر، وكلانا في خلال ذلك وادع مطمئن، فلا هو يملك - بحسن سجيته - أن يعنف بي، ولا أنا أرضى - لكرامته علي - أن أعنف به.

عاشرتهم جميعًا، وكلانا راض عن أخيه، والأمر بيني وبينهم سهو، رهو رخاء، وأنا أقصدهم وأعتفيهم، لأني أنا الفقير إليهم. لقد ألفت ذلك أكثر من أربعين سنة، أن أعيش وحيدًا معتزلًا هادئا، بين جدران عزلتي وانفرادي، وبين توابيت أصحابي وإخواني، في شئون تجري بيني وبينهم محدودة بما حددته، من إزالة شك أو رد حيرة، أو إحياء موات، أو رفع غشاوة أو جلاء صدأ. وكل ما عندي من العلم محدود أيضًا بهذه الحدود.

فحين أخذتموني، فجأة وعلى غرة، وقلتم: منذ اليوم، أنت كأحدنا، عضو في مجمع اللغة العربية، وخلف للسلف العظيم الدكتور أحمد بدوي، إنما أخذتموني من مكمني بلا رحمة، غير عامدين ولا متواطئين وألقيتم بي في حومة الحرج والحيرة. نزعتم عني لباسي القديم الذي ألفته وألفني من الوحدة والعزلة والهدوء والصمت، وما كدتم تفعلون حتى كستني المفاجأة لباسًا غريبًا من الخوف والرهبة والضياع واللجلجة. ماذا أقول لكم؟ لقد أكرمتموني تكريمًا يعجز لساني عن المكافأة ولكنكم أيضًا قد روعتموني ترويعًا يطلق لساني بالشكوى منكم. فإلى من أشكوكم؟ فإنما شكواي منكم إنما هي شكواي إليكم. فأنا أسألكم الإنصاف، وأربأ بكم عن قلة الإنصاف.

فلم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

غفر الله لي ولكم.

وأول حرج وقعت فيه أن أجد نفسي مطالبًا بالحديث عن السلف العظيم الدكتور أحمد بدوي رحمه الله، وكانت قد نشبت بيني وبينه محبة ومودة وصداقة، وأنا خلقت هكذا لا أستطيع أن أكتب شيئا عن صاحب أو صديق اخترمته المنية، يعجز لساني، وتأخذني رهبة، وأجدني كأني مقبل على ظلمه لو تحدثت عنه.

وهذا حرج علي شديد. وحرج آخر هو أن الدكتور بدوي عالم آثاري مشهود له، عارف بلغة البرابي القديمة، أي المعابد والآثار العتيقة المنتشرة في أرجاء مصر شمالها وجنوبها، وهي لغة مكتوبة بالقلم الهيروغليفي وأما أنا فعملي كله محدود بلسان العرب وبالعلم العربي، فغير مستساغ من مثلي أن يقول شيئا في أمر يجهله. وإذا قلت شيئًا، فكل ما أستطيعه لن يخرج عن ترديد ما قاله من قبلي العارفون بقدره في العلم بحسنه ولا أحسن أنا شيئا منه. ومنذ أيام قليلة قرأت ما كتبه

أستاذنا الدكتور محمد مهدي علام في التعريف به، في كتاب مجمه اللغة العربية في ثلاثين عامًا، ثم ما قاله الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال في استقباله في مجمع اللغة العربية الجلسة العاشرة للمؤتمر، في (٢٥ / ١ / ١٩٦٠) في الدورة السادسة والعشرين، ثم ما قاله الدكتور بدوي نفسه بعد انتخابه عضوا في المجمع في الدورة المذكورة آنفا. وما أنا بمستطيع أن أزيد على هذا شيئًا يقال.

ولكن لابد مما ليس منه بد. وسأحاول أن أكذب سمعي وبصري وعلمي، وأتمثل الدكتور بدوي جالسًا حيًّا بيننا يسمع ما أقوله ثم يتغاضى بفضله عن تقصيري في حقه، متسامحًا فيما أنزلته به من الظلم.

فيما قبل سنة (١٩٥٠)، كنت أسمع اسم الدكتور بدوي، ولا أذكر أني كنت قرأت له إلا ما كتبه عن الهكسوس، ولكن كان يحدثني عنه بعض من يعرفونه حديثًا يغريني بمعرفته ولكن عزلتي حجبت عني كل وسيلة إلى هذه المعرفة. لم أنشط أنا إليها، ولكن الأقدار قد نشطت من حيث لا أعلم إلى تدبير اللقاء والمعرفة، ففي سنة (١٩٥١ م)، كنت مشغولًا بشرح كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي، عن نسخة عتيقة جدًا كانت قد وقعت في حوزتي، وكانت فيها زيادات كثيرة جدًا على نسخة طبقات الشعراء لابن سلام المطبوعة بمطبعة بريل، في مدينة ليدن سنة ١٩١٦ م، والتي نشرها يوسف هل وكتب لها مقدمة بالألمانية. فلما فرغت من الشرح، وأزمعت أن أكتب مقدمة لنسختي التي سوف أنشرها، احتجت إلى أن أعرف ما قاله يوسف هل في مقدمة نشرته. فلجأت إلى صديقي الدكتور عبد الرحمن بدوي أستاذ الفلسفة، فقرأت معه على عجل هذه المقدمة، وأملى علي بترجمته ما أحتاج إليه منها. وبعد زمن استبهمت علي أشياء وقلقت نفسي، فدلني أصحابنا على الدكتور أحمد بدوي، أستاذ التاريخ والآثار المصرية وحثني على الاتصال به بالهاتف، فلم أفلت هذه الفرصة، واغتنمتها من فوري، فإذا هو أسرع إقبالًا وحفاوة، وغلبتني الدهشة، والتقينا وعند أول لقائنا، أذهلني الرجل وأخجلني وأخبرني أنه يعرفني تمام المعرفة منذ سنة (١٩٢٦ م)، وأنا أسمعه واجمًا لا أذكر من ذلك شيئًا ولا أعرفه. ثم أسرع فأزال حيرتي فأخبرني أننا دخلنا الجامعة معًا، في تلك السنة.

كان هو طالبًا في قسم الآثار، وكنت أنا طالبًا في قسم اللغة العربية، وتقلبت بي الأمور في الجامعة ما بين سنة (١٩٢٦ م إلى سنة ١٩٢٨ م،) إلى أن فارقتها يومئذ إلى غير رجعة. ورأيته عالمًا بي وبهذا التقلب الذي عانيته. اجتمعنا سنتين في أرض واحدة، ولكننا لم نتعارف. فالآن تعارفنا، وطال حديث الذكريات.

بدأنا نقرأ مقدمة يوسف هل، وهي لا تتجاوز ثلاث عشرة صفحة. كانت باللغة الألمانية، وكان يجيدها تمام الإجادة. فكان من الممكن أن يقرأها ويوقفني على فحواها في مجلس أو مجلسين على الأكثر، ولكن الذي حدث كان غير ذلك، فقد طالت مجالسنا وتعددت، كان يقرأ ما بين يديه جملة جملة، ويتأنى بي وهو يعيد علي فحوى كل جملة منها، متخيرا لألفاظ عبارته مرة بعد مرة، مستدركًا على نفسه في المرة الثانية ما فلت منه في الأولى، كان كأنه مكلفًا أن يترجم هذه المقدمة مكتوبة لتنشر. استمتعت أنا بهذه الأمانة وهذا الحرص استمتاعًا لا يوصف، ومع ذلك، فكم من مرة كانت نفسي تحدثني أن أطلب إليه أن يكف عن هذا التخير وهذا الاستدراك، شفقة عليه أن يضيع وقته في أمر أهون علي وأزهد أن يضاع فيه كل هذا الوقت. لم أفعل ما حدثتني به نفسي مرة واحدة، لأن أناته في القراءة والتفسير كانت تروعني. أناة لا يستثيرها عجل، بل يشوبها أحيانًا شيء من التردد والتلوم، كأنه كان يبحث في خلال الألفاظ الألمانية عن معنى يوشك أن يتملص منه، وكأنه في الوقت نفسه كان يبحث في دخيلة نفسه عن ألفاظ عربية تمسك المعاني وتحيطها حتى لا يند منها شيء. وكان يروعني أيضًا هذا القدر العظيم من الصبر، صبره على ما كان يقرؤه، وصبره علي وأنا أستوضح بعض معاني ما قرأ. وإذا استبهم علي شيء مما يفسره فقاطعته، توقف توقفًا بصيرًا، يطول أو يقصر في المراجعة، ثم يقبل علي موضحًا مبينًا أدق تفاصيل اللغة الألمانية بلا ملل وبلا عجلة. فمن يومئذ عرفت أني أجاذب الحديث رجلًا من العلماء المتثبتين، لأنه بأناته وتوقفه وصبره وحسن تأتيه للمعاني، مع هدوء النظر فيما بين يديه، ومع حسن التأمل لما أفاجئه به من المراجعة، قد كشف لي عن قدر عظيم من الأمانة والحرص، وأيقنت أن هذا الرجل ينطوي على لب اللباب من أخلاق العلماء، التي يجد الإنسان بعضها عن بعضهم، ويفتقد بعضها أحيانًا فيهم.

رأيتها كلها مجتمعة فيه مع صفاء في النفس عجيب، ورقة في الطباع تأسر، وحلاوة في المعاشرة، إذا ذقتها فما أنت بقادر على أن تنساها أو تنسى صاحبها.

وإذا كان هذا شأنه وخلقه في أمر هين، وهو تفسير مقدمة كتاب، وإذا كانت هذه خصاله في معالجة لغة كالألمانية. حية على ألسنة أهلها، متداولة معروفة منطوقة، ذات معاجم تفسر ألفاظها، فما ظنك به وهو يعالج لغة قد بادت وباد أهلها، وتآكلت الألسنة الناطقة بها تحت أطباق الثرى، وليس لها معجم يفسرها ويضبطها وما هو إلا الكدح في توهم معاني ألفاظها وتراكيب جملها، ودلالة سياقها، مع فاصل كثيف يفصل بينه وبينها عرضه آلاف السنين؟! لقد تمنيت يومئذ أن أصاحب هذا الرجل، وأشاركه معاناته في استنباط لغة البرابي القديمة التي تنسحب على مدى طويل من ألوف السنين، مع التغير الفادح الذي لحقها ولابد، على امتداد هذه الآباد المتطاولة. معاناة لو تتبعتها معه وشهدت ما يمارسه فيها، كانت خليقة أن تكشف لي جوانب أخرى من خصال العلماء وأخلاقهم التي اجتمعت فيه، تستوجب له أضعافا مضاعفة من الروعة، ومن الإعجاب بصاحبها.

والقليل الذي شهدته بنفسي معه، دليل لا يخطئ يصدق هذا الذي كنت أتوقعه، لو كتب لي أن أحقق أمنيتي. وقد رأيت الدكتور بدوي نفسه، قد كشف لنا عن جانب من معاناته، حين قال لكم في يوم استقباله في المجمع.

«وأصارحكم، أيها السادة مرة أخرى بأنا معشر المشتغلين بلسان فرعون، لم نستطع أن نقومه في كثير، وإنما انحرفنا به انحرافًا ومسخناه مسخًا، سألت شيخنا العلامة أدلف إرمن، وكان إمام المدرسة الفرعونية غير منازع، ترى ما مدى استقامة ألسنتنا حين ننطق باللغة المصرية؟ فأجاب: والله يا بني لو بعث آل فرعون وسمعونا نلوي ألسنتنا على نحو ما نفعل، لانهالوا علينا ضربًا بالسياط ولأخذونا بالنواصي والأقدام» فهذا سؤال واحد يزعجه، من أسئلة كثيرة جدًا، كانت ولابد تنغص عليه معرفته بلسان البرابي القديمة، وبتاريخ أهلها المتطاول، وبشئون حياتهم التي عاشرها، وعقائدهم التي كانوا يتداولونها وعلومهم التي بنوا عليها حضارتهم المعروفة في القديم، هكذا أظن، وهذا السؤال وأشباهه من الأسئلة، تدل على أنه كان عالمًا متثبتًا متخوفًا من الزلل، أمينًا على ما يعلم وحريصًا على طلب اليقين. وأنا أظن، بل هو فوق الظن، أن قلقه، وتثبته وتخوفه من الزلل وأمانته على ما يعلم،

وحرصه على طلب اليقين، كانت خصالا من خصال العلماء مغروزة فيه سجية لا اكتسابًا وأنه كان لهذه الخصال من الغلبة عليه والسيطرة على نفسه يقبض قلمه قبضًا شديدًا، ويكفه كفًا عن الكتابة والتأليف، حتى صار قليل التأليف جدًا في هذا العلم الذي تميز به وعرف بانتسابه إليه، وعد علمًا من أعلامه، وسار حقيقة في الناس بأنه من كبار أهله.

وخصلة أخرى من خصال هذا العالم الجليل، قد لا يعدها بعضنا من خصال العلماء ولكنها من أعظم خصال الأفذاذ منهم بلا ريب وإنما ينكرها من أنكرها، لندرتها قبل كل شيء في جمهور العلماء، ثم لأنها خصلة خفية تبقى مستورة دائمًا، مكفوفة عن الظهور المستعلن، تحجبها وفرة العلم ووقاره وخفاؤه أحيانًا عن الظهور وسأحاول أن أوجز طريق معرفتي بهذه الخصلة إيجازا غير مخل.

ففي أوليات مجالسنا، في فجر معرفتي به رحمة الله عليه، مللنا مرة وطوينا كتاب طبقات الشعراء، وأخذنا نستروح بتجاذب الأحاديث، وفي خلال ذلك انبأته أن أبي وأسلافي من مدينة جرجا بصعيد مصر فأطرق إطراقة، ثم عاد ينظر إلي كالمتثبت المتوسم، نظرة خلتها وميض جمرة من خلال الرماد وكأنما رآني الساعة لأول مرة ثم فاجأني بحديث طويل في تاريخ جرجا وغيرها من الأقاليم في الأزمنة الموغلة في القدم.

بدا حديثًا جافًا عن أقاليم الصعيد وحدودها القديمة يتخلله أسماء ملوك وكهان وأصنام معبودة من دون الله وشيئًا فشيئًا، أصبح حديثه يترقرق حياة غنية متحركة رائعة حياة حية بعقائدها وعمائرها وأهلها وحوادث أيامها. وبدا لي أحمد بدوي كأنه يصور بلسانه حياة عاشها، أو حياة لا يزال يعيش فيها، وأما أنا، فكأني كنت أشهد بعيني هذه الحياة وهي تموج بأهلها، وأيامها ولياليها، على بساط من الأرض أتمثله أنا شاهدًا مبصرا، متأثرا بما أسمع وأرى وأشهد، راعني الرجل، لم ترعني وفرة علمه ولا ما كان يعرضه علي من صور الآثار الباقيات ولا ما كان يصاحب ذلك من تفسير وبيان، بل الذي راعني، وأخذ بنفسي، وسد عليها المنافذ، هذه النفحة التي كانت تهب علي من حديثه كأنها أنفاس نسيم الصبا في ساعة السحر تحمل العطر والشذا، وينعش مسها النفس والجسد، نفحة من شاعر ملء إهابه الشعر.

كان يومًا عجيبًا وحديثًا عجيبًا فلما قرأت الجزء الأول من كتابه «في موكب الشمس» لم أخطئ هذه النفحة المنعشة المتحركة ولكني وجدتها مقروءة، دون حقيقتها، مسموعة حية على لسانه، وبصوته وبألفاظه وبلهجته التي تدل على موطنه من صعيد مصر، والتي التزم بها، وأصر عليها، ولم يفارقها، ولم يتنكر لها طوال حياته رحمة الله عليه.

وبقيت عندي خصلة أخرى، مما خبرته بنفسي من خصال هذا العالم الجليل، وهي من أجل الخصال التي يندر وجودها في كثير من العلماء، ولا سيما في زماننا هذا، بيد أني إذا أنا حاولت أن أقص قصة وقوفي عليها فيه على وجهها، اقتضاني ذلك أن أسرد عليكم حديثًا طويلًا جدًا قد استغرق بيني وبينه عدة أيام وليال، ولكن ليس هذا هو مانعي الأول من سردها على الحقيقة، بل مانعي الأول هو أني كنت الطرف المتكلم في هذه القصة، وكان الدكتور بدوي هو الطرف المستمع، وحديثي اليوم بينكم إنما هو عن السلف العظيم الذي جعلتموني خلفًا له، لا عن نفسي.

وكذلك رميتم بي في حرج آخر فلو أنا أغفلت هذه الخصلة العظيمة التي وقفت عليها لظلمت صديقي ظلما بواحا لا يستره شيء، ولا يخرجني من هذا الحرج إلا أن أومئ إليها إيماء دون تصريح أو بيان، فقد هجم بنا الحديث مرة على شيء هو من صميم علمه، وهو تاريخ حضارة الفراعين وموقعها من مسيرة الجنس البشري.

طال الحديث بنا وتشعب أيامًا، وكانت حجتي التي بنيت عليها، قائمة على أصول واضحة بينة، مأخوذة من الوثيقة الكبرى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، والتي لم تبق على ظهر هذه الأرض وثيقة أخرى يمكن أن يعتمد عليها في تحديد الصورة الصحيحة لنشأة الجنس البشري على الأرض أو في تحديد الخطوط الصحيحة لمسيرة الحياة البشرية بأممها وعقائدها وعلومها بين علو انخفاض، وسمو وانهيار، وضعف وقوة. وهذه الوثيقة هي القرآن العظيم، وبيانه الصحيح الثابت عن رسول الله صلى اله عليه وسلم، وقد استتبع الهجوم على هذا الموضوع كثيرا من المراجعة والاستدلال والقراءة الطويلة أحيانًا، وكنت أنا في

الحقيقة أريد أن أحوز هذا العالم الجليل إلى جانبي، فبذلت لذلك جهدا عنيفا متتابعا في مجالس متدانية، أما صديقي الدكتور بدوي فكان أكثر وقته يستمع ويصغي، وألمح في وجهه وفي عينيه الجد، والتردد أو الشك أحيانًا، ولكن لم يقاطعني قط. وما هو إلا أذن صاغية لا غير.

وعجبت عجبًا شديدًا لأني كنت أتوقع أن يتكره وجهه لهذا الحديث، أو أن يعترض، أو أن يثور، ولو مرة واحدة، لأني في الحقيقة كنت كأني أهاجمه في صميم علمه أو كأني أحاول أن أقلب بعضه رأسًا على عقب، ولكن لم يزد في آخر الأمر على أن سكت طويلًا، وأقبل على أكواب الشاي يشربها على مهل، وبدا كأنه نسي الأمر كله، كأنه لا يعنيه في شيء، وبعد لأي ما فاجأني وهو يقول: أتمنى أن يكون بعض ما قلته صحيحًا نظرا، بل هو ممكن عقلًا على الأقل. ثم سكت طويلًا ثم عاد يقول: ولكن ماذا نفعل؟ إنما نسير في بيداء ليلها كنهارها.

أما أنا فقد أخذت بحسن استماعه للحديث وبهدوء نفسه وصفائها، فهذه خصلة من خصال قليل من العلماء المتثبتين، يندر فيهم من يصبر عليها، ويأخذ نفسه بها أو يملك على الأقل أن يتكلفها ساعة، فضلا عن ساعات طوال وأيام.

وما ذكرت هذا العالم الجليل، إلا ذكرت معه عبد الملك بن مروان، وكان عبد الملك، قبل أن يتولى ما تولى من سلطان الخلافة، معدودًا في علماء أهل المدينة، وزارها عمرو بن العاص رضي الله عنه، وخالطه مدة إقامته بها، فلما رحل إلى الشام ذكره عند معاوية رضي الله عنه، ووصفه له، فكان مما قاله: هو آخذ تارك «الثلاث» آخذ بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر الأمرين إذا خولف، تارك للمراء، تارك لمقارنة اللئيم، تارك لما يعتذر منه.

رحم الله أخي وصديقي، كان عالمًا إذا التمست علمه، وصديقًا منجدًا إذا التمست صداقته، وأنيسًا جذابًا إذا التمست حسن العشرة. وكان لسانًا حلوًا صادقًا وإنسانًا كريم الجوهر، كأنه لؤلؤة صافية لا يشوبها كدر، وأنى لمثلي أن يكون خلفًا لمثله وأنا أخشى أن أكون قد قصرت أشد التقصير من حيث كنت أتوخى الوفاء، وأن أكون قد بخسته حقه وظلمته من حيث كنت أتحرى الإنصاف والعدل.

وقد اضطررت إلى الحديث عن هذا السلف الجليل اضطرارا إلى فرط نفسي على هذا الحديث قهرًا والتزمت أن لا أقول إلا ما خبرته فيه بنفسي، في زمن قليل جدًا لا يتيح لي أن أوفيه حقه، وأنا على يقين من أن هذا القدر، الذي خبرته بنفسي من خصاله، قليل في جانب ما خبرتموه أنتم بطول عشرتكم له من فضائله المذكورة الباقية. غفر الله لي ولكم.

بقي الحرج الأكبر الذي وقعت فيه، فقد تفضلتم علي بضمي إلى مجمعكم الموقر، وخلتموني صالحًا للجلوس بينكم، فلا أدري كيف أسدي الشكر لكم على حسن ظنكم بي. ولا أدري ما أقول لأخي وابن خالي الأستاذ الكبير عبد السلام محمد هارون، الذي وقع هو أيضًا في الحرج، حين كلف بتقديمي إليكم، وإنما أوقعه في الحرج هذا النسب الداخل بيني وبينه، بأي لسان أشكر، وأنا لا أملك إلا هذا اللسان العاجز الذي ألف الصمت دهرا طويلًا. فاقبلوا بفضلكم عذري وتغمدوا بكرمكم إساءة عجزي، وقد أحسنتم إلي بظهر الغيب، فأتموا إحسانكم علي في مشهدي وحضوري، وأقول لكم ما قال أبو عبادة للفتح بن خاقان:

ومثلك إن أبدى الفعال أعده ❊ وإن صنع المعروف زاد وتمما

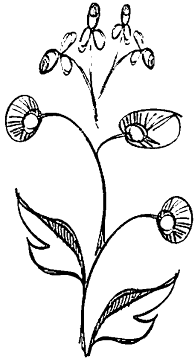
وأنتم أيها الرجال الأجلاء، أهل ذلك وأكبر منه.

أما الآن وقد فرغت مما كنت قد أعددته، وقد سمعت ما قاله في أخي وابن خالي الأستاذ عبد السلام محمد هارون، فقد كنت وأنا أسمعه، أزور في نفسي كلامًا له ولكم، ولكن قد طار مني الآن، فلم يبق منه شيء يمكن أن أقوله. ولكنني كأني أسمع شيخ المعرة يهمس في أذني أن أنشدكم قوله في نفسه، وقد لقي من بعض الناس مثل الذي لقيته فقال:

من لِيَ أنْ لا أُقيمَ في بلدٍ أذكر فيه بغير ما يجب
يُظَنُّ بِي اليُسْرُ والديانةُ والعلمُ وبيني وبينها حُجُبُ
أقررت بالجهل، وادَّعَى فَهَمِي قومٌ، فأمري وأمرهم عَجَبُ!

أمري وأمركم عجب، أيها الرجال الأجلاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٣) حوار المجلة العربية



حوار المجلة العربية مع شيخ العربية العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله، سنة ١٩٨٥م

- ماذا تعمل الآن؟

- عملي الآن في (كتاب تهذيب الآثار وتفضيل الثابت من الأخبار عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم) لأبي جعفر الطبري. فأنا أقضي فيه أكثر يومي وهو كتاب في علم الحديث وفيه منهج أبي جعفر في فقهه.

وأبو جعفر كما ينبغي أن تعلم كان إمامًا صاحب مذهب ثم خفي مذهبه بعد ذلك، وثبتت المذاهب الأربعة المشهورة. فهذا عملي في يومي، مع ما يتخلله من الراحة ومن القراءة. أما غير ذلك فلا أحب أن أتحدث فيه.

- هل تحدثنا عن خلافك الشهير مع الدكتور طه حسين؟

- هذه القصة كتبتها مرارًا.. كانت المسألة بإيجاز أني كنت شابًا عنيفًا ودخلت الجامعة وسمعت الدكتور طه حسين يتكلم في موضوع كان مسبوقًا إليه في تلك السنة أو قبلها بسنة (في ١٩٢٥) ببحث كتبه «مرجليوث» وهو مستشرق وصفته في بعض كتبي بأنه «مستشرق بلا عقل»، كتب كلامًا سخيفًا جدًا عن الشعر الجاهلي، وخلاصة ما قاله الدكتور طه حسين هو ما كتب «مرجليوث»، من أن الشعر الجاهلي موضوع كله لأنه لا يدل على الجاهلية في شيء إنما هو شعر إسلامي محض وضعه الرواة على ألسنة شعراء الجاهلية هذه خلاصة ما قاله مرجليوث واستدل عليه بأشياء كثيرة سخيفة جدًا.

وجاء الدكتور طه حسين فخلصه من بعض هذا السخف ولكن أخذ لب الفكرة وصاغها من جديد صياغة أخرى تتضمن جزءًا من الحجج التي ساقها هذا المستشرق الغبي. فالمشكلة في الحقيقة أنه لم يسؤني أن يقول الدكتور طه هذا الكلام

إنـما الـذي سـاءني هـو سـطوه عـلى فكـر رجـل آخـر، وادعـاؤه لنفسـه وإلقـاؤه علينـا كأنـه شيء يمتلكـه لأنـه بـدأه بـدءًا مـن عنـد نفسـه. كانـت هـذه المسـألة التـي أثارتنـي أكثـر مما أثـارني الطعـن في الشـعر الجاهـلي.

- وهل كنت قد اطلعت على آراء مرجليـوث؟

- نعـم كنـت قـد قرأتهـا وأنـا طالـب في الثانويـة، كنـت عـلى علـم بهـا، وعنـد دخـولي الجامعـة المصريـة نفـرت مـن هـذا الأمـر نفـورًا شـديدًا، واحتملـت السـنة الأولى، وفي غضـون السـنة الثانيـة، لم أملـك إلا أن أفـر بنفسـي مـن الجامعـة. لم يكـن قـرارًا بالمعنـى الـذي تتوهمـه مـن اسـتعمال لفـظ «قـرار» ولكـن غلبتنـي طبيعتـي في الحقيقـة، وهـي ضعفـي عـن المصارعـة والتغيير، ولذلـك انقلـب الأمـر. بعـد أن تركـت الجامعـة إلى إعـادة النظـر في قضيـة الشـعر الجاهـلي مـن جديـد.

- إذن هل كتبت شيئًـا في هذه القضيــة؟

- لا، فقـد انتهيـت إلى أن القضيـة كـما سـاقها الدكتـور طـه ثرثـرة فارغـة، فوضعتهـا لنفسـي وضعًـا آخـر، وعـلى أساسـه بـدأت أدرس القضيـة مـن جديـد، منـذ فارقـت مصـر سـنة (١٩٢٨) وأقمـت في بـلاد الحجـاز إلى أواسـط سـنة (١٩٢٩م).

- وما هـو الوضـع الجديـد؟

- يخيـل إلي أن شرح هـذا لا يصلـح لحديـث صحفـي، ولكـن جوهـره بإيجـاز شـديد، هـو أني رأيـت أن عـزل قضيـة الشـعر الجاهـلي عـن أغـرب حـدث في تاريـخ البشر، خطأ كبير، وعبـث، محـال أن يـؤدي إلى النتيجـة، وهـذا الحـدث الغريـب الفريـد هـو نـزول القـرآن منجـمًا (أي سـورًا متفرقـة، ولم ينـزل جملـة واحـدة) عـلى مـدى ثـلاث وعشريـن سـنة. وتذكـرت نزولـه عـلى هـذه الهيئـة أمـر مهـم جـدًا لفهـم هـذه القضيـة، ولا أدري هـل أوفـق الآن في عرضهـا أم أخفـق، لأنهـا صعبـة ومتعـددة الجوانـب، وتحتـاج إلى دقـة في العـرض والتتبـع. وسـأحاول أن أشرحهـا بإيجـاز وأخشـى أن يكـون إيجـاز مخـلًا.

فمحمـد صـلى الله عليـه وسـلم، قـام فجـأة في قريـش، وقـال لهـم وللعـرب جميعًـا: إني نبـي ومرسـل مـن عنـد الله، بعـد أن عـاش فيهـم أربعـين سـنة يعرفهـم ويعرفونـه، ولم يكـن معـه يومئـذ برهـان عـلى نبوتـه، إلا خمـس آيـات يتلوهـا عليهـم مـن أول سـورة

العلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وألح عليهم بأنه نبي، ثم لا ينزل عليه إلا سور قصار قليلة العدد يتلوها عليهم، ولما طال إلحاحه عليهم طالبوه بأن يأتيهم بآية يعاينونها كآيات الأنبياء كآيات الأنبياء السابقين، كناقة صالح وعصا موسى، وما أوتي عيسى بن مريم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. أي: يبصرونها بأعينهم، ويعلمون بمعاينتها إنها آية من الله لا يطيق الإتيان بها إلا نبي..

فأمره الله ألا يستجيب لهم، فإنما الآيات من عند الله، وأن يقول لهم: إن أنا إلا نذير، وآيتي هي هذا الذي أتلوه عليكم، وقد عشت فيكم عمرًا من قبله، وأنتم مطالبون أن تتبينوا أن هذا الكلام الذي أتلوه عليكم بلسان عربي مبين هو لسانكم، إنما هو كلام الله، لا كلامي أنا، كلام مباين لكلام البشر مثلي ومثلكم. وهو لكم آية كآية الأنبياء السابقين، بل هي أكبر، تلك آيات تبصرها العيون لحظة ثم تنقضي، وهذا الذي جئتكم به آية فريدة في تاريخ الجنس البشري، أقرع بها أسماعكم يومًا بعد يوم حتى تتبينوا أن الذي جئتكم به هو «كلام الله» منزلًا بلسانكم، وعليكم أنتم أن تتبينوا أنه «كلام الله».

فأخذ الآية التي لا مثيل لها في آيات الأنبياء من قبل، التي تسمع ولا ترى، وهذه المطالبة الغريبة التي لا مثيل لها في تاريخ النبوات، تجعلنا نقتفي أمورًا كثيرة منها:

أولًا: أنهم لا يمكن أن يطالبوا بهذا التفريق بين ما يعهدونه من الكلام، وبين هذا الكلام الذي يسمعونه يتلى عليهم، إلا وهم قادرون على هذه التفرقة، وإلا كانت المطالبة عبثًا محضًا.

ثانيًا: أن هذه القدرة لا يمكن أن يحوزها إلا متمرس تمرسًا كاملًا بالتمييز الدقيق الناصع، في كل كلام يبين به الناس عن أنفسهم.

ثالثًا: أن هذا التمييز لا يكتسب من فراغ، بل من طاقة هائلة من البيان متمثلة في صورة شعر أو أدب أو فن أو محاورة، أي من كل ما تخرجه طاقة البيان عن نفس، في كل غرض من الأغراض.

رابعًا: أن تكون اللغة التي تظهر فيها هذه الطاقة الهائلة على البيان الإنساني، مبلغًا يحيط بجميع أصول البيان في الجنس الإنساني على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم، وفي جميع عصوره منذ أول الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهـذه الـشروط الأربعـة التـي أقتـصر الآن عـلى ذكرهـا في هـذا الحديـث، إذا لم تكـن موجـودة في هـؤلاء العـرب المبـين، فالمطالبـة كلهـا عبـث محـض، ولا يمكـن أن يتحقـق منهـا شيء، ولكـن الـذي حـدث كان خـلاف ذلـك فإنـه منـذ نزلـت الآيـة ﴿اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَـقَ﴾ خمـس آيـات لا أكثـر، آمـن بمحمـد صـلى الله عليـه وسـلم الواحـد والاثنـان والثلاثـة، ثـم لم يلبـث إلا قليـلًا حتـى بـدأ الأمـر يسـتشري ويـزداد. وتكاثـر بعـد سـنوات قلائـل عـدد السـور القصـار التـي تتـلى عليهـم، فهبـت قريـش فجـأة تضطهـد هـذا الرجـل، والقليـل الذيـن آمنـوا معـه، اضطهـادًا لا نظـير لـه في تاريـخ الأنبيـاء، ومعنـى هـذا أن هـؤلاء المشركـين الذيـن هبـوا يقاومونـه، قـد بـدأوا يتبينـون هـم أيضًـا أن هـذا القليـل المنـزل مـن السـور، كلام مفـارق لـكلام البـشر، وعرفـوا يقينًـا لا شـك فيـه أنـه آيـة كآيـة العصـا وآيـة إحيـاء الموتـى، وأنـه كلام الله فقاومـوه وكفـروا بـه، كـما كفـر بنـو إسرائيـل وآل فرعـون بآيـة موسـى التـي عاينـوا بأبصارهـم، وكـما كفـرت اليهـود بآيـات عيسـى وهـم يرونهـا عيانًـا.

والمقارنـة تـأتي بأعجـب النتائـج فالذيـن رأوا آيـات الأنبيـاء السـابقين بأعينهـم، ولم يؤمـن منهـم إلا عـدد قليـل، لم يؤمـن بموسـى مـدة حياتـه إلا قلـة مـن بنـي إسرائيـل، ثـم عقـب[1] الذيـن كانـوا معـه ولم يؤمنـوا أربعـين سـنة تائهـين في الأرض. ولم يؤمـن مـن اليهـود بعيسـى ابـن مريـم محـي الموتـى بـإذن الله – في فـترة حياتـه – سـوى عـدد يعـدون عـلى الأصابـع. أمـا هـؤلاء العـرب الذيـن كانـت الآيـة نبيهـم هـي مـا يتلـوه عليهـم بلسـانهم العـربي، ويطالبهـم بـأن يتبينـوا بأنفسـهم وعقولهـم أنـه كلام الله المفـارق لـكلام البـشر، وأنـه آيـة كآيـات الأنبيـاء المشـاهدة عيانًـا فلـم يبلـغ كتابـه أجلـه حتـى كان عـدد الذيـن آمنـوا بنبوتـه، وبـأن الـذي يتـلى عليهـم هـو «كلام الله»، قـد بلـغ آلافًـا مؤلفـة في أرجـاء الجزيـرة العـرب المتراميـة الأطـراف، أمـة كاملـة آمنـت وحتـى الذيـن كفـروا بـه وقاتلـوه، فقـد عرفـوا أنـه نبـي، وعرفـوا أن الـذي ينـزل عليـه، آيـة (أي معجـزة) فجحـدوا بهـا واسـتيقنتها أنفسـهم، كـما فعـل كل مـن كفـر بالآيـات التـي تـرى بالعـين.

(١) لعلها عوقب.

ولما كان أصحاب هذا الشعر الجاهلي الذي عندنا منه قليل من كثير، هم أنفسهم هؤلاء الذين جاءهم هذا النبي صلى الله عليه وسلم وطالبهم بها طالبهم به، فقد دخلت قضية الشعر الجاهلي كلها في إطار هذا الوضع، وفي سياق هذا الحديث الفريد في تاريخ النبوات، فإذا كان هذا الشعر الجاهلي دالًّا على أن أصحابه قادرون على تمييز، والشرط الثاني، ودالًّا على أن لهم طاقة هائلة على البيان متمثلة في شعرهم في كل غرض، وهو الشرط الثالث، ودالًّا على أن لسانهم العربي قد بلغ من المرونة والاستجابة للبيان الإنساني مبلغًا يحيط بجميع أصول البيان في الجنس البشري على اختلاف ألسنته ولغاته، إذا كان ذلك موجودًا في الشعر الجاهلي، فقد صح هذا الشعر وصحت نسبته إليهم وبطلت الثرثرة الفارغة التي تشكك في صحة الشعر الجاهلي.

هذه خلاصة سريعة لما دار في نفسي، فمن يومئذ أقرأ الشعر الجاهلي كله على أساس جديد، ولكنني لم أقرأه وحده بل قرأت كل كلام عربي، سواء كان شعرًا جاهليًّ أو إسلاميًا أو شعرًا حديثًا، وقرأت كل ما أستطيع أن أقرأه من كلام يعبر به الناس عن أنفسهم، ونظري مصروف كله إلى هذه القضية. وقد فرغت منها بحمد الله بعد عشر سنوات من سنة (١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٨ تقريبًا)، وكان خير ما حصلته في السنوات العشر، هو أني حمدت الله حمدًا كثيرًا على أني ولدت منسوبًا إلى هذه الأمة العظيمة، وإلى هذا اللسان العربي المبين، ونعمة من الله سابغة جاءتني بغير سعي ولا إرادة.

- ألم تواجه الدكتور طه حسين مباشرة برأيك؟

- لا.. هذا الوضع جاء بعد مفارقتي الجامعة، أما في الجامعة فقد واجهته في مسألة الشك ومسألة المنهج، وفي هذه الحجج التي كان يسوقها مؤيدًا، أو مفسرًا على الأصح رأي مرجليوث في أن الشعر الجاهلي شعر إسلامي، ليس من الجاهلية في شيء. وكان عجيبًا، ولم يزل، أن يتولى هذا التأييد لمستشرق من أغبى المستشرقين= رجل في مثل ذكاء الدكتور طه وفي مثل قدرته على الجدل.

- عندما قررت هجر الجامعة اخترت الرحيل إلى الحجاز.. لماذا الحجاز؟

- كانت هذه القضية جزءًا من قضايا أكبر منها، ففي تلك السنوات كانت حياتنا الاجتماعية والسياسية والأدبية كلها في اضطراب شديد الثرثرة، وإذلال الأمة تحت أقدام الغزو العسكري والثقافي، وتقوض العالم الإسلامي بعد قرار مصطفى كمال بإلغاء الخلافة.. كانت أيامًا متفجرة، دويها يزلزل القلوب والآذان، وكان الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله قد فتح الحجاز، وملك الجزيرة العربية، فبدا لي أن الفرار إلى أرض تعلو فيها صحة العقيدة، وليس فيها مستعمر يذلني ويهينني= أمر مستحسن، وعسى أن أجد هناك ما يريحني من هذا الذل الذي أجده في أرض دنسها مكر الغزاة وعبثهم بنا وبعقولنا وبيوتنا وبأرضنا كلها.. وتفصيل ذلك يحتاج إلى كتب تؤلف.

- عملك هو تحقيق التراث؟

- ليس لي عمل يسمى تحقيقًا! إنما أنا قارئ، أقرأ ما أمامي بدقة، وأعطيه الناس كما قرأته بعد الجهد والأناة والمراجعة الطويلة.

- عملك هذا يتطلب جهدًا، فهل يوجد جيل جديد مقبل على هذا العمل؟

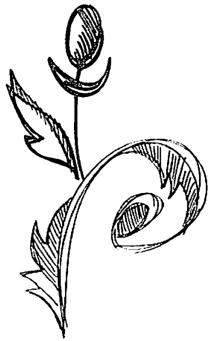
- نعم.. قليل.. قليل جدًا، ولكنه لم ينجُ كلَّ النجاة من الحيرة والضياع، وعسى أن ينتبهوا ويتواضعوا، ولا تغرهم أنفسهم، فالغرور هو البلاء الماحق!

- ماذا بقي من معاركك القديمة؟

- ليس بيني وبين أحد معارك، لم أدخل في معركة قط.

- ماذا تسميها؟

- أنا أكتب الحق كما أراه، وأهاجم الباطل كما أعرفه، بلا تردد وبلا مراوغة، وبعد حذر شديد وأناة، وأكتب ما أكتبه صريحًا لا يحتمل التأويل.. هذا كل ما هنالك.



(٤) لقاء جامعة الآداب

لقاء العلامة أبي فهر بطلبة جامعة الآداب بالأسكندرية، سنة ١٩٨٠م[١]

يشرفنا بالحضور في هذا الصباح مرة أخرى ليقرأ علينا نصًّا لم يسبق نشره، ولا شك أنه إضافة جديدة لروائعه التي طالما أمتعت القراء في كل مكان في العالم العربي والإسلامي، وسوف يتفضل الأستاذ محمود شاكر بعد ذلك بلقاء أبنائه من طلاب قسم اللغة العربية، ليستمع إلى أسئلتهم ويجيب عنها..

ويسعدني أن يحضر اليوم هذا اللقاء أستاذنا الجليل الدكتور طه الحاجري، وأستاذنا الجليل الأستاذ إبراهيم صبري، ولا أريد أن أطيل عليكم فاللقاء الآن مع محمود شاكر.

السلام عليكم

لم أكن أتوقع يومًا مَّا أن أجلس في هذا المكان لأني منذ نشأت وأنا عاكف على شيء واحد هو إمساك القلم، أما مخاطبة الناس فإني في الحقيقة أعتد نفسي عاجزا كل العجز.. فلم أقف يومًا ما بين جماهير الناس لأتكلم سوى مرة واحدة! وأنتم جميعًا في منزلة أحفادي، ولكني بينكم الآن كالطفل المبتدئ.. فأنا شديد الاضطراب، أخافكم جميعًا ! وأخاف أكثر ما أخاف عيونكم!

فإن الإنسان شيء غامض كل الغموض وأفكاره عن غيره أيضًا تتسم بشيء من المكر والدهاء والغموض المخيف!

ولكن أرجو أن تعذروني؛ لأني كما قلت لكم لم أقف هذا الموقف يومًا ما، وكل ما أستطيع أن أقوله أني فوجئت أمس بما تفضل به علي ولدي وصديقي وأستاذكم الكبير الدكتور مصطفى هدارة بما أضفاه علي من نعوت لا أظن أني أستحقها، وأنا قد لقيت هذا الطالب محمد مصطفى هدارة منذ ثلاثين سنة طالبًا مثلكم، وعرفته

(١) وهو من أجل لقاءاته وأعظمها بيانًا عن نفسه.

كبيرًا وعرفت أخلاقه، ومن هذه الأخلاق هو هذا الاهتمام الذي أضفاه على كلمات كنت قد كتبتها قديمًا، وفوجئت فعلًا بالصورة التي أُخْرِج بها هذا العمل الصغير والذي لم يهتم به أحد إلا قليل من الناس عند ظهوره في سنة (١٩٥٢)[١].

فيما أظن لا أستطيع أن أكافئ الدكتور هدارة بشيء إلا بأن أن أقف بينكم خجولًا لأقرأ عليكم شيئًا آخر لم يسمعه مني إلا عدد قليل، ولم يقرأه إلا أقل القليل وهي قصيدة طويلة كنت أنشأتها قبل أن أكتب القوس العذراء بزمن في ظروف عسيرة كانت تمر بي شخصيًا، وكانت تمر بهذه الأمة التي أعيش بينها متفرجًا ومتأملًا وخائفًا على مستقبلها، والقصيدة في الحقيقة بدؤها عن الجنس الإنساني بعد أن شهد العالم الحرب العالمية الثانية، وبعد المحن التي مرت بالعالم العربي والإسلامي منذ إلغاء الخلافة إلى تلك السنة البشعة التي بدأ فيها فعلًا تحولٌ شديدٌ جدًا في تاريخ الأمة العربية والإسلامية دون أن ينتبه إليه أحد، وهو أعقاب الحرب العالمية العظمى في سنة (١٩٤٨).

لا أدري هل أستطيع أن أنقل إليكم عن طريق النثر والكلام تاريخًا طويلًا عشته وكان عاملًا من أهم العوامل التي دعتني إلى إنشاء هذه القصيدة، والتي شهد ميلادها أخي إبراهيم صبري الشاعر التركي العظيم الذي لا تعرفون لسانه، ولكنه أحد شعراء الترك العظام الذين هاجروا من بلادهم بعد المحنة العظمى بإلغاء الخلافة، وحُكِم عليه وعلى والده رحمة الله عليه شيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبري بحكم الإعدام، والذي لم يزل قائمًا إلى عهد قريب.

وشهده أيضًا رجل سمعتم أمس أو سمع بعضكم أمس قصيدته التي قدم بها بخطه للقوس العذراء، وهو صديقي العظيم وأحد كبار شعراء هذه الأمة محمود حسن إسماعيل رحمة الله عليه..

أظن أن مجرد قراءتي لهذه الأبيات أو لصدر هذه القصيدة اعتراف بجميلكم علي، وجميل الدكتور مصطفى هدارة وجامعة الأسكندرية التي ولدت بها سنة (١٩٠٩) فاعترافًا بهذا الجميل أبدأ في قراءة هذه القصيدة.

– ثم قرأ الأستاذ القصيدة المنشورة بديوانه المعروف. –

(١) يعني القوس العذراء.

ثـم علـق الدكتـور هـدارة قائـلًا: نتمنـى أن نسـمع القصيـدة بأكملهـا إن شـاء الله ونتمنى أن نـرى ديوان محمود شـاكر هـذا أمل يـراود الجميع ونحب أن نسـمع أخبـارًا عـن هـذا الديـوان قريبًـا.

- أنـا أنـشر شعـرًا قليـلًا.

الآن نفتـح بـاب المناقشـة والحـوار

مـع أستاذنـــا الكبـــير محمــود شاكـــر:

* نلاحـظ أنكـم تأخـذون الأدب مـن منطلـق سـلفي وتجعلـون للقديـم قداسـته، فهـل أنتـم ضـد التجديـد؟ وهـل كان موقفكـم مـن الدكتـور طـه حسـين جـزءًا مـن موقفكـم مـن التجديـد؟ أو أنـه موقـف خـاص؟ وإن كان عامًـا فلـماذا خصصـت بالذكـر الدكتـور طـه حسـين؟

أولًا: أنـا لا أسـتطيع أن أجيـب عـن شيء دون أن أفكـر فيـه كـما قلـت لكـم أني تعـودت أن أكتـب مـا أريـد، أمـا التعبير باللسـان فهـذا شيء مفـروض عـلي؛ لأني إنسـان فقـط! أنـا عاجـز دائـمًا عـن التعبـير.

- كما قلت أمس لبعض إخواننا من الأساتـذة:

كـما تعلمـون كنـت طالبًـا في المـدارس ونشـأت نشـأة محـب للرياضيـات منـذ الصغـر، ثـم شـغلت وأنـا أيضًـا أشـتغل بالرياضيـات - كنـت مشـغولًا بـالأدب منهومًـا بـه - فأنـا أول مـا أحـب، تحديـد الألفـاظ فالآنسـة - نجـوى - اسـتخدمت لفظًـا كتبـتُ عنـه كثـيرًا، وكيـف وُضـع وكيـف جـاء..

هي كلمة «السلفية»، وهذا شيء غريب!

ويقابل السلفية بالطبع أو هي ستار لمعنى آخر هو كلمة الرجعية.

وهذه الألفاظ جاءت منذ عهد قريب جدًا.

قديـمًا كان يقـال: القديـم والجديـد والتجديـد وهـذه الألفـاظ الكثـيرة التـي لا محصـول لهـا عـلى الحقيقـة في أي أمـة، لكـن البـشر طِـوَال الألسـنة! وطـوال الأيـدي في هـذا الزمـن

أيضًا..طوال الألسنة، يُحدثون كلامًا يشغلون به أوقاتهم وإلا فالحياة الإنسانية تسير سيرا طبيعيًا لا يُنظر فيه إلى القديم والحديث إلا عند المصارعة فقط!

ولكن الحقيقة هي سائرة بغيرها لا يستطيع إنسان يعيش سنة (١٩٨٠) مثلًا أن يكون قديمًا على أي صورة من الصور!

هو موجود في هذا القرن لا يمكن أن يكون سلفيًا.

لكن الإنسان يرى الأشياء من داخل إطار كامل، فأنا منذ نشأت وإن الإطار الكامل هو أن الأمة تيار واحد لا ينفك بعضه عن بعض منذ عهد أبينا إسماعيل عندما فُتِق لسانه بالعربية، فنحن أبناؤه ينبغي أن يكون هذا اللسان هو أصلنا وهو منتهانا.

والمدد واحد ولا ينقطع ولا يختلف محمود شاكر عن أبيه إسماعيل في شيء إلا بما فضل الله به الناس بعضهم على بعض.

لكن من حيث هو إنسان من حيث هو حيوان ناطق ينبغي أن يكون صاحب لسان، وأن يستخدم هذا اللسان كما استخدمه أبوه إسماعيل مع التغيرات الضخمة التي حدثت منذ عهد أبينا إسماعيل إلى هذا اليوم.

فهذا اللسان متكامل وباقٍ وممتد.

واللسان هنا ليس معناه ما نتطارحه في قارعة الطريق من الأخبار والأحاديث والمطالب التي يعيش بها الإنسان، فهذا في كل زمن له لغة مستقلة، لكن اللغة التي تتصل بالعقل وبالعاطفة الإنسانية ينبغي أن تكون لغةً متكاملة مضبوطة.

فأنا - مثلًا أضرب مثالًا بنفسي -: الألفاظ التي أستعملها هي ميراث آبائي لكنني لم أستعملها استعمالهم، أنا أستعملها بما أنا به محمود شاكر.

فخداع الشباب باسم هذا الشيء الذي يُسمى السلفية أو غير السلفية هو خداع فقط في التهاون وترك التهاون. أنا لم أتهاون، وآخرون يريدون أن يتهاونوا، وأنا لا أتهاون.

الفرق: أني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذا تيار مستمر كل كلمة فيه باقية إلى أن يفنى هذا الجنس، إلى أن تقوم الساعة، لا بد أن يكون هكذا، هذه حياة الأمم. ولذلك مثل هذه المناقشة لا تدور بالنسبة للغة ولا استعمال اللغة أبدا في عالمٍ سوى عالمنا نحن!

أو: عندما تتم دورة الحضارة وتبتدئ اللغة في الانحدار (أو جيل عايش في الانحدار) يظهر مثل هذا، لكن نحن في الحقيقة الآن العالم الذي يسمى العالم الثالث هو العالم وارث انحدار الطبيعي وعلى رأس هؤلاء الورثة ينبغي أن يكون العرب والمسلمون، وهم المكلفون بأن يكونوا جادين لا هازلين.

وأنا منذ نشأت نشأت في الهزل لأني كنت طالبًا في المدارس التي نشأتم جميعًا فيها، وربانا دنلوب وأنشأنا هذه النشأة وانتهينا إلى هذا النوع من التفكير الذي انتشر وغلب على صحافتنا وكتبنا وأساتذتنا، فأدخلونا في هزل كبير لا معنى له.

لكن الحقيقة الكامنة: أن الواجب على كل منا أن يلتزم بهذه اللغة وأن يراها من داخلها لأنها لغة عجيبة شريفة فعلًا وأنا أتكلم بلسان المسلم: إذا لم أعتقد أن هذه اللغة شريفة أفقد الجزء الأكبر من إيماني!

أنا لا أستخدم لفظًا كالذي قرأت أمس قصيدة الشماخ، أنا لا أتيكم بهذا، أنا آتي بالألفاظ الإنسانية الكاملة الموجودة في استعمالي اليومي التي أريد لها دلالة وهو عاملي النفسي الموجود في داخلي.

لغتي موجود فيها هذا، ليس هناك معنى أن أترك ما هو موجود لألتمس كلمات قلائل أعيش بها هذه اللغة، وأدعي أنني بها أديب أو كاتب أو عالم أو شاعر.

اللغة شيء مستمر وهو نهر متدفق لا ينقطع، ولكن الأساس الذي ينبغي أن يدخل به دارس هذه اللغة هو الاعتقاد الجازم بشرف هذه اللغة بمجرد نزول القرآن الذي تحدى به العرب، لا التحدي الذي استعمله الجاحظ والذي هو في علم الكلام، إنما تحداهم بشيء واحد أن ائتمنهم على أن يفرقوا بين كلامين؛ بين كلام البشر والإنس والجن كله، وأن يكون هذا الكلام هو كلام الله بالدليل الواقع في أنفسهم؛ أن يعلموا من حقيقة أنفسهم أن هذا كلام الله وليس لرسول الله معجزة سوى هذا!

هي الدليل على نبوته، فلو فقدنا هذا الدليل، لو تركنا هذا الدليل= سقطت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن شرف هذه اللغة أنها نزل بها كلام الله الذي لا يتغير ولا يتبدل.

فهذه أول قاعدة في نفسي لأني أنا دخلت المعركة صغيرًا كنت كمثلكم طالبًا فدخلت هذه المعركة في الاعتقاد أولاً فعندما اعتقدت أن هذا الكلام كلام الله وأن هذه اللغة نزل بها كلام الله وأن هذا رسول الله كان واجبًا عليّ أن ألتزم بهذه اللغة أن أكون داخلاً في سرها.

عندما أدرس قديمها كما رأيتم في شعري أو في ما كتبت، وعندما ترونني الآن أنشئ فيها كلامًا أو كتابة فأنا ألتزم بما فيها من أسرارها بالمعاصرة التي أنا فيها في سنة (١٩٨٠).

فهذه ليست سلفية، لكن هذا امتداد للغةٍ كاملةِ التكوين منذ قرون طويلة، لم تستطع لغة في العالم أن تبلغها إلى هذا اليوم كاملة التكوين!

ولكن نذالة أبنائها وضعف هممهم وافتقارهم إلى الجد جعلهم يتركون الأصل الذي ينبغي أن يتشبثوا به ويتجهوا اتجاهًا آخر مبنيًّا على شيء من التساهل الكثير وترك الاهتمام.

لكن المهتم لا يستطيع أن يتخلى عن هذه اللغة وعن استعمالها في الزمن الذي يعيش فيه.

أنا لا أستطيع أن أفكر بعقل الجاحظ، ولا أستطيع أن أفكر بعقل امرئ القيس، ولا أستطيع أن تكون الصور التي في عقل الشماخ هي التي في عقلي.

أنا وضعت القصيدة، ووضعت الدلالة التي استخرجتها من كلامه في نفسي أنا، ووضعتها بنفسي، بألفاظي ليس لهم فيها فضل، إلا الكلمة التي كأنها مصطلح، كما يقول: الثقاف أو الطريدة، هذا اسم الشيء لكن بقية المعاني وكذلك اللغات تسير هذه السيرة.

وأنا بطبيعة الحال درست اللغة الإنجليزية طالبًا إلى الثانوي، ثم درست الفرنسية ثم درست الألمانية، واتصلت بجذور المسألة وجميع لغات العالم تسير فيما أقول لكم بالاتجاه الصارم في الاهتمام في أعماق اللغة إلى هذا اليوم!

ولا يوجد أمة تتساهل أو تتهم كتابها أو تقسم كتابها بالتقسيم الذي أنشأه أعوان برنستون - (وبتاع إنجلترا التاني ده بتاع سلامة موسى - والتانيين اللي بيقولوا عليه، ويقولولنا سلفيين إحنا مش سلفيين)!

نحن مسلمون، هم يضعون كلمة سلفية مكان «مسلمون»، يعني الذين يعتقدون أن هذا الكتاب أشرف كتاب في الأرض، وأن هذه اللغة أشرف لغة في الأرض، وأن أصح شيء موجود على ظهر الأرض من العلم هو كتاب الله. هذه عقائدنا نحن.. من داخل هذه العقيدة أنا أتكلم.

الأمر الثاني: ذكرتِ خلافي مع رجل يقال له الدكتور طه حسين!

مع الأسف هو أستاذي وصديقي أيضًا وهؤلاء جميعًا من الأساتذة يعرفون علاقتي مع الدكتور طه حسين. وأنا خالفت الدكتور طه حسين طالبًا أقل من سنكم؛ لأني كنت في السادسة عشرة من عمري، ولكني كنت في ذلك الوقت -لأني أخذت المسألة مسألة جد- كنت في ذلك الوقت قارئًا للشعر الجاهلي قراءة كاملة، ودارسًا على الذي درس عليه الدكتور طه حسين، ولكنه هو درس القليل وأنا درست كتبه كاملة، وهو الشيخ سيد بن علي المرصفي.

فلما دخلت الجامعة وبدأت المسألة بيني وبين الدكتور طه، وبالطبع هو أستاذي؛ لأني كنت أقرأ له كما أقرأ للعقاد وللمازني، يعني من هذه الناحية نحن نعترف للناس بما لهم علينا، من الناحية الأستاذية العامة.

فلما دخلت ووقعت معه في المعركة التي تعترض، ووقع الشك في نفسي في بدء المسألة -، وهنا وقع الاعتراض بيني وبين الدكتور طه لكن الاعتراض قائم على أصول:

أنا عندما اعترضت على الدكتور طه اعترضت قبل مسألة الشعر الجاهلي؛ فأنا كنت قرأتها قبل أن يكتبها هو قبل أن يقولها؛ لأنها ملخص لشيء معروف، وذكرت هذا الكلام في «المتنبي».

الحقيقة التي كانت: أن الدكتور طه حسين لم تكن المشكلة في رأيه في الشعر الجاهلي؛ فهذه الأشياء لا تهمنا لا قليلًا ولا كثيرًا، فالذي يريد أن يدرس لغته لا تهمه هذه الأشياء في كثير ولا قليل.

من يقول: إن هذا مصنوع يقول، ومن لا يقول.. يعني هذا موضوع بسيط في الحقيقة ليس كبيرًا.

لكن الموضوع الأساسي الذي كان بيني وبين الدكتور، وهو الأساس، هو أنني طالب مصري دخلت المدارس المصرية من السنة الأولى الابتدائية إلى أن وصلت إلى دخولي الجامعة في سنة ١٩٢٦، أعلم حقيقة الطالب المصري وأنا طالب مصري: ما المقدار الذي يعرفه من اللغة، والذي يعرفه من الشعر، والذي يعرفه من الأدب، فكان رأيي للدكتور طه:

خير من أن تقول لنا هذا الكلام، ضع كتاب الكامل للمبرد، ويظل هؤلاء الطلبة عشرين سنة يقرأون شعر البحتري أولًا، وشعر امرئ القيس، وشعر زهير، بالعلة التي فيه، ثم بعد ذلك قل لهم ما تشاء!

لكن أن يبدأ طالب لا يحسن قراءة اسمه - كما أقول لكِ ولزملائك وأنا لا أطعن في أحد- ولن أذكر اسمًا!

طلبة لا يمكن أن يكونوا قرءوا شيئًا سوى ما كان مقررًا عليهم في المدرسة، فدخل الواحد منهم ضعيفًا، ليس مريدًا، بل دخل لضعفه هذا القسم أو لغرض من الأغراض، وليس لحبه اللغة ولا لمعرفته باللغة، فمن هنا نشأت المعركة بيني وبين الدكتور طه: أنك ترتكب جريمة في حقنا، وأنا أدافع عن نفسي، وأدافع عن إخواني.. أنت ترتكب جريمة كبيرة.

لكن في الحقيقة الدكتور طه كان يعلم السبب الثاني، والشباب كلهم كانوا ضدي، لكن الدكتور طه كان يعرف حقيقة أنني دارس على أستاذه أيضًا ويعرفني ويعرف أبي ويعرف بيتي ويعرف صلتي ويعرف صلتي بشوقي وبحافظ وبه هو نفسه والدكتور هيكل- قبل أن أكون طالبًا في الجامعة، كان شيئًا معروفًا عنده بوضوح.

فالمناقشة التي كانت بيني وبينه، والضجة التي حدثت بيني وبينه كانت مبنية في مسألة الشعر الجاهلي لا على مسألة التجديد والقديم والجديد - والتي كانت مسألة مثارة بينه وبين الرافعي، وكان فيها متحيزًا، لكني لم أكن متحيزًا.

طبعًا الأستاذ الرافعي عرفته وأنا في السنة أولى ثانوي، كتبت إليه رسالة وجاء وزارني في البيت لمعرفته والدي من شهرته، جاء وزارني ونشأت بيني وبينه صداقة، والدكتور طه كنت أعرفه أيضًا ويعرف والدي؛ لأنه صعيدي وأنا صعيدي ومن أخلاق الصعايدة أن يعرفوا بعضهم.

في الحقيقـة يعنـي كل الأشـياء كانـت بيننـا واضحـة، وكان صلتـي بهـذه الأشـياء مفهومـة عنـد الدكتـور طـه: أننـي عندمـا أتكلـم أتكلـم بعلـم.

لكـن هـو كان يحـرص عـلى شيء آخـر، فلـما بلـغ الخـلاف أشـده، بطبيعـة الحـال وجـدت أننـي بـين اثنتـين:

إما أن أفعل كما فعل الطلبة بالأمس، يردون على أساتذتهم بسوء الأدب ويقول له «مكلمكش»، وأشياء يعني هنا غرائب![1]

ومع كل هذا كنت مع الدكتور طه ومع العنف ومع كل هذا، كان الأدب، إلى أن بلغت الخمسين كنت لا أستطيع أن أشرب بين يديه سيجارة، إلا إذا أعطاني رغمًا عني غصب عني ويقول لي خذ..يعني الأدب.. كنا مع كل العنف ومع كل ما تقرءونه من الشدة، كان بيني وبينه الأدب، ولم يختل هذا أبدًا.

ليـــــــه؟ ... لأنه يعرف كيف أتكلم، وما الذي أقوله، أنتم من الجائز أن تقعوا في الخطأ أو تتصورون أن الذي كتبته عن الدكتور طه كلام يعني خارج عن حد الأدب لصغر سني ولأنه هو في منزلة أخي الأكبر، وهو بلا شك كان أكبر مني بعشرين سنة، وفي سن أخي أحمد رحمة الله عليه.

ومسألة القديم والحديث من قدمها وهي سخيفة! منذ كتب عنها قدماؤنا كما يعرف أستاذنا الدكتور طه الحاجري أنها مسألة من أسخف المسائل التي كتبت - القديم والحديث - هذا كلام لا خلاف عليه!

ولا يمكن أن يوجد إنسان إلا إذا كان عاطلًا، عاطل العقل وعاطل النفس، يتصور أنه يستطيع أن يقلد الآن شعرًا..!

ليس شعرًا، الذي يقلد ليس شاعرًا، الشاعر هو ما يأتي بما يحسه، ولا يستطيع إنسان يفهم معنى الشعر أن يقول: إن شاعرًا حقيقيًّا يستطيع في هذا الزمن أن يحس بما يحسه امرؤ القيس! مستحيل!

الظروف تختلف، والأشياء تختلف، والنوازع تختلف، والأفكار تختلف، والمناظر تختلف.. غير ممكن!

فالقضية التي تثار، والتي أثيرت منذ عام كالكلام عن البارودي عن فلان!

(١) يعني ما شاهده الأستاذ في جامعة الأسكندرية آنذاك.

لا يوجد حل آخر لهذه المشكلة سوى أن ينظر في حقيقة الشعر، ويعاد النظر، وهذا هو الشيء المفقود في هذه الأمة: وهو تذوق الأشياء.. إذا تذوقت تعلمُ علمَ اليقين أن البارودي شاعر حقيقي وليس مقلدًا، إنما المقلد هو المفكر، الذي ينظر يقرأ شعر امرؤ القيس، ويقول إن البارودي يقلده! إذن هذا الناقد جاهل فقط! إذا كان يعترف بأن هذا الذي كتبه البارودي شعر، إذن فهو ليس مقلدًا، وإذا كان مقلدًا فليس بشاعر.

«خرجت القضية بتاعتك بتاعة السرقات يا دكتور» (تصفيق وضحك) «كده كويس..هناك نقطة في آخر السؤال بتاعك.. خلصت؟ طيب الحمد لله!

* بسم الله الرحمن الرحيم هل يمكن أن يكون هناك منهجٌ إسلاميّ في دراسة الأدب؟ وإذا كان، فما وضع دراسة شعر الغزل والخمر؟

- تعال رايح فين.. تعال فين أنت نائب عن واحد تاني.. أنت نايب عن واحد تاني.. هو عجز عن الكلام وأنت هربان؟! أنت اللي طلعتها الحكاية دي (ضحك من الشيخ).

شوف يا بني! اسمع يا بني! اسمعوا جميعًا: أنا لا أفرق بين المسلمين الحاضرين الذين يتكلمون هذا الكلام وبين الشيوعيين، كلاهما عندي سواء، (تصفيق عال من الحضور) لسبب واحد!

إن الشيوعي وكل من يعادي هذه الأمة= يرفض تاريخ ثلاثة عشر قرنًا، والمسلمون المُحْدَثون والذين يتكلمون هذا الكلام= يرفضون تاريخ ثلاثة عشر قرنًا ويضللونه.

فإذا كان ما في كتبنا ليس منهجًا إسلاميًّا للدراسة فلا تطالبني الآن ولا أستطيع أن أطالب نفسي إذا لم يكن[1]....... الصالحين والأتقياء والذين ملئوا الدنيا علمًا وعظمةً وقوة وإرادة وفتحًا، وقلبوا الألسنة وقلبوا العقول وقلبوا العالم كله= لم يستطيعوا أن يضعوا منهجًا إسلاميًّا تريدني أنا أو أنت أن نضع هذا المنهج؟!

(١) قطع يسير في صوت المحاضرة. لكن المعنى مفهوم يعني به شيخنا التأكيد على فكرة أن ما تركه أسلافنا في دراسة الأدب هو المنهج الإسلامي السوي، فإذا لم يكن ما قاموا به منهجًا إسلاميًا= فلن أستطيع أنا أن أقدم لك منهجا إسلاميا.. ثم شرع شيخنا يتكلم عن عظمة هؤلاء الأسلاف دينًا وعلمًا.

هذا رفضٌ كاملٌ ممن يسأل هذا السؤال لتاريخ كاملٍ - أربعة عشر قرنا - وأنا أرفض أن تُسَفَّهَ آبائي وأسلافي، والذي في الحديث حديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن بدء زوال هذه الأمة عندما يسبُّ آخرُ هذه الأمة أولَها[1]! فآخر هذه الأمة يريد أن يسب أولها! وأنا لا أسمح لأحد في أي مكان أن يسبَّ أوَّلِي أبدا، لا حديثًا ولا قديمًا!

لا يوجد شيء يقال له منهج إسلامي في دراسة الأدب، الذين درسوا الأدب هم المسلمون، والذين قالوا الشعر وقالوا الخبائث أيضًا من المسلمين، نحن لا نكفرهم ولا نخرجهم من ديننا، وإنما هم ناس من العصاة نسمع أقوالهم ونلتمس في داخلها فقط قدرتهم على التعبير، يعني سر هذه اللغة الذي بمعرفته أعلم شيئًا واحدًا: أن هذا الكتاب الذي تأخذونه تقليدًا ينبغي أن تقرءوه بلغته لتعلموا أنه كلام الله، وأنه يختلف عن كلام البشر أسودهم وأبيضهم وأحمرهم وإنسهم وجنهم.

ليست المسألة بهذه البساطة، أنك ترفض أن أقرأ شعر أبي نواس أو أقرأ شعر فلان.. أنا لا أرفض القراءة، لكن أن تتصور أن أبا نواس يضلك أو يضل أحدًا فالله تعالى خلق بين جنبيْك قلبًا يوسوس له الشيطان، والشيطان أعظم من أبي نواس وفلان وفلان.

فإذا كان شعر أبي نواس يؤثر عليك ففي شيطانك أنت، ينبغي أن تغالب شيطانك أنت، لا أن تغالب أبا نواس. أبو نواس نقرؤه ونقرأ ما يقول في خمره وفي غزله وفي كل شيء!

يا شيخ! هل تتصور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسمع «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» كان رجلًا طرح كساء النبوة كما يطرحه القسيس ويستمع لغزل فلان؟!! وشعر الجاهلية الذي سمعه صغيرًا وكبيرًا قبل أن يُنَبَّأ، في كل وقت يسمعه من الرواة ويسمعه من أصحابه، وكان المحك للتذوق الذي فرقوا فيه بين كلام هذا البشر، وكلام رب العالمين.

فأنا لا أسمح، على كل حال أنا ليس لي مُقام في الجامعة ولا مَقامٌ، لا أنا مقيم فيها ولست أستاذًا، بل أنا رجل متطفل على هذا المكان.

(١) أثر ضعيف لكن معناه مستفيض في الشريعة.

لكنني أحذركم! أحذر الشباب، وأحذِّر أبنائي أن يلتفتوا إلى مثل هذا السُّخْف، لا يوجد شيء أبدًا يحول بين الإنسان وبين المعاصي، أبدًا!

ولا يوجد شيء أبدًا يُضِلُّ الإنسانَ إلا نفسُه!

إنما الإنسان من حيث يُوجد في غمرة الفسق وفي غمرة الفجور وفي غمرة الكفر يستطيع أن ....[1] والذي لا يستطيع هذا فهو إما مدعٍ أو كذاب أو يريد أن يلبس إهابًا ليس له.

أما المسلمون فقد لبسوا إهابًا واحدًا أربعة عشر قرنًا بفساد ما فيهم وحسنه وقبيحه، وخرج منهم أئمة الدنيا قرونًا متطاولة إلى القرن الذي نشأ فيه من يتكلم هذا الضرب من الكلام، وهذا ضربٌ لا يُوجد في أدبنا، ولا في ديننا، ولا تشكَّكَ أحد من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إنما الذي لا يعلم تنشأ عنده المشاكل، لكن الذي يقرأ تاريخ هذه الأمة، وهو تاريخ، لو أن الكتب التي صارت إليكم وانتهت الآن مع ضياع ما ضاع منها= لو وُضِعَ في مكان، ووُضِعَ كلُّ ما تركه الرومان والصين وفارس لكان ركنًا بسيطًا جدًّا في هذا المبنى الضخم!

اعلموه علمَ اليقين!

وهناك إلى القرن الثالث عشر الهجري عقول من أجود العقول، أساءت التعبير، لكن كانت عقولًا ناضجة ومنصهرةً وعالمة بدينها تمام العلم، مع ما دخل فيها من الصوفية والضلال والتشيع والكفر والزندقة وكل شيء، فحتى زندقتها خير من زندقة هذه الأيام وخيرٌ من إسلام هذه الأيام!

أنا لا أهزِل، أنا أتكلم جِدًّا، لم أكن في حياتي إلا جادًّا.. أنا رجل ضحوك وأضحك، لكن عند الجد أنا لا أخاف شيئًا، ولا وليس لي رغبة مع أحد، ولا آخذ من أحد شيئًا، ولا أقبل من أحد شيئًا، أنا تخلقت بالقصيدة العظيمة التي قالها علي بن عبد العزيز الجرجاني:

---

(١) كلمة لم أتبينها ولم أهتد للصواب فيها.

يقـولون لي فيـك انقبــاضٌ وإنمــا * رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما!
أرى الناس من داناهموا هان عندهم * ومن أكرمتـه عـزة النفــس أُكْرِمـا!

تحفظون هذه القصيدة أم لا تحفظونها؟ يقول فيها:

وكم طالبٍ رِقِّي..

أنا أتكلم عن نفسي لأني عاصرت هذا الرِّقَّ..

وكم طالبٍ رقِّي بنعماه، لم يصل
إليَّ ولو كان الرئيس المُعَظَّما

وكم نعمةٍ صارت على الحرِّ نقمةً
وكم مغنمٍ يعتدُّه الحُرُّ مغرَما!

والتي يقول فيها:

ولم أقض حقَّ العلم إنْ كنتُ كلما
بدا طَمَعٌ صيَّرتُه ليَ سُلَّمَا

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
لأَخْدُمَ من لاقيتُ لكن لأُخدما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عَظَّمُوه في نفوسهم لعُظِّما[1]

ولكن.. أهانوه فهانوا! ودنسوا
مُحَيَّاه بالأطماع حتى تجهَّمَا!

أنـا حزيـن لأني دخلـت أمـس.. فوجئـت في الجامعـة بأشـياء لا تعجبنـي ولا يـرضى عنهـا مسـلم، وأنـا لا أدعـي الحكـم عـلى النـاس بالإسـلام وبالكفـر، ولكننـا كلنـا أبنـاء آدم، وكلنـا أتبـاع رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم، وكلنـا لـه معصيـةٌ، والمعصيـة لا تُخْـرِج مـن الديـن، نعـم.

(١) نطقهـا شـيخنا بالفتـح: لعظَّـما، ويبـدو أن هـذا محفوظـه منـذ الصغـر، فقـد ضبطهـا هـذا الضبـط في برنامـج طبقـات فحـول الشـعراء واسـتدرك ضبطهـا في نهايـة الكتـاب.

* سؤال: قلتم إن الدليل على علوية المتنبي= دراسته في كتاب للعلويين بالكوفة مستندين في ذلك على رواية الأصفهاني. هل هذا يكفي في تقرير حقيقة علويته؟ لماذا لا يكون الرجل غير علوي، أو تكون الرواية غير صادقة، أو يكون فخره بنفسه تعويضًا عن ضعف أصله، ثم لماذا فخَر بجَدَّته وحدها ولم يفخر بأبيه مثلًا ما دامت جدته همدانية الأصل صحيحة النسب، فلماذا تزوج والده......[1]؟

الجواب: يا بني ! لو كنت قرأت ما كتبته في الكتاب لكنت في غنًى عن بعض هذه الأسئلة، ولو كنت قرأت ما كتبته في مجلة الثقافة في هذا الموضوع أيضًا لم تكن بعض هذه الأسئلة أيضًا لتجري على لسانك.

ولكن سأرد عليك ردًا بسيطًا جدًا وهو:

أرجو أن تنتبهوا إليه لأني كما أبلغني الدكتور هدارة أنكم تقرءون شيئًا من هذا الكتاب.

أنا لم أقل إني أقطع بأن المتنبي علوي النسب، ولكن الذي حدث أني قرأت ديوان المتنبي، ووقفت على عددٍ من المشاكل في شعر أبي الطيب لا بد لها من حل، فمن أول الكتاب قلت: إني مفترِضٌ، افترضتُ فرضًا.. لم أستدل. السخيف الذي كتب أني أستدل بهذا بخبر.. أنا لم أستدل.. أنا أستدل على الفرض أن شعر أبي الطيب وأخبار أبي الطيب عندي بمنزلة واحدة، وأني أدرس هذه الأخبار وآخذ من الشعر لأحل المشكلة موجودة في شعر المتنبي، مشكلة معينة في أخبار المتنبي وشعر المتنبي.

فأنا أخذت من هذا لأؤيد فرضًا، لا لأؤيد علوية المتنبي، فهناك فرق بين الاثنين. إلى أن جاء ما يأتي: مضت سنوات طِوال فجاء كتاب، وجدنا على ظهره ترجمة المتنبي، ثم جاءتني ترجمةٌ كاملةٌ للمتنبي، كلتاهما تقول شيئا واحدًا وهو أن المتنبي، الذي يحل لي المشكلة: أن المتنبي أرضعته امرأة علوية من بني عبيد.

إذًا فالفرض الذي لم يكن قبلي، وكل من تكلم فيه بعدي فهو يعني يتكلم وهو لا يفهم ماذا عنيت في كتابي.

قال شيئا واحدًا وهو أن هناك هذه العلاقة التي استخرجتها أنا وفرضت لها هذا الفرض: أن هناك علاقة بين العلويين وبين أبي الطيب، والعلاقة التي قالوها علاقة أيضًا معروفة عند المسلمين، وهي علاقة الأخ من الرضاعة.

(١) غير واضح الصوت.

فإلى الآن: فرضي الذي لم يكن قائمًا إلا على أخْذِي مثل هذه الأخبار وإدماجها مع بعضها؛ حتى تكون الصورة ظاهرة لحل المشكلة كلها، فجاء مؤيدها بعد عشرين سنةً، جاء مؤيدها بخبرٍ لا علم لي به، ولا لأحدٍ غيري علم به في كتابين مختلفين.. «فهمت إزاي»؟!

فإذًا الفرض لا يزال قائمًا، وأنا لم أدع أني أقطع أو أني أنسب!

ولذلك كل الذين كتبوا بعد ذلك، كالذين كتبوا «المتنبي يسترد آباءه» - يعني الشيعة التي تريد أن تجعل المتنبي علويًّا..

أوّلا: وجد في هذه الكتب الدليل على خلافه؛ لأنهم قالوا إن المتنبي كان يكره الشيعة، وأنا أيضًا نفيت عن المتنبي أنه شيعي في كتابي. إذًا فالفرض قائم والمسألة لا تزال كما هي لحل فقط.. هي أنتني بالدليل على حل المشكلة أنه بينه وبين العلويين أقل ما فيها أنه أخوهم من الرضاعة، والأخ من الرضاعة كالأخ من النسب وهذا غايتي!

لا تشريف المتنبي، ولا الأصل كما يكتب بعض الكتاب، ولا أنه شريف أردت أرفع من خسيسته لأن أباه سقّاء.. كل هذا كذب!

لأن الخبر أن أباه سقاءٌ كذب، كلام يعني معروف في الشعر العربي وغيره، كل هذه الأشياء انتهت ولم يبق فيها أبدًا إلا هذه الحقائق البسيطة التي أقولها لك: إن المتنبي كان بينه وبين العلويين ما يحل مشكلة شعره منذ نشأ في الكوفة إلى أن مات في العراق.. بس! ولا لي علاقة بأن المتنبي شريف النسب أو لا شريف، كوني استخدمت هذا في أثناء الكتابة فقط لإعطاء هذه الصورة؛ فأنا كتبت كتابًا مختصرًا في الحقيقة لم أذكر فيه كل شيء.

هذا الاختصار هو الذي أدى إلى سوء الفهم، وجيلنا على الخصوص والجيل الذي أنا عشت فيه «مش جيلكم ده أنتو أسوأ منا»!

جيلي كان أيضًا سريع التلقط للأشياء من الظاهر، ثم وضعها في بناء خطأ والبناء عليها، ولكن أنا كما قلت لكم أكتب بدقة.. أرجو أن تقرأ الأشياء بدقة، تجد أني فعلًا لم أدخل هذا الأمر يعني من حيث هو في جوهره ولبه، «يعني أني أريد أن أقول إن المتنبي شريف النسب» أبدًا!

وكـم مـن علـوي حقـير سـخيف قـذر، جائـز أن يكـون المتنبـي أشرف منـه بكثـير لـو كان أبـوه سـقاءً.. المسـألة أنـا لا أدخـل في الأنسـاب، ولا أنـا حكـم في هـذه الأشـياء.. ليـس لي فيهـا!

إنـما أنـا أحـل مشـكلة: لم كان هـذا الرجـل هكـذا؟! لم مـدح المُشَـطَّب في أول مـرة وهـو كـوفي، ثـم تـرك هـذا كلـه، ثـم بعـد ذلـك يعـادي الشـيعة، كلـما رأى شـيعيًا قـال فيـه تلـك الأبيـات.. هـذه العـداوة إلى آخـر حياتـه. ودخـل فيهـا أيضًـا أنـه عـادى القرامطـة عـداء شـديدًا، والقرامطـة شـيعة أيضًـا، وقاتلهـم بنفسـه.. وسـأذكر هـذا لأن النـاس لم تفهـم.. يعنـي مسـائل مهمـة يـا بُنَـيّ، مسـائل مهمـة ذكرتهـا، مـا قصـدت تشريـف المتنبـي، مـع أن هـذا النسـب نسـبٌ شريـف في ذاتـه؛ لأني بالطبـع عـلى الأقـل أدافـع عـن نفـسي؛ لأني شريـف النسـب ولا مؤاخـذة!

لكن عندنا أشراف !! على رأسهم الملك عبدالله والملك حسين، وهذه الأشكال!

كفـاك هــذا؟!

* نشـكر لسـيادتكم حرصكـم الشـديد عـلى سـلامة اللغـة، وأن تظـل دائـما في قمـة ازدهارهـا، فـما رأي سـيادتكم في أدب العاميـة؟ وهـل حقًّـا تخـدم دراسـة العاميـة الفصحـى؟ وشـكرا.

- العاميـة لا تخـدم الفصحـى أبـدًا، العاميـة لغـة الجُهَّـال عـلى كل حـال ابتـداءً! كيـف تخدمهـا؟! لكـن بعـض المباحـث عـلى اللغـة العاميـة، بعـض الأشـياء التـي وُجِـدت فيهـا.. موضوعـات بسـيطة..

لكـن المسـألة في الحقيقـة أن الأسـاتذة المُحْدَثـين.. يدخـل أحدهـم كليـة اللغـة العربيـة ثـم يـدرس اللهجـات العاميـة، لغـة الكويـت لغـة كـذا.. بقايـا العاميـات التـي نتكلمهـا، وصـار بهـا أسـتاذًا.. ليـس لـه شـغل إلا العاميـة! لا يصنـع شـيئًا، فيتكلـم مثـل هـذا الـكلام.. مسـكين!

ومـع ذلـك! أنـا نشـأت في ضمـير القاهـرة؛ ضميرهـا الأسـود بحواريهـا وغُرزِهـا، ورأيتهـا كلهـا كاملـةً، وأقـول لكـم الآتي: إن اللغـة التـي أسـمعها مـن أبنائـي، وأبنائـي الطلبـة، حتـى أولادي أنـا، لا يعرفـون شـيئًا عـن اللغـة العاميـة المصريـة أبـدًا!

لا يعرفون يعني إيه «كنيف»، لا يعرفون يعني إيه «مستراح».. ابني نشأ في مصر الجديدة لا يعرف هذا! وهذا عند آلاف الطلبة! لا يعرفون كلمة من العامية ولا تعابيرها ولا أمثالها ولا نكاتها ولا شيئا من هذا أبدًا! فالكلام الذي يتكلمون به الآن عامية أخرى مختلفة.

وأنا أقرأ ما يُكتب من العامية، فأرى نفس هذا الشيء، الأستاذ الذي يكتب العامية عمره خمس وعشرون سنة.. سبع وعشرون سنة، وأنا أعرف من العامية ما لا يعرفه.. يكتب شيئًا يدل على جهله بالعامية.. بيضحك عليّ!

أما الفصحى فمقيدة، «محدش هيعرف يضحك على التاني»، لكن يضحكون علينا بالعامية.

فمسألة أن العامية تخدم اللغة عربية؟! أبدًا.. ولكن اللغة العربية هي التي تخدم العامية. يعني هذا الذي حدث في ثورة (١٩١٩) كما شهدناه أن اللغة العربية عندما خطبت الخطباء على المنابر بالفصحى من طلبة الكليات في الأزهر، وطلبة كلية الحقوق، وأنا أعرف منهم شكري كريشة كان يخطب على المنبر أربع ساعات لا يلحن، كأنه الحجاج بن يوسف الثقفي، ولا يستطيع أن ينبس أحد بكلمة، والناس صُموت..! أربع ساعات يخطب.

فوجدنا بعد ذلك أن الحلاق والمزين والحواري وفي حارتنا أصحاب الحصير بدءوا بعد سماع الخطب في الثورة والجرائد، بدأت اللغة العربية تدخل على ألسنتهم، وتزول ألفاظ العامية.. فاللغة العربية تخدمها.. ما معنى تخدمها؟! اللغة العربية أشرفُ من أن تخدم أحدًا.. إنما تخدمها يعني ترفع من خسة هذه الأمة إلى أن ترتفع شيئًا قليلًا!

هذا معنى كلمتي: تخدم الإنسان الذي هو صاحب اللغة. فهذه مسألة اللغة العامية.. أما التزام الإنسان باللغة الفصحى فهذا واجب على كل مسلم ومسلمة.

وأدب العامية؟ مفيش أدب في العامية!

- طيب مسرحية...

هذه مسرحية ولد صعلوك!

طيب لقد حولوا أشياء كثيرة للدكتور طه «صاحبكم ده اللي بتعملوا له «زار» كل سنة»، حولوا الكلام عنه إلى كلام عامي ساقط..! ساقط تمثيل وساقط الأداء وساقط

المضمون، وكتبه يوسف فرنسيس، وكمال الملاخ، من شيعةٍ واحدة! قاعد يطلع فيه للسما! أشياء ساقطة! لغة عامية إيه؟!

لابد أن تفرقوا بين موضوعين.. طبعًا أنا كتبت والدكتور هدارة يريكم في أباطيل وأسمار عن كلمة اللغة العامية متى بدأت، وهنا أستاذة أنا أثنيت عليها[1] لأني تعلمت منها أني جاهل؛ لأني ضيعت أشياء وهي حفظتها، وقلت عنها هذا الكلام؛ لتعرفوا حقيقة هذه المشكلة، مشكلة العامية والعربية، وكتاب الدكتورة نفوسة كان ينبغي أن يكون في يد كل مسلم وعربي، كما قلت إنه كان ينبغي أن يكون في كل بيت؛ ليعرف كيف وقعت النكبة بهذه الأمة!

فأنت طالبة هنا والدكتورة نفوسة عندك، فكنت عرفت المشكلة ولم تسألي هذا السؤال.

- إنما تكلمت لأننا لا نستطيع الآن تعليم العربية إلا بالعامية، فلم يفهم الطالب مثلًا المضاف إليه إلا عندما استخدمت العامية، فقلت: شباك الحجرة، يعني الشباك» بتاع الحجرة».

- فهمت ما تريدين.. هذه حقيقة صحيحة.. ولست أنت من صُدِم بها، بل أيضًا كان يأتي عندي أولاد من أندونيسيا، ومن الهند، وهم يدرسون العربية الفصيحة ويتكلمونها ولا يعرفون العامية، فجاءوا هنا ليخدموا دينهم ودخلوا الأزهر مثلًا؛ ليدرسوا اللغة العربية، فوجدوا أن الأساتذة يعلمونهم حتى النحو بالعامية، فجاءوا يشتكون: ماذا نفعل؟ لا نفهم شيئًا!

فكانت النتيجة أن هؤلاء الأولاد تحولوا من الأزهر ودخلوا الجامعة الأمريكية! أرأيت النكبة!

جاءوا ليخدموا دينهم عن طريق تعلم العربية والدين، فأخذهم الأمريكان وعينوهم في غينيا وغيرها، وبالطبع مكسب هائل!!

فهذه المشكلة صحيحة يا سيدتي!

تاريخ الأمم أيضًا ولغاتها يدل على المنهج الذي ينبغي أن نسلكه، وهو= أن نعلم أبناءنا اللغة.. هناك فرق بين تعليم اللغة وتعليم المصطلحات.

---

(١) يقصد أستاذنا رحمه الله الدكتور نفوسة زكريا وكتابها الفريد عن العامية.

عندما يتعلم أبناؤنا اللغة، ويستطيع البيت المصري أن يتكلم بكلمة: «أضافه»، و»أضف هذا إلى هذا»، «خذ هذا، افعل هذا»، عندما تقولين له المضاف سوف يفهمها. لكن هذه الكلمة «أضافه» لا يعرفها أبدًا، فعندما تأتين لتقولي له كلمة «مضاف» ستكون كلمة مخيفة! مضاف! كأنما تقولين له»هذه العلبة فيها عفريت»! لا يعرف!

وأنا بالطبع مثل جدك، لكن بنتي الصغيرة أمارس هذا فيها، عمرها إحدى عشرة سنة، منذ سنة ثانية وأنا مع «زلفى» وفهر أيضًا في تدريس هذه اللغة، وبدءوا يفهمونها شيئًا فشيئًا.. لكن صحيح أنت فعلًا محتاجة في إفهام الطفل، أن يعرف مثلا معنى مضاف؛ لأنه كيف يفهمها؟! بالاحتيال.. أن تضربي له أمثلة في الأول هذا كذا هذه كذا.. القلم ده.. تفهمينه كلمة مضاف يعني إيه.

قلم زلفى: قلم مضاف وهذا مضاف إليه.. هذا القلم له علاقة بهذه، هي ستظل تقول لك عن هذه العلاقة حتى تقول: بتاعي..! فتفهمها وتستعملها وتكون سهلة عليها، لكن دعيها هي من يفهمها.

أنا لست مدرسًا ولكني متصعلك كما أتصعلك على الجامعة وأتصعلك على التدريس! لكن أولادي ماذا أفعل؟! أحتال على أن يحاول نقل طلبه.

والبلوى يا سيدتي: أن التعليم الابتدائي كثر فيه البنات وهن سبب نكبتنا ولا مؤاخذة!

لكن أنا أدخلت أولادي المدارس الابتدائية وهي مدارس متقدمة.. أذهب فآخذ الأولاد فأجد المدرسات، وفي آخر حصة، ما دخلت يومًا إلا وهي في تحفيظ القرآن.. قريبة رشاد مهنا، وأبوها رجل صالح وهي تصلي وزوجها رجل صالح ويصلي، وتقرأ فتقول: تبت يدا أبي لهب وتب».. ثم تقول: في جَيْدها حبلٌ من مسد..!

دخلت لها وقلت لها: تعالي.. ما هذا؟!

قالت: نطقها في جَيدها!

طيب هاتي المصحف. ماذا تُقرَأ هذه؟ قالت: جَيْدِها!

قلت لها: هذه تحتها كسرة!

وهلم جرًّا، وجدت المدرسة كلها هكذا!

العيب من أين أتى؟ لو كانت المُدَرِّسَة من هؤلاء، لا تُدَرِّس السورة - إذا كان لابد أن تُدَرِّسها هي - كان لابد أن يكون هناك في المدرسة حافظٌ للقرآن، فيقرأن قبل أن يبتدئن التدريس. يعني منزلة وهيبة ينبغي أن تكون قائمةً في النفوس! لا يتلوها إلا متقنٌ لتلاوته. وقد كانوا قديما لا يُدَرِّس إلا الحافظُ، لكن البلوى أني وجدت هذه المصيبة هنا وفي الكويت قائمةً..

ابنة جمعة الياسين تحفظ في جزء «قد سمع» سورة، فلا تقرأ إلا خطأ! فأمسكتها وقلت لها: يا بنيتي.. وجعلت شهرين أحفِّظها القرآن، وأقول لها: اقرئي كذا، حتى أعلِّمها الشكل.. المُدَرِّسة مصرية ولا تفعل شيئًا!

فهذه نكبة! والخطر الآن على اللغة العربية من التعليم الأساسي، وما دمنا في ذكر التعليم الأساسي فلابد من التحذير من مسألة سيرش اللبان.. شيء مخوف.. ولا تهتم بها الجامعات ولا تحارب هذا الخبث الذي يدخل على الأمة.

«أنا جاي أدافع عن عقائدي في الجامعة ولا إيه»!

* مرحبا بسيادتكم هاهنا في كلية الآداب بقسم اللغة العربية جامعة الأسكندرية.. مرحبا بسيادتكم بالنيابة عني وعن زملائي وأرجو عن أساتذتنا الأجلاء.

بما أن سيادتكم قد حقق كتاب الله الكريم مُفَسَّرًا على يد الإمام الكبير إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري، ونرى أن سيادتكم عارض أولئك الذين يقولون إن الإمام أتى بكل ما يقال في التفسير من ضعيف أو قوي أو مقبول، ثم قلتم سيادتكم بعد ذلك إن الإمام يأتي بكل ما في الموضوع ثم يرجح ما يراه موافقًا للشريعة الإسلامية من كتاب أو حديث شريف.. فنرجو من سيادتكم توضيح هذه النقطة لأنها طالما شغلتنا، وشغلت أولئك الذين يدرسون معنا.[1]

- في الحقيقة أنت نسبت إلي أني قلت هذا الكلام.. أين؟

آه.. تقصد الكلام عن الإسرائيليات..!

(١) بعض السؤال غير بين في الصوت.

الموضوع الذي يثيره الناس عن الإسرائيليات= موضوع غريب، لأن المسلمين؛ القاعدة الأولى عندهم: أن كتابهم وهو القرآن العظيم= مهيمنٌ على جميع الكتب، وأن ما عندنا هو الحكم القِسط على ما يرويه أهل الكتابيْن في عقائدهم أو فيما نسبوه إلى أنبياء الله صلوات الله عليهم.

وعلماؤنا عندما أتوا بهذه الإسرائيليات إنما مارسوا العمل الطبيعي الذي بُني عليه التأليف، وهو إذا جاء موضوع أتوا فيه بما قيل في هذا الموضوع.

أن يكون بعضُ ما قيل حقًّا وبعضه باطلًا، فهذا متروكٌ لبصيرة القارئ؛ لأن المفروض أن قارئ تفسير ابن جرير= يعلم هذه الحقيقة، ويعلم أسلوب هؤلاء الناس في الكتابة: أنه عندما يقول: قال وهب بن منبه كذا، دون أن يقول هو من الإسرائيليات، وهب بن منبه لا يُؤْخَذُ عنه شيءٌ أبدًا ولا غيره، حتى ولا التابعي لا يؤخذ عنه شيء ما دامَ غيرَ مُسْنَدٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان هذه الأشياء - لا يؤخذ عنه أبدًا = ما كان مخالفًا أو شبيهًا بالمخالف لما عندنا من نص الكتاب أو السنة.. لا يُؤخذ من أحد شيء.

فمجرد ذكرهم لهذه الأشياء= هو داخل تحت سيطرة الفكرة الأولى: وهو أن ما عندنا مهيمنٌ على هذا، يعني أن في هذا جزءًا من الحق، والباقي باطل بهيمنة كتابي على هذا. وهم لا يخافون شيئًا، المسلمون لا يخافون شيئًا.

الذي حدث بعد ذلك هو المخوف، وهو أن بعض هذه الكتب وقعت للعامة، وهذا موضع الخطر، والعامة مثل حضرتك ومثلي[1]..العامة الذين لا يعرفون حقيقة هذه الكتب، فيعتقدون أن ما فيها هو تفسير لكلام الله تعالى، مثل الذي تراه يكتب في الجرائد، ويقع فيه كثير من العلماء أيضًا!

المسألة مختلفة، كيف يؤلف هؤلاء الناس، ولمِ، وعلى أي وجه تأتي هذه الأشياء.

والقسم الثاني في سؤالك أقوله لك على الصورة التالية: إن أبا جعفر عندما يذكر معنى الآية، ثم يأتي بتفسير ألفاظها المروية عن السلف وما جاء فيها من الأحاديث أو كذا، وينتهي بهذه الأخبار= فالذي يقوله في نصِّ تفسير الكلام، وهو بسط الآية،

(١) انظر إليه يعد نفسه عاميا في العلم!

ويقدمها= تحمل المعاني الأساسية التي يدل عليها الكتاب والسنة ولغة العرب، والقسم الثاني لا يدخله في تفسيره أبدًا.

فمن البديهة أن تفهم أنه أتى بهذه الأشياء التي عن آدم والتفاحة والتين.. يعني كلام!.. أنا أهيمن على هذه الأشياء وأعرف منشأها..

المسلم ينبغي أن يعرف كل شيء عن العالم، على عكس ما تتصوره الآن، لكن متى يكون قادرًا على هذا؟

إذا تمكن مما عنده من الكتاب والسُّنَّة، ثم ينظر في أشياء العالم كلها تحت يديه، يأخذ منها ما يشاء، ويترك منها ما يشاء، ويرد على من يشاء؛ لأنه هو صاحب الفضل الأول والحقيقة الأولى التي يدله عليها الكتاب والسنة.

طبعا بالأدب، فلسنا سيئي الأدب مع الناس، بل نأخذ منهم ونرد عليهم بأدب، ونتركهم لأشيائهم.

فليس معنى هذا أنني لا أعلم ما عند الناس، لكن شرط المعرفة: أن يكون عندي ما يقاوم هذه المعرفة، لكن أن أكون متعلمًا فقط منهم وأنا جاهل بما عندي، فهذه هي النكبة، كتحول الإنسان من دين إلى دين ومن جنس إلى جنس ومن وطن إلى وطن!

إنما عندما يكون ما عندي في يدي وتحت يدي وهو ملكي، أستولي عليه استيلاء كاملًا=فأنا أواجه كل العالم به، وآخذ منهم وأرد، وهذا في كل شيء وفي كل العلوم، وسائر أشياء الدنيا.

لكنّ نكبتنا في هذا القرن= أننا ليس في أيدينا ماضٍ، ونحن نرفض ماضينا، ونرفض كل شيء عندنا، ثم نتقدم بمجموعة من المعلومات القليلة البسيطة التي هي بقايا العقائد الكامنة في هذه الأمة، ونواجه بها حضارة الناس! لا لا تستطيع مواجهة حضارة الناس بهذه الأشياء.

إذا واجهت حضارة الناس= لابد أن تواجهها بشيء تام.

والمسلمون لم يترددوا في أن يطلعوا على علم العالم، على فلسفته، وعلى كفره، على إلحاده، على زندقته.. وأن يُدخلوا هذا في كتبهم، كما أن الله تعالى لم يُنزِّه كتابه ولا كلامه عن أن ينزل فيه شبه المشركين وكفرهم.

هـذه قاعـدة الإسـلام، ونحـن قـومٌ لنـا تاريـخٌ آخـر مختلـفٌ عـما نعرفـه مـن نذالـة هـذا العـصر!

هـذه الأمـة مختلفـة! وأنـا عندمـا أتكلـم عـن ابـن جريـر فأنـا أتكلـم عنـه بمعرفتـي بقـدر هـذه الأمـة! أمـا بقـدر مـا في عقـول فـلان وفـلان مـن كتـاب الصحـف، فـلا!

إنـما أنـا أكتـب في حـدودي: أني مهيمـن عـلى هـذا، فابـن جريـر لم يخطـئ، وأنـا أرد عـلى أخـي لأنـه خطـأ ابـن جريـر، وابـن جريـر لم يخطـئ، بـل وضـع الأشـياء في مواضعهـا.

لكـن واجبنـا الآن أن ننجـي العامـة بـأن نخـرج تفسـيرا آخـر فيـه القديـم أيضًـا وكل شيء، ونخـرج هـذه الأشـياء بـدون ضجيـج، لنطعـن بهـا في القدمـاء ونقـول إنهـم جهلـة، والبخـاري بـه إسرائيليـات، وكـذا فيـه إسرائيليـات.. نطعـن أئمـة الأمـة الذيـن بذلـوا جهـودا فـوق جهـود الجنـس الإنسـاني كلـه فنطعنهـم؟!

لا.

وهـذا الـذي قلتـه لأخـي وفعلـه في عمـدة التفاسـير، فأخـرج بعـض الأشـياء التـي كانـت عنـد ابـن كثـير، وخـرج عمـدة التفاسـير، كلام قديـم مـن علـماء متقنـين، محيطـين بعلـم الشريعـة وعلـم الحديـث، والكتـاب فيـه نصـوص بسـيطة بعيـدة عـن هـذه الأشـياء لمصلحـة النـاس.

لكـن أقـول للنـاس: لا تقـرءوا هـذه الأشـياء، أكـون حينهـا مغفـلًا، بـل أقـول لهـم: لابـد أن تعرفـوا مـا عنـد اليهـود والنصـارى؛ لأني سيدهـم.. هـم يحاجونـني ويسـتعمرون بـلادي، فأنـا لابـد أن يكـون في يـدي شيء أحاجـج بـه: أخـرج تناقضهـم، وسـوء خلقهـم، وسـوء ماضيهـم، وفسـاد تفكيرهـم، ومـا في كتبهـم مـن التناقـض، ومـن العبـث، هـذا شـغل المسـلم، وليـس شـغلهم، مـع أن بعضهـم تـولى هـذا بأيديهـم، وكشـف هـذا، أليـس كذلـك؟!

ونحـن الذيـن بدأنـا هـذا، وبـدأه ابـن حـزم، أول عـالم كتـب في تاريـخ المقارنـة الدينيـة، فنحـن لا نخـاف مـن شيء، والمسـلم لا يخـاف شـيئًا، لا يخـاف لا ضـالًا ولا مهتديًـا!

- تكلم الطالب السائل بكلام غير مسموع.

- شـوف يابنـي هنـاك أدب للقـراءة.. أنـت تتعلـم.. تقـرأ هـذا التفسـير لتتعلـم، ثـم تسـأل.. تسـألني..تسـأل هـدارة، تسـأل الدكتـور الحاجـري.

لقد لاحظت شيئًا سيئًا في الصباح وأخبرت به الدكتور هدارة.. فأنا كنت بينكم كأخيكم وجلسنا، وهدارة قعد يقول كلامًا فارغًا عني كثيرا أمس.. ثم خرجنا، ولم أجد شابًّا منكم يقول لي: السلام عليكم! أو قام يسلم علي!

وهل هذا كلام؟! سلم علي يا أخي.. ابتسم في وجهي.. كلمني![1]..فأنتم منقطعون عن الناس وعن أساتذتكم وعن التفاهم وعن المودات، كأنكم تعيشون في عزلة كاملة عن الوجود! وهذا خطر كبير عليكم.

فالطريق عندما تقرأ كتابًا مثل هذا: أنا موجود.. هدارة موجود.. سله وقل له: هذا كذا، وهو يفهمك. هو عنده من العلم ما يزيد على علمك، وجائز أن يكون عنده خطأ أيضًا، كالذي يقول الدكتور حسن عن سيدنا معاوية مثلًا!

ستجد عند كل إنسان منا خطأ، وليس عيبًا أن نخطئ، ستجد عندي خطأ وعند هدارة خطأ، العيب في أن لا نعترف بالخطأ، فتساؤلك سيعرفك، وتستقل بطريق، وإلا كيف يستقل كل إنسان بطريق؟

فقراءتك للطبري لا أمنعك منها، ينبغي أن تقرأ، لكن تقرأ على أصول، أولًا أن تعرف طريق هؤلاء الناس، تحاول أن تفهم، تسأل من هو أكبر منك، تزور العلماء، تتناقش مع الناس. لكن انعزالكم ثم مواجهتكم للجيل الذي قبلكم بالتجهُّم وبالترك= غير صالح.

قد كنا نعرف الناس ونصاحب الكبير والصغير، ولم نتعلم إلا هكذا، فقد كنت تلميذا مثلكم في المدارس «نرمي جتتنا على الأساتذة» بالعامية أهوه!

كلمة أخيرة ختم بها شيخنا نقاشاته، فقال:

نصيحةٌ أحب أن تلتزموا بها، وخاصة قسم اللغة العربية؛ لأنه ينبغي أن يكون القدوة، وأن يكون خُلُقُ هذه الجامعة في داخل قسم اللغة العربية قبل أي قسم، وأن يكون هو المثلَ الصحيحَ لشرفِ هذه اللغة العربية، وشرف هذا اللسان.

(١) هذا يقوله إمام العربية!!

لكـــــن..

النصيحـة الأولى والتـي أخافهـا؛ لأني أراهـا الآن في المـدارس الابتدائيـة والثانويـة والعاليـة، وهـو شيء ينبغـي أن أطالبكـم بـه= أن كلَّ طالـبٍ وطالبـة ينبغـي أن يجعـل لأستاذه في قلبه احترامًا كاملًا مهمًا كان خلق هـذا الأستاذ، حتى ولـو كان معيبا؛ لأن هـذا هـو الأسـاس الصحيـح لتكوينكـم أنتـم لا لتكويـن الأسـاتذة!

أنتـم لسـتم قادريـن عـلى إصـلاح الأسـاتذة، لكـن أنتـم قـادرون عـلى إصـلاح أنفسِكم. فالـشيء الأول لـكل طالـب منكـم هـو هـذا، وهـو ينبغـي أن يكـون خُلُـق كل معهـد للتعليـم.

فـأول شيء أن توجـدوا في قلوبكـم للأسـاتذة هيبـةً واحتراما ورهبـةً وتوقـيرا مهـما بلغـت إساءتهم، مهـما بلغـت الإسـاءة. وإذا لم تفعلـوا هـذا فستقعون في نفـس المشـكل الـذي أوقعكـم فيـه النـاس وأوقعونـا فيـه، وهـو رفـض ماضينـا واحتقـاره ومخاطبتـه خطابًـا لا يليـق، سـواء كان في الأبحـاث العلميـة أو في التعبـير عـن المـاضي.

نحـن لسـنا عبـاد الأسـلاف ولكـن توقـير رجالاتنـا وكبرائنـا وعظامنـا= ينبغـي أن يكـون كامـلًا، مـن الخلفـاء إلى علمائنـا إلى أدبائنـا إلى شـعرائنا.. ينبغـي أن يُدرَسـوا، وأن يكـون كل شيء في القلـوب بتوقـير واحـترام، بغـير هُـزء.

وعلاج هذا الأمر بأيديكم أنتم؛ لأن هذه الأمة من الآن على مَفرق الخطر!

وأنـا بالطبـع لا أخـاف السـجون، ولكـن كلكـم يعلـم أننـا مهـددون مـن الداخـل تهديـدًا كامـلًا، وأن الذيـن يعملـون في سـبيل الاسـتيلاء= مُؤيـدون ودارسـون لنـا ويخبروننـا قطعـةً قطعـة، وسـينفذون في داخلنـا بعـد قليـل![1]

فأنتـم في خطـر، إذا لم تدافعـوا عـن أنفسـكم بأنفسـكم فلـن يحميكـم أحـد، وستزولون عـن هـذه الأرض، ويـزول عنهـا هـذا اللسـان العـربي يومـا مـا، ولا تشـكُّوا فيـما أقـول لكـم؛ لأني كتبـت هـذا في «أباطيـل وأسـمار» بالإشـارات؛ لأنـه لا ينبغـي أن يقـال إلا بالإشـارة.

(١) قال شيخنا هذا الكلام سنة ١٩٨٠!

لابـد أن نفهـم أنـه مُـرَادٌ لنـا أن نصـير إلى مـا صـارت إليـه الأندلس، وهـو يتـم الآن في جميع أنحـاء العـالم؛ أنْ يُرفـع اللسـان ويُرفـع الديـن!

فحاذروا! وسيغلبكم غلّابون!

وأنـا أرى كتبًـا لم تروهـا ولم تقـع في أيديكـم، تُنشر بلغـةٍ أخـرى يُكتـب عليهـا أنهـا اللغـة المصريـة! لغـة مـصر، تـوزع في كل مـكان وأقتنيهـا!

فالتهديـد لكـم، لا تسـتهينوا كـما اسـتهان مـن قبلكـم، فـأول شيء لكـم هـو هـذا التقديـر والاحـترام المـؤدي إلى احـترام الأشـياء التـي ينبغـي أن تُحْـتَرَم، لا عـن طريـق العصبيـة والتهيـج والانفعـالات، كل هـذا كلام لا قيمـة لـه!

هـذا الشيء يحتـاج إلى صـبر طويـل: أن يدرس الإنسـان وأن يعلـم وأن يـرى وأن يبصر.. يحتـاج إلى وقـتٍ وصـبرٍ وجَلَد.

وعاونـوا أسـاتذتكم؛ لأن عونكـم للأسـاتذة بهـذا الاحـترام هـو الـذي يزيدهـم قـدرةً على إعطائكـم مـا ينبغـي. حتـى ولـو رأى الأسـتاذ في نفسـه تقصـيرًا سـيبذل الجهـد بعـد الجهـد بعـد الجهـد؛ حتـى يعطيكـم مـن خـير مـا يكـون عنـده.

فهـذه نصيحتي لكـــم.

أنـا أحـب أمتـي وأحـب أولادي، فالنصائـح مـن قلبـي[1]، لكـن أن أدخـل الجامعـة فـأرى مـا رأيتـه بالأمـس فهـذا شيء غريـب وغـير مقبـول، ولا تقبلـه نفـسٌ شريفـةٌ عـلى أي صـورةٍ مـن الصـور= أن يخاطـب طفـلٌ في السـادسـة عـشرة أو الثامنـة عـشرة أسـتاذًا في السـتين أو الخامسـة والخمسـين بمثـل مـا سـمعت..

هـذا لا يمكـن أن يحـدث، ولا يمكـن أن يُحْـتَرَم، وكل هـذا في أيديكـم؛ لأن الإصـلاح يبـدأ بالوعـي، ونحـن الأمـة الوحيـدة في العـالم التـي أُمـرت بـأن تأمـر بالمعـروف وتنهـى عـن المنكـر، يعنـي الصغـير والكبـير، الكبـير يأمـر، ولـو رأيـت فيّ اعوجاجًـا لابـد أن تنظـر إلى

(١) قالهـا باكيًـا!

وتأمرني بالمعروف وتنهاني عن المنكر لا بالحدة ولا بالضرب ولا بالتكفير، بل بالتلطُّف، تخاطبه بغاية التلطُّف والرقة..

فالإنسان لا يذل إلا لأبويه ومَن في منزلة أبويه ثم لأستاذه؛ لأنه هو الأب الثاني، فذل الطالب للأستاذ لا يحطُّ من قيمته، ورفع رأس الطالب في حق الأستاذ= جريمةٌ في حق نفسه قبل أن تكون جريمةً في حق الأستاذ.

وهذا شيء ينبغي أن يأخذه الذكر والأنثى؛ لأنكم جميعًا مأمورون بهذا، وهذا التكليف، تكليفٌ من الدين؛ لأن ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا، وأُمرنا بالإحسان في كل شيء، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر=أمر دائر بيننا، بين الصغير والكبير بلا تفرقة، وهذه التفرقة في العلم كما هي في الأخلاق كما هي في الأدب= واحدةٌ متماثلةٌ تمام التماثل.

فأنا أرجو أن لا أرى هذه الصورة التي فوجئت بها بعد دخولي الجامعة لأول مرة منذ ثلاثين سنة، وأنا عندما فارقت الجامعة فارقتها على خُلق، وقلت: إن هذا لا أرضاه، لا أرضى بالكذب. وأن المكان الذي يقال فيه الكذب لا أدخله، وفعلًا فارقت الجامعة وأنا في السنة الثالثة ولم أدخلها قط إلا مضطرًا.

فأنا أريد أن ترتقوا بهذه الأشياء الخُلقية، وأن تتعاونوا مع أساتذتكم على إحلال هذا القدر من الخُلُق بينكم وبينهم، ولا تُضيعوا هذه الفرصة على أنفسكم، كما أضعنا نحن من قبل الفرص، فلم نفعل شيئا، وجدوانا في هذه الأمة قليلة، وصار الأمر بيد غيرنا، وانتهى كل شيء إلى أفسد مما يخطر ببالنا جميعا.

فعليكم جميعًا أن تفعلوا هذا.. فهذه نصيحتي.. أفارقكم وأنا أتمنى أن أراكم يومًا ما، كما رأيت الطالب محمد مصطفى هدارة، أستاذًا في الجامعة ووكيلًا لها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(٥) لقاء الأستاذة سعدية مفرح

لقاء شيخنا أبي فهر رحمه الله
مع الأستاذة سعدية مفرح، سنة ١٩٨٩م

لهذا اللقاء قصة غريبة، وله تاريخ بعيد، أحكي القصة لأحتفي بالتاريخ، وأتذكر التاريخ لأعود إلى تفاصيل القصة. أما التاريخ فيعود إلى شهر ديسمبر من عام (١٩٨٩)، حيث كانت الكويت تحتفي بزيارة شيخ جليل من شيوخ اللغة العربية هو العلامة محمود شاكر.

أما القصة فتبدأ مع حماستي لإجراء لقاء صحفي معه، لأنه لا يستسيغ إجراء اللقاءات الصحفية، فلم يوافق عندما طلبت منه ذلك للمرة الأولى، لكنه أمام إلحاحي الشديد وافق بحنو أبوي على رغبة صحفية شابة، آنذاك، مازالت تحبو على بلاط صاحبة الجلالة، إلا أنه اشترط علي شرطين:

أما الأول: فأن أقرأ له بعض كتبه على الأقل قبل إجراء ذلك اللقاء، فأخبرته أنني كنت قد قرأت بالفعل سفره العظيم عن المتنبي، بالإضافة إلى كتاب أباطيل وأسمار، فقال إن هذا يكفي.

أما الشرط الثاني: فهو أن أختار موضوعًا واحدًا فقط كي يدور الحوار حوله، فاخترت أن يدور حديثنا حول صديقه الأثير يحيى حقي وعلاقته به، خاصة وأنني سبق وأن أجريت لقاء مع حقي تحدث فيه باستفاضة عن محمود شاكر.

وما إن سمع شاكر اسم حقي حتى تهللت أساريره ولاحت ابتسامته، التي ظلت عصية طوال الوقت، سألني: أنت فعلا أجريت حوارًا مع حقي؟

قلت: نعم ونشرته قبل شهور عدة في جريدة الوطن الكويتية. عندها قام من مكانه ليحضر نسخة من كتابه الشعري «القوس العذراء» قدمها لي كمكافأة.

أعددت جهاز التسجيل، وبدأ الحوار الذي بدا وكأنه من طرف واحد خاصة وأن الحديث ظل دائمًا يدور حول يحيى حقي كما اشترط، وعدته عندما انتهينا أن

أفرغ شريط التسجيل على الورق ليراجعه قبل النشر، لكنه لم ير داعيًا لذلك، مما جعلني أتمهل في أداء المهمة. وعندما قررت القيام بها ضاع شريط الكاسيت، ببساطة شديدة ضاع بين ركام من الورق والأشرطة والأشياء التي يزدحم بها مكتبي آنذاك، ضاع تمامًا حتى فقدت الأمل في العثور عليه.

لكنني وجدته أخيرًا، أعني بعد مرور (١٨) عامًا على إجراء الحوار، وبعد مرور عشر سنوات على رحيل محمود شاكر، وجدته لأجد معه جزءًا من ذكرياتي القديمة، وحكايتي مع الشيخ الجليل والذي يحلو لي أن أسمّيه حارس اللغة العربية منذ أن سمعت شقيقي يصفه بذلك تبجيلاً له وإعجابًا بكتاباته.

وهنا تفاصيل اللقاء معه الذي أجري
يوم التاسع والعشرين من أغسطس عام (١٩٨٩) في الكويت:

- مادام الحديث سيكون عن يحيى حقي حصرًا، هل لنا أن نعرف كيف بدأت علاقتك المميزة به؟

- كان لي صديق يعمل في وزارة الخارجية، وهو متخرج في قسم الفلسفة في العام نفسه الذي تخرج فيه عبدالرحمن بدوي، واسمه عثمان عسل، وقد تعرف عثمان هذا على يحيى حقي الشاب الآتي من أوربا، والذي تردد على مكتبة الوزارة، فأحبه عثمان عسل حبًا شديدًا، وكان عثمان لا ينقطع عن زيارتي، كان يزورني صباحًا ومساءً وليلًا. وذات يوم جاءني عثمان قائلاً: «فيه واحد كويس قوي، عاوزك تعرفه»، فقلت له: «اسمه إيه؟»، قال: «اسمه يحيى حقي»، وأردف: «أرجو أن تكون رفيقًا به».

وأيامها كنت أعيش وحدي في البيت فتعرفت عليه، ووجدته مؤدبًا رقيًا، يكلمني باحترام شديد وكأنه خائف. جلس معي لمدة أربع ساعات متواصلة قبل أن يستأذن للانصراف، فقلت له: إما أن تأتي بعد ذلك أو لا تأتي أبدًا.

- هل كان قد قرأ لك شيئًا قبل أن يراك؟

- لا أظن.. لقد تعرف بي عن طريق كلام عثمان عسل.

- وهل كان ليحيى حقي أي إنتاج أدبي حينها؟

- نعم.. لقد كان لديه إنتاج قليل في القصة.

- هل كنت كاتبًـا معروفًـا؟

- نعـم... لقـد كنـت أنـشر كتاباتي في مجلـة المقتطـف، وفي مجلـة المقطـم أحيانًـا، وفي صحـف أخـرى، ولكـن حقـي لم يكـن متابعًـا لما أنـشره.

- نعود للحديث عن كيفية توطد علاقتك به بعد ذلك.

- في اليـوم الثالـث للقـاء الأول، جـاء يحيـى وحـده، وبـات ليلتـه عنـدي، ولم يخـرج مـن بيتي منـذ تلـك اللحظـة ولمدة عـشر سـنوات كاملـة بعدهـا!! لقـد تـرك أمـه وإخوتـه وأقاربـه وعـاش معـي في بيتـي طـوال تلـك المـدة.

- تعني أنه أقام عندك إقامة كاملة؟

- نعـم.. كان ينـام ويـأكل ويـشرب ويخـرج ويعـود، و«زي أي واحـد بيحـب واحـدة.. ينـزل الصبـح ويـروح لـوزارة الخارجيـة حيـث يعمـل ويطلبنـي بالتلفـون مـن هنـاك بعـد نصـف سـاعة، أو أنـا أطلبـه وهكـذا!!».

- هل كان يعرض ما يكتبه عليك؟

- نعم.. كان يعرض علي كل كتاباته.

- وماذا كان رأيك فيهـا؟

- يعنـي.. في البدايـة قلـت لـه: «يـا يحيـى هـذه ليسـت لغـة عربيـة، صحيـح كلام فصيـح ولكـن ليـس لغـة عربيـة، اللغـة العربيـة شيء آخـر».

- ومـاذا بعـد ذلـك؟

- قبـل أن أكمـل، أقـول إنني كنـت قـد هاجـرت مـن مـصر سـنة (١٩٢٨) إلى الحجـاز حيـث أقمـت هنـاك، وهـو في ذلـك الوقـت أيضًـا كان مقيـمًا في الحجـاز، في جـدة تحديـدًا. لقـد أقمـت أنـا هنـاك سـنة (١٩٢٨) وجـزءًا كبـيرًا مـن سـنة (١٩٢٩)، وهـو كان مقيـمًا هنـاك طـوال سـنة (١٩٢٩) حيـث مقـر عملـه في السـفارة المصريـة، ولكننـا مـع هـذا لم نلتـق أبـدًا، لأننـي لم أدخـل سـفارة مـصر هنـاك قـط، ولم أدخلهـا هنـا في الكويـت، ولم أدخلهـا في أي مـكان كنـت فيـه في يـوم مـن الأيـام. بعـد ذلـك عندمـا تعرفـت عليـه قـال لي «كأننـا التقينـا في الحجـاز في ذلـك الوقـت»، لأننـا فعـلاً كنـا في بلـد واحـد.

هذه «الحاجات» فيها نوع من الشاعرية أيضًا، فقد أحس إحساسًا شاعريًا أننا التقينا في مكان واحد دون أن نتعارف، ثم التقينا مرة واحدة وتعارفنا مرة واحدة.

- هل كان يأخذ بملاحظاتك النقدية حول كتاباته؟

- كان حقي أحسن الناس استماعًا، ومن الصفات العظيمة أن يحسن الرجل الاستماع.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء. ظلت الأمور كما هي، لكن وجوده معي أحدث شيئًا آخر، فقد كان لي أصدقاء على رأسهم محمود حسن إسماعيل، وإبراهيم صبري، وهو شاعر تركي كبير وهو ابن الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام الذي فارق تركيا، وحكم عليه وعلى أبيه بالإعدام من قبل مصطفى كمال أتاتورك. لقد كان إبراهيم هذا شخصية تركية، يبدو فاره القوام وذا حماسة في القلب، بالإضافة إلى عثمان عسل ومحمد لطفي جمعة، وهو محام كبير جدًا بل من المحامين المقتدرين، وقاض من القضاة المهمين، مع تشتت في نفسه، فقد كان هناك شيء من الشعر في نفسه لا يحس به، وكان معنا صديق آخر اسمه.. اسمه.

- لعله عبدالرحمن بدوي؟

- لا.. لا.. «سيبك منه بدوي دا كان ثقيل الدم»، لكنه كان صديقًا أعرفه منذ أن كان طالبًا في السنة الأولى في الجامعة سنة (١٩٣٦) عندما كان فتى آتيًا من الريف.

- والعقاد؟

- لا.. العقاد تعرفنا عليه بعد الأربعين، ربما سنة (١٩٤٤)، وفي ذلك الوقت كتبت قصيدة نانا.

- ومَن نانا هذه؟

- نانا فتاة كانت تسكن في الجوار، وكانت أمها مالطية متزوجة من أرمني، لقد كانت جميلة وخفيفة الدم ومعتزة بنفسها، وزوجها كان نكتة!! «كان واد خايب يعني»!

- وماذا كنتم تعملون في الاجتماعات التي تتم في بيتك؟

- بطبيعة الحال، أنا عملي هو قراءة الشعر في بيتي طوال عمري، وليس مثل الآن، يعني مع اشتغالي بأشياء أخرى كثيرة، بل إنني لم أترك الشعر إلا من أجل محمود حسن إسماعيل، بعد سنين يعني.

- لمـــــــاذا؟

- تركت الشعر ليقول هو الشعر، وليقوم بمهمة الشعر، فمحمود حسن إسماعيل شاعر ضخم.

- نعود إلى موضوعنا الأساسي... يحيى حقي كيف دخل في هذا الجو وتأقلم معه؟

- دخل يحيى في هذا الجو شيئًا فشيئًا، كان حسن الاستماع، وكان هذا من فضائله، لقد كان الشعر الجاهلي والأموي والعباسي لا يألفه الجيل الذي تخرج في مدرسة الحقوق مثلاً، وعندما كنا نقرأ هذه الأشعار، كان يحيى شديد الإحساس بها وبدقة، وشيئًا فشيئًا ظهرت عنده مقدرة على التنبه إلى جمال الأشياء الموجودة في هذه الأشعار، قديمها وحديثها، جاهليها وإسلاميها. وبدأ يحس بالأشياء إحساسًا آخر غير إحساسه بما كان يقرأ سابقًا، خاصة وأنه نشأ في بيت يشجع على القراءة، فوالدته كانت تحتفي بمقامات الحريري مثلاً، وكانت حافظة للمقامات وللقرآن، وكان أخوه كذلك أيضًا. أي أن يحيى كان عنده الأصول في القراءة، ولكنها أصول غير مرتبة.

وعندما دخل يحيى في جَوّنا كانت قراءاتي أنا كلها في الشعر، ويحيى كان شديد الإحساس بجمال التركيب، وهذا ما ميّزه في ما بعد في تركيب كلامه. فلم يكن في البداية هكذا أبدًا. وبعد ذلك بدا يظهر اكتسابه، وليس تقليده لحسن التعبير الموجود في اللغة، أي كيف يركب الكلام، فيحيى حقي ليس لديه مادة لغوية كبيرة، ولكنه أحسن تركيب القليل الذي لديه، إنه ليس مقلدًا، وإنما ظهر له فجأة أسلوب متميز، ومع أن أسلوبه في البداية أيضًا، كان فيه نوع من التميز، ولكن هذه القراءات هي التي نفعته بعد ذلك.

- سبق لحقي أن أخبرني عن إعجابه بديوان ذي الرمة تحديدًا باعتباره من أهم الدواوين التي قرأتموها في تلك الفترة؟

- هذا صحيح. فديوان ذي الرمة ديوان كبير، فكنا نقرؤه بدقة وفهم، ويحيى أحس بالصور الموجودة في شعره، وكان شديد الإحساس به، وأظن أن من أكبر المؤثرات عليه ما قرأه في هذا الديوان أكثر من سواه.

- لقد كتبت أنت مقالاً عن ذي الرمة ربما كان من أهم مقالاتك في ذلك الوقت؟

- نعم، وكان يحيى معجبًا به كثيرًا بالإضافة إلى مقال أسرار الحروف العربية، وقد نشر في مجلة المقتطف.

دعيني أعد لأتحدث عن يحيى حقي.

- تفضـــــل.

- ميزة يحيى أنه اكتسب القدرة على تركيب الكلام الذي يحسنه بطريقة عربية صحيحة، وأن اللغة ليست النحو وليست الصرف، إنما لابد أن تكتسب، قبل النحو والصرف، تذوق النحو والصرف، تذوق النحو والصرف عن طريق القراءة.

- ما مدى التشابه بين كتاباتك وكتابات حقي؟

- هذا سؤال غلط، لأن طبيعتي مختلفة عن طبيعة يحيى.

- كنت قد سألت يحيى حقي نفسه السؤال ذاته فقال إننا «من مية واحدة».

- نعم، ولكن من نوعين مختلفين!

- وكيف كانت علاقاتك بالأدباء الآخرين؟

- أنا لا أدخل في بيتي الأدباء إلا قليلاً، ومن هذا القليل محمود حسن إسماعيل ويحيى حقي وعدد آخر محدود، أما الآخرون فقد كنت أقابلهم على «القهاوي» وغير ذلك من الأمكنة، أما بيتي فلا يدخله إلا نوع معين من الأدباء.

- أي نــوع تعــني؟

- «معرفـش بقـه.. مـش لازم تعـرفي»!!.. وأعـود الآن لأتحـدث عـن يحيى حقـي لأقـول إنـه ليس من أصـول عربيـة، ولكنـه اكتسـب العربيـة اكتسـابًا صحيحًـا عـن طريـق النشـأة في مـصر خاصـة وأنـه مـن مواليـد «الحلميـة»، فليـس لـه أصـول عربيـة نسـتطيع أن نقـول إنـه يرجـع إليهـا. ولكـن صفـاء نفسـه وصفـاء شـعوره مكّنـه مـن أن يمزجهـا بـروح يحيـى إلى أن خـرج منـه الأسـلوب المعـروف بأسـلوب يحيـى حقـي. وبالطبـع أيضًـا هـو نـوع آخـر فيـما يتعلـق بي أنـا. فأنـا عـربي وشريـف النسـب وصعيـدي شرقـي.

- وهل لاحظت أي أثر لأصول حقي غير العربية على كتاباته؟

- لا.. ولكـن هنـاك «حاجـات» خفيـة جـدًا بصراحـة، فمـع حبـه لمـصر ولكنـه ظـل يشـعر في داخلـه بشـعور الأتـراك القدمـاء. هـو ينكـر، ولكننـي أعـرف ذلـك جيـدًا.

- أعني هل أثر هذا الشعور الخفي الذي تتحدث عنه في كتاباته؟

- لا لم يؤثـر، بـل لعـلي أسـتطيع القـول إنـه أثّـر بشـكل عكـسي، فحتـى ينفـي هـذا الإحسـاس عنـه بالـغ في جرعـة حبـه لمـصر.

- قلت إن من فضائل يحيى حقي عدم الغضب، ولكن...

- نعـم، أنـا لا أتسـاهل مـع أحـد، والنـاس ينفـرون مني لهـذا السـبب، ولكـن الحقيقـة أن يحيـى احتملنـي، ففـي شـبابي كنـت عنيفًـا وشـديدًا، ولسـاني حـاد عـلى أصدقائـي الذيـن أحبهـم، ولكـن يحيـى لم يغضـب قـط. أكـبر فضيلـة ليحيـى أنـه لم يغضـب قـط ولم يشـكني إلى أحـد قـط.

- ما رأيك بترجمات يحيى حقي؟

- كان يحيى يترجـم تحت تأثير الكتابة النحوية، ولكـن الكتابة سـليقة وليسـت نحوًا، ولقـد كانـت هنـاك أشـياء صغـيرة كنـت أقولهـا لـه ولكنـه تمكـن منهـا بعـد ذلـك، كـما أن ليحيـى حقـي بعـض الآراء الفاسـدة حتـى الآن، منهـا أنـه يتصـور مثـلاً أننـا إذا قرأنـا بيـت الشـعر وتوصلنـا بأنفسـنا إلى معرفـة القافيـة دون أن نسـمعها فـإن البيـت ضعيـف، وهـذا طبعًـا كلام سـخيف جـدًا ولا قيمـة لـه ولكنـه يـردد ذلـك لغايـة الآن.

- ربما لأن القافية أحيانًا هي حد إيقاعي وليس حدًا معنويًا؟

- يحيى حقي لأنه من أصول تركية ينسى أن للعربي قدرته في هذا، فهو ذكي ويريد منك الذكاء، أي أنك تصل إلى القافية قبل أن يصل إليها.

- هل نستطيع تحديد ما اكتسبه حقي منك أو من جلسات القراءة الشعرية؟

- لم يكتسب، ولكنه فعلاً كان مقتدرًا، يعني لا توفيق الحكيم ولا نجيب محفوظ ولا أحد من هؤلاء عنده ما عند يحيى حقي من تكوين، كما أنه لا أحد في الشعر عنده ما عند محمود حسن إسماعيل من تكوين شعري، ولكنه، أي محمود حسن إسماعيل، لم يبلغ النهاية، فشعره لا يدل على شاعريته وهو في شاعريته أشعر بمراحل.

ويحيى يقال هذا فيه أيضًا، فقد كان عنده من المقدرة ما يبلغ به أعلى من هذه المرتبة، فلا نجيب محفوظ يلحقه في ذلك ولا غيره. نجيب محفوظ رجل صنعة مثل أبي تمام، على الرغم من أن أبا تمام شيء آخر تمامًا.

- وماذا عن توفيق الحكيم؟

- توفيق الحكيم هذا الحكم عليه أسوأ بكثير، فهو لا يقدر أن يقف بجانب محفوظ ولا بجانب حقي.

وحتى أقول الحق أرجع لأقول إن نجيب محفوظ أيضًا لديه قدرة، ولكنه لم يستمر، فقد شغلته الصنعة عن اكتساب القوة واكتساب السليقة الصحيحة. لقد أدرك يحيى حقي هذا ولكن نجيب محفوظ وقف عند الحدود، فهو مقتدر ولكنه لم يعمل، تمامًا مثل محمود حسن إسماعيل الذي يملك شاعرية ضخمة ولكنه لم يصل إلى الغاية. نجيب محفوظ مقتدر ولكنه انتبه إلى الغرض الثاني، فهو يجيد الرواية وقد تفوق فيها. تفوق على توفيق الحكيم بمراحل، ولو أنه بتواضعه يقول عن الحكيم إنه أستاذه، ولكنه أستاذ الحكيم طبعًا.

- قلت إن يحيى حقي منذ البداية كان يعرض عليك كتاباته، فهل كنت تعرض عليه كتاباتك؟

- نعم، كنت أقرأ له أشعاري وهو يسمع.

- وهل كانت له عليها ملاحظات معينة؟

- لا، كان يسكت عني، وأنا أعرف أنه لم يكن ينتبه إلى قراءتي، أما أنا فكنت أقرأ ولا أستاء. وبالطبع فإن ذلك يتصل بفضائله الشخصية، فقد كان يتميز بالوفاء والطيبة وفعل الخير والانفعالات لأبسط الأشياء. ولذلك، فأنا لم أغضب منه على الرغم من أنه أساء إليّ إساءة بالغة بعد ذلك، لم أغضب منه لأنني أعرف أنه خاف طبعًا من عبدالناصر وقد مدح عبدالناصر.

- أنت تشير إلى فترة سجنك في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.

- نعم، أيامها انقطع يحيى حقي عن زوجتي أم فهر ولم يسأل عنها وأنا في السجن، ولكنه كان يسأل عنها «من بره لبره». كان خائفًا ولكن نفسه صافية في الحالتين، في حالة الخوف وفي حالة الأمن.

- وهل كان لخوفه تأثير على مستوى كتاباته؟

- بالطبع فهو خواف، ومحمود حسن إسماعيل أيضًا كان كذلك، لقد خاف أصدقائي عندما سجنت وانقطعوا عني، ولكن إساءة حقي هذه لم تحز في نفسي «قلت لك إنه جبان وخلاص».

- وكيف برر انقطاعه عنك؟

- «ما يعرفش يبررها»، بماذا يبرر الصديق انقطاعه عن صديقه؟ إن الصديق يلقي بنفسه في النار من أجل صديقه. وعلى الرغم من ذلك أنا لم أتأثر بفعل إسماعيل ويحيى، لم أتأثر بسوء فعلهما، بل إن يحيى بالذات جزء مني وأنا أعرف أنني جزء منه، وكل ما في الأمر أنه انقطع عن أولادي وعن أم فهر في فترة دخولي السجن في الوقت الذي كان فيه الكويتيون يأتون إلى بيتي ويهتمون به، وعلى رأسهم يعقوب الغنيم وصالح العثمان وعمر وعبدالعزيز التمار وأحمد الجاسر، كانوا يصرفون على بيتي ولذلك أنا أحب الكويتيين لأن لهم منة في عنقي لا تزول.

- كيف تم التعارف بينك وبين هؤلاء الكويتيين؟

- أرسلهم إليّ الأستاذ سيد صقر الذي كان أستاذًا للأدب العربي في المعهد الديني في الكويت. وعندما أتوا عندي أحببتهم وأدخلتهم في بيتي، وعندما يسافرون إلى الكويت في الإجازات كنت أفتقدهم بشدة.

ونشأت بيني وبينهم مودة، وكانوا كلهم بمنزلة أولادي ومنهم عبدالله عيسى ومحمد الرومي وحمود وغيرهم كثير.

- لقد فاز يحيى حقي بجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب لعام (١٩٨٩)، وهي الجائزة نفسها التي حصلت أنت عليها عام (١٩٨٤)، فما رأيك بهذه الجائزة؟ وهل يمكن مقارنتها بجائزة نوبل للآداب التي حصل عليها نجيب محفوظ؟

- أولاً أنا لا أحب الجنس الأوربي عن بكرة أبيه، ولا أفضل الغرب المسيحي كله، وليس له ميل في نفسي، وأولاد فيصل (الملك فيصل) عملوا عملاً كبيرًا؛ لأنهم أوجدوا جائزة الملك فيصل، فمالنا نحن ونوبل؟ إن جائزة نوبل لا تهمني ولا يصح أن ينتظرها أحد.

عندما فاز يحيى حقي بجائزة الملك فيصل فرحت، لسبب وهو أن نجيب محفوظ عندما فاز بجائزة نوبل عملوا له ضجة، أما يحيى عندما فاز بجائزة الملك فيصل لم يعمل له أحد ضجة ولكنني أعتقد أن الله أكرم يحيى لأنه فاز بجائزة الملك فيصل ولم يأخذ جائزة نوبل، أقول ذلك على الرغم من أنني أعرف أن الأولى قيمتها المادية (٩٨ ألف دولار) في حين أن الثانية قيمتها مليون دولار، إن جائزة الملك فيصل لها منزلة عندي كما قلت في خطاب تسلمي لها قبل أربع سنوات، وأحب أن ينتمي إليها العالم العربي والإسلامي.

- وهل ترشح أحدًا لهذه الجائزة الآن؟

- لا.. لا.. لا أرشح أحدًا فأنا عضو في المجمع اللغوي ولكنني لا أرشح أحدًا، أما يحيى فهو يستحق ليس نوبل فقط بل أضعاف أضعاف جائزة نوبل.

الباب الرابع

كلمة في المنهج

بحث مختصر أبنت فيه شيئًا
من منهج شيخنا في القراءة
ودرس الأدب

كلمة في المنهج

وهذا فصل أدرته على بيان منهج شيخنا رحمه الله في دراسة الأدب، وهي منهج التذوق وما تناسل منه، وتفرع عنه=قاصدًا الإيجاز الشديد في بياني هذا، مع الحرص على الدلالة على مواضع ذلك من كتب شيخنا؛ لتتم الفائدة.

دخل العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى (١٩٠٩ - ١٩٩٧م) ميدان الأدب، والتراث بجملته، مصحوبًا بزادٍ وفير من العلم المتقن، والنظرة الفاحصة، والاستقراء الذي هو أشبه شيء بما كان يسميه أهل المنطق بالاستقراء التام.

يشعل هذا في نفسه أمرٌ ملأ عليه نفسه؛ حيث كان محمود شاكر صاحب قضية يتتبع خيوطها، ويرصد أخبارها، ويفتش عن معالمها في الموروث الهائل الذي خلفه لنا علماؤنا الكبار، هذه القضية هي «قضية الشعر الجاهلي وصحته»، وما يتعلق بذلك من قضية «إعجاز القرآن العظيم»، وهذا ما حمله على ترك الجامعة ومصر كلها بعد أن ييس الثرى بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين؛ فقد رأى هو أن أستاذه «سطا» على مقالة مرجليوث، واحتذى رأيه ونسبه إلى نفسه دون الإشارة إلى مقال مرجليوث، ثم أخرجه من بعد في كتاب «في الشعر الجاهلي» الذي ملأ الدنيا بلهب لم يخمد إلى يوم الناس هذا، مما أثار نفس الشاب الصغير، وقوَّض معنى الجامعة في نفسه، حتى تركها غيرَ آبهٍ بمستقبل عملي، ولا رغبة والد، ولا نصيحة أساتذته[1]، وجعلته يقرأ بحسٍّ لاهب ونفس طموح، وهمة وثابة لا تعرف الملل= تراث أمته كله، على تنوع مصادره واختلاف موارده، يتحسس اللفظ وبروزه، وينبعث في عوالم الكتب الملونة بنفوس كاتبيها، يكشف السر عن البيان العربي، ويذوق الكلمات مُنْحَدِراتٍ إلى أحناء صدره، وينظر ويتأنى، ويصبر ويتجلّد، حتى استقام له بَصَرٌ نافِذٌ بمواقع الكلم في اللغة،

(١) المتنبي ص ١٥. محمود محمد شاكر. الطبعة الثانية. دار المدني بجدة ١٤٠٧ - ١٩٧٨.
وانظر: المتنبي ليتني ما عرفته - جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ٢/ ١٠٩٨-١١١١. جمع وتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال. مكتبة الخانجي الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

ومعانيها ودلالاتها على أنفاس قائليها، وصار ذا ثقافة متماسكة مبنية على قواعد متينة من العلم والدربة والخبرة[1]، وسنعرض لهذا فيما بعدُ.

ظلت هذه القضية تتلهَّب في صدره، وتثور في نفسه، وتمده بزاد من الهمة المشبوبة لا ينتهي، حتى أرسل نفسه بعزيمةٍ حذّاءَ ماضية يقرأ بيان أسلافه فيما تركوه من ميراث علمي، غير متقيد بفن من فنون العلم يلزم نفسه بالقراءة فيه، بل قرأ في الطب والفلسفة والبيزرة والحديث والفقه وعلم الكلام...إلخ ذلك الميراث العريض الذي تركه لنا أسلافنا من أهل العلم والعربية[2].

ومن هنا دلف محمود شاكر إلى ميدان الأدب مزودًا بذاكرة عجيبة، وعلم وسيع، وخبرة هائلة بالتراث، وبصيرة تجمع الشبيه مع الشبيه والنظير مع النظير، حتى خرج على الناس من عزلته الاختيارية، بكتابه الذي صار حديث الناس والأقلام والصحف في مصر والعالم العربي، وفي بلاد المهجر، وهو كتاب المتنبي، الذي أخرجه شاكر مبينًا عن قلم فريد في عالم الأدب، كان له من بعد ما كان من ريادة أدبية يشار إليها بالبنان.

وإذا ما أردنا كشف اللثام عن منهج محمود شاكر في الأدب، وتتبعنا ما سطره في مقالاته وكتبه وتحقيقاته، رأينا معالم لا يخطئها الناظر في كتبه، كانت هي الأسس التي بنى عليها دراسته في الأدب، ومنهجه فيه، مما جعله متفردا صاحب مدرسة قائمة بأصولها يتبعه فيها من يتبعه من تلامذته ومريديه والقاصدي قصده.

وهذه الأسس لم ينص عليها شيخنا، وإنما جعلها مبثوثةً في كتبه ومقالاته وتحقيقاته، ولقد استبان لي بعد النظر في تراث شيخنا ومنهجه، أن هذه الأسس هي:

(١) التذوق، وهذا هو أصل الأصول في منهج شاكر.
(٢) المنطق العقلي.
(٣) اللغة.
(٤) التاريخ السوي.

وهذه الأسس الثلاثة الأخيرة كلها مندرجة تحت الإطار العام الذي جعله شاكر محورَ منهجه في التعامل مع الأدب، وهو «التذوق».

(١) انظر وصف الأستاذ محمود شاكر لهذا الأمر ببيانه الفريد في (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) في صدر نشرة المتنبي - محمود محمد شاكر ص٦، طبعة دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م.

(٢) الرسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٧.

(١) التـــذوق

أمّا التذوق الذي بنى عليه محمود شاكر دراسته في الأدب، وكان المُعْلَمَ الرئيسَ الذي دندن عليه كثيرا، وذكره في غير ما كتاب= فلم يكن ذلك التذوق الساذج الدائر على ألسنة الناس، من الاستحسان والتقبيح اللذَيْن لا يستندان إلى دليل، ولا يرتكزان على أساس علمي منضبط، وهو ما يسميه شاكر «التذوق الساذج»[١]، ولكنه التذوق الذي نبع من تكرار النظر في المادة الأدبية، وترديد الكلام وترجيعه، والاستقراء التام، وجمع النظير إلى النظير، والاستنباط القائم على الدليل، واليقظة في التحليل، والإلمام بالظروف التي أحاطت موضوع الدراسة، وتحليلها.. إلخ..

وقد أبان أبو فهر كلّ الإبانة عن التذوق وأَصْلِه لغةً وبيانا في حديث مستفيض امتد في أكثر من خمسين صفحة، عبر مقالاته الموسومة باسم «المتنبي.. ليتني ما عرفته» التي نُشِرَتْ في مجلة الثقافة سنة (١٩٧٨ م) يناقش فيها الدكتور عبد العزيز الدسوقي، مبينًا فيها منهجه في التذوق، ثم أتى في نهاية المقالات بخلاصة قوله في التذوق الذي أقام عليه منهجه، فقال رحمه الله:

«وأظنه صار قريبًا ممكنًا أن نتخطى كلاما كثيرًا، ونفضي إلى نتيجةٍ موجزة، وهي: أن التذوق يقع وقوعا واحدًا، في زمن واحدٍ، على كل كلام، بليغًا كان أو غير بليغ. ثم يفصل عن «الكلام» ومعه خليط واحد ممزوج متشابكٌ، غير متميز بعضه عن بعض. وفي هذا الخليط أهم عنصرين:

العنصر الأول: ما استخرجه التذوق من العلائق الباطنة الخفية الناشبة في أنفس الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني. وهذا في جملته يجعلنا قادرين على أن تستخلص منه ما يحدد بعض الصفات المميزة التي تدل على «منشئ الكلام».

والعنصر الثاني: ما استخرجه التذوق من العلائق الظاهرة بين أنفس الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني، وهذا في جملته يجعلنا قادرين على أن نستخلص منه ما يحدد بعض الصفات المميزة التي تدل على «طبيعة الكلام» نفسه، أي ما يتميز به من السذاجة أو بالبلاغة، أو ما شئت من هذا الباب»[٢].

(١) جمهرة المقالات ٢/ ١١٨٦.

(٢) انظر جمهرة المقالات ٢/ ١١٨٧.

وقد بين شاكر أن هذا التذوق العليم يشمل كل كلام صادرٍ عن قلب إنسان مبين عن نفسه «فكل كلام صادرٍ عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه= خليقٌ أن أُجري عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل»[(١)].

ومن هنا أدار هذا المنهج الذي استقام له على كل كلام قرأه، أو طالعته عينه، في سائر أنواع العلوم والفنون التي خلفها لنا أسلافنا الأقدمون، شعرًا ونثرًا، وأخبارًا تروى، وعلمًا يكتب أو يستخرج، كان يقرأه على أنه «إبانة منهم عن خبايا أنفسهم بلغتهم» - كما يقول شاكر - مما أورثه خبرة هائلة بمعاني الكلام ومواقعه في النفوس، ودلالته على أنفس أصحابه.

منهـــج قديـــم

ولم يَدَّعِ محمود شاكر أنه هو الذي ابتدع هذا المنهج، بل دلل على أن له سلفًا في ذلك، مُمَثَّلًا بالإمام عبد القاهر الجرجاني صاحب «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة» (المتوفي سنة ٤٧٤ هـ تقريبًا)، وذكر أن عبد القاهر قد اهتدى إلى هذا المنهج من قَبْلُ، وأنه «وإن لم يكن صريحًا كل الصراحة في الإبانة عن منهجي، إلا أنه أشبه شيء به»[(٢)].

وجعل شيخنا يستدل على هذا بما ذكره عبد القاهر في «الرسالة الشافية» من أمثلةٍ من الكلام المنثور الذي لا يُطَاقُ مثله في معناه، مما يدل على إجرائه هذا المنهجَ - الذي أبان عنه أبو فهر، وجمعَ فصوله وأصوله من ركام الدفاتر ودواوين العلم - على الكلام المنثور أيضًا، من مثل قول سيدنا علي رضي الله عنه: (قيمة كل امرئ ما يُحسِنُه)، وقول الحسن البصري رحمه الله: ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبهَ بشكٍّ لا يقين فيه، من الموت».

وبَيَّن عبد القاهر رحمه الله تعالى أن أمثال هذه الكلمات الموجزة الحاذقة البارعة قد اختزنت في حناياها معانيَ كثيرة لا يطيق الإنسان المبين أن يأتي لها بشبيه من كلام البشر[(٣)].

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ٧.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص٩.

(٣) نفسه ص ٩-١٤.

التذوق أساس الحضارات

يرى شيخنا أن هذا التذوق هو أساس كل حضارة، وقوامُ كل علم، فيقول: «كل حضارة بالغةٍ تفقد دقة التذوق، تفقد معها أسباب بقائها. والتذوق ليس قِوامًا للآداب والفنون وحدها، بل هو أيضًا قوام لكل علم وصناعة، على اختلاف بابات ذلك كله، وتباين أنواعه وضروبه. كل حضارة نامية تريد أن تفرض وجودها، وتبلغ تمام تكوينها: إذا لم تستقل بتذوق حساس حاد مرهف نافذ، تختص به وتنفرد، لم يكن لإرادتها في فرض وجودها معنى يعقل، بل تكاد هذه الإرادة أن تكون ضربا من التوهم والاحلام لا خير فيه. فحسن التذوق يعني سلامة العقل والنفس والقلب من الآفات. فهو (أي التذوق) لب الحضارة وقوامها؛ لأنه قوام الإنسان العاقل المدرك الذي تقوم به الحضارة. وهذا شيء لا يكاد يختلف فيه اثنان فيما أظن»[1].

أسس المنهج

انطلق أبو فهر يضع العلاماتِ والصُّوَى في طريقٍ لاحبٍ يهدي إلى منهج مستقيم لكل دراسة أدبيةٍ تريد أن تصل إلى نتيجة سليمة، وذلك في صدر رده على شطط د. لويس عوض وتقحمه ما لا يحسن من الكلام عن أدب الأمة وتاريخها، حين نشر مقالاتٍ متتابعةً يدرس فيها رسالة الغفران لشيخ المعرة أبي العلاء، بعنوان «على هامش الغفران: شيء من التاريخ».

فتصدى له شيخنا، وأبان في بدء كلامه ما معنى المنهج فقال:

«ولفظ المنهج يحتاج مني هنا إلى بعض الإبانة، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون في مثل هذا الشأن، بل أريد به «ما قبل المنهج»، أي الأساس الذي لا يقوم المنهج إلا عليه. فهذا الذي سميته منهجًا ينقسم إلى شطرين:

- شطر في تناول المادة.
- وشطر في معالجة التطبيق.

فشطر المادة يتطلب، قبل كل شيء، جمعها من مظانها على وجه الاستيعاب المتيسر[2].

---

(١) أباطيل وأسمار – أبو فهر محمود محمد شاكر. الجزءان الأول والثاني – ص ١٣٤. الطبعة الثانية – مطبعة المدني سنة ١٩٧٢.

(٢) وهذا الذي أسميناه من قبل الاستقراء.

ثـم تصنيـف هـذا المجمـوع، ثـم تمحيـص مفرداتـه تمحيصًـا دقيقًـا، وذلـك بتحليـل أجزائهـا بدقـة متناهيـة، وبمهـارة وحـذر، حتـى يتيـسر للـدارس أن يـرى مـا هـو زيـف جليًـا واضحًـا، ومـا هـو صحيـح مسـتبينًا ظاهـرًا، بـلا غفلـة وبـلا هـوى، وبـلا تـسرع.

أمـا شـطر التطبيـق: فيقتـضي إعـادة تركيـب المادة بعـد نفـي زيفهـا، وتمحيـص جيدهـا، باسـتيعاب أيضًـا لـكل احتـمال للخطـأ أو الهـوى أو التـسرع، ثـم عـلى الـدارس أن يتحـرى لـكل حقيقـة مـن الحقائـق موضعـا هـو حـق موضعهـا؛ لأن أخفـى إسـاءة في وضـع إحـدى الحقائـق في غـير موضعهـا، خليـق أن يشـوه عمـود الصـورة تشـويهًا بالـغَ القبـح والشـناعة»[(١)].

وقـد زاد هـذا الأمـر بيانًـا مـن بعـد، حيـث أوضـح أن شـطر التطبيـق هـو ميـدان صراع العقـول، وتصـادم الأفـكار، واختـلاف الأنظـار، تختلـف فيـه الـدروب والطـرق أو تتشـابك وتلتقـي.

وبيّن شـيخنا أن هـذا المنهـج «أصـل أصيـل في كل أمـةٍ وفي كل لسـان، وفي كل ثقافـة حازهـا البـشر عـلى اختـلاف ألسـنتهم وألوانهـم ومللهـم وأوطانهـم»[(٢)].

وهـذا كلامٌ راسـخ، والناظـر في قواعـد أهـل العلم بأصـول الفقه، أو أصـول الحديث= سـيجد أن هـذا المنهـج الـذي قـص علينـا الشـيخ طرفًـا منـه، مسـتفيضٌ مبثـوثٌ في كلام الأئمـة وطرائقهـم في الاسـتنباط والاحتجـاج؛ فـلا يجـوز لمجتهـد أن ينظـر في مسـألة حتـى يحشـد بـين يديهـا أدلتـه، ويجمـع كل مـا في بابهـا، كـما لا ينبغـي لمشـتغل بالحديـث أن يحكـم عـلى حديـث صحـةً أو ضعفًـا حتـى يجمـع طرقـه، التـي تنطـق بخلـوه مـن العلة والشـذوذ.

والناظـر في تـراث الأسـتاذ محمـود محمـد شـاكر نثـرا وشـعرا، تأليفـا أو تحقيقـا= لا تخطـئ عينـه هـذا الأثـر المبـين لهـذا المنهـج الفريـد الـذي اهتـدى إليـه في رحلتـه الطويلـة في دنيـا النـاس المكتوبـة، ولذلـك نـراه قـد اتخـذ هـذا المنهـج قاعـدة لـه في كل مـا رقمـه مـن علـم، ومـا حققـه مـن رأي[(٣)].

---

(١) أباطيل وأسمار: ٢٤، ٢٥.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٢٣.

(٣) قد أشار الأستاذ إلى هذا في رسالة في الطريق إلى ثقافتنـا: ١٨، ١٩.

وهذا «المنهج» بشطريه= هو أشبه ما يكون بما اصطُلِح على تسميته من بعد بـ «الفيلولوجيا»[1] التي تهتم بضبط النصوص، وحسن تأويلها، والتعليق عليها، وتفضي إلى الاعتناء بتاريخ الأدب والأخلاق[2].

وهذا المنهج الصارم الذي حد حدوده محمود محمد شاكر جعله لا يُهَيِّئ تطبيقه إلا لمن كانت له دربة باللسان العربي، ومعاني الكلم، وصورها، وتقلبات المجاز بها، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مرّ القرون، وظلال المعاني وأطيافها التي تختلف باختلاف سياقاتها وكاتبيها ونفوسهم وإطاقتهم البيان بها عما يختلج في نفوسهم.

ومن أجل ذلك تباينت الدراسات ومواقع النظر في النصوص المختلفة، على قدر إحاطة كل كاتب بمادته التي يكتب عنها، وقدرته على النفاذ في أسرارها المغيبة خلف الحجب المنسدلة عليها، بالرفق والأناة والحذر والحيطة، والبصر النافذ، والبصيرة اليقظة، والعلم الممتد باللسان العربي وتصاريفه وأحواله.. بما يعني في كلمة واحدة «الذوق».

الأصل الأخلاقي

فإذا ما استقام للإنسان الذوق، واستبانت له معالمه، وتهيأ للسير في دربه الفسيح، كان لا بد لهذا السير من أصل يلزمه الإنسان، وقواعد تضبط خطوتَه ألّا يزيغ أو يضل، فيلتوي حكمه، أو يجور في درسه، أو ينحرف عنه قلمه، فيُلقيَ بالأحكام العجلى، أو المصبوغة بالهوى.

وهذا الأصل الذي ينبغي الاعتصام به، هو ما أسماه شيخنا «الأصل الأخلاقي»[3].

ذلك الأصل الذي يخلص نية الإنسان وينجيه من أسر الهوى، ومن فتنة الشهوة في الحكومة، ويكسب حكمه الأدبي الدقة، والاستقامة، والاستواء، حتى وإن خطِئ طريق الصواب في النتيجة النهائية.

(١) وهو ما يعرف بفقه اللغة.

(٢) دروس في الألسنية العامة لـ فردينان دي سوسير ص ١٨. الدار العربية للكتاب سنة ١٩٨٥.

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٣٠ - ٣٣.

وإغفال هذا الأصل الأخلاقي هو الذي يصيب البحث بآفات الهوى والغَرض، ويهدم شطري المنهج في «جمع المادة»، وفي «التطبيق» ويجعل البحث نهبًا لآفات الهوى والجور.

يقول شيخنا:

«وهذا الأصل الأخلاقي عندي هو الدين= أي دين= بمعناه العام، وهو ما يعصم الإنسان من الهوى، ويكبح جموح النفس الإنسانية، ويحجزها من الزيغ عن الفطر السوية، وعلى قدر تحقق الإنسان من هذا الأصل العظيم، وتلبسه به، وانتظامه في سِلْكِهِ، على قدر ما يكون بحثه أقربَ إلى الصحة وأميلَ إلى الحق، وأحرَى بالدقة التي يسعى إليها كلُّ مُتَجَرِّد منصف»[1].

المباينة بين أبي فهر وأستاذه طه حسين

وبهذا البيان الموجز يتبين لدارسي منهج محمود محمد شاكر= أنه منفصلٌ كل الانفصال عن منهج أستاذه الدكتور طه حسين؛ حيث دعا طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» كل باحث في الأدب إلى نبذ كلِّ قيد واطراح كل فكرة، وكسر كل انتماء= ولو كان إلى الدين= عندما يريد أن يبحث شيئًا، حتى يكون -كما يرى حسين- متجردا للبحث، متحققا من تطبيق منهج ديكارت في الشك، والذي يعني خُلوَّ الإنسان خُلُوًّا تاما مما ورثه من قيم، أو انتمى إليه من عقيدة، ودخوله بوابة البحث عاريًا إلا من قلمه وعقله، الذي ينبغي أن يكون أيضًا - أي العقل- شاكًّا في معتقداته وموروثاته وثقافته التي نشأ فيها وربا في ظلالها، ثم يجعل كل هذا على بساط البحث تحت سياط التشكيك!

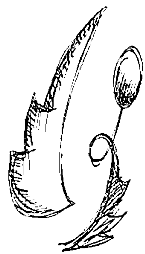
وكان دعوة الدكتور طه حسين العجيبة التي قال فيها: «يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضادُّ هذا الدين!

(١) انظر المصدر السابق نفسه ص٣١.

يجب ألا نذعنَ إلا لمناهج البحث العلمي الصحيح، ذلك أنا إذا لم ننسَ قوميتنا وديننا وما يتصل بهما= فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وسنغُلُّ عقولَنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين»[1] !

وهذا كلام متناقض، تكذبه شواهد العقل، ووقائع الحياة؛ فإن الإنسان -لابد- وأن يكون في كل حركة من حركات حياته= منتميًا إلى شيء يعصمه من الخطل، ويصونه عن الزيغ. ثم إن هذا الكلام ينفي الاعتصام بالدين؛ ليحل محله دين «مناهج البحث العلمي الصحيح»، وهو كلامٌ مغموس في الضباب والتعميم! وهذا ما حدا بشيخنا إلى وصف كلام د. طه حسين بالكذب؛ فهو «شيء لا أصل له، ويكاد يكون، بهذه الصياغة، كذبًا مصفى لا يشوبه ذَرْوٌ من الصدق.... محصوله أنه يتطلب إنسانا فارغًا خاويًا مُكَوَّنًا من عظامٍ كُسِيَتْ جِلدًا لا أكثر!»[2].

وإذن فقد كان لأبي فهر دربه الذي نهجه لنفسه، وبناه في خلوة الكد غريبًا بين الكتب وضجيج الأسئلة، وهو دربٌ آخر مباينٌ كل المباينة لما كان يدعو إليه أستاذه.



وقد صرح أبو فهر بهذه المفارقة بينه وبين أستاذه إذ يقول موجها حديثه للدكتور الدسوقي عن حقيقة العلاقة بينه وبين طه حسين[3]:

«ليس الأمر أمر خصومة، ولكنه أمر خلافٍ، خلافٍ بعيد الجذور، يبلغ حدَّ التباين الكامل في الأصول، وهذا التباين الكامل في الأصول يُفضي إلى تباين كامل في الآراء التي تنبع من هذه الأصول».

وبَيِّنٌ أن شيخنا يقصد بالأصول هنا= أصول النظر وقواعد المنهج التي يسير عليها الإنسان.

---

(١) في الشعر الجاهلي ص ١٢. طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م. وقد أعيد طبعها حديثا بالنص الذي كان في الطبعة الأولى قبل التعديل الذي أحدثته ضجة الألسنة والأقلام!

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٣٠.

(٣) مجلة الثقافة، السنة السادسة - العدد ٦١، أكتوبر سنة ١٩٧٨، ص ٥. وانظر جمهرة المقالات ٢/ ١١٢٨.

الارتباط بين الأصل الثقافي ومفهوم الحضارة:

ولا يفوت الباحث المتأمل أن هذا الأصل الأخلاقي هو الذي حدد مفهوم الثقافة عند أبي فهر، فهو يرى «أن ثقافة كل شعب هي تراثه البعيد الجذور في تاريخه المنحدر مع أجياله، ينقله خلف عن سلف. وهذا التراث مُكَوَّنٌ من أفكار ومبادئ يحملها أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم، في زمنٍ ما من حياتهم، ومن تطبيق هذه الأفكار والمبادئ حتى تصبح أسلوبا لحياة المجتمع المُكَوَّنِ من هؤلاء الأفراد»[1].

وبيَّن أيضًا أن رأس كل ثقافة هو «الدين» بمعناه العام[2].. وهو بهذا يتماشى موافقًا مع تعريف ت. إس. إليوت للثقافة؛ حيث يرى إليوت أن ثقافة الشعب، ودين الشعب مظهران مختلفان لشيء واحد؛ لأن «الثقافة» في جوهرها تجسيد لدين الشعب، وأن السير إلى الإيمان الديني عن طريق الاجتذاب الثقافي ظاهرة طبيعية مقبولة.[3]

وقد صرح هو بموافقة إليوت في هذا التعبير، قائلًا: «وهو تعبير صحيح في جوهره»[4].

ومن أجل ذلك كان عداء شيخنا الذي مر بك للثقافة الغربية التي نبتت في مدارج نموها، في بيئة وثنية مسيحية، ينكر عقائدها ويرفضها، ويعتقد بطلانها كل البطلان[5].

وإذن.. فمنهج التذوق هو المنهج الذي بنى عليه أبو فهر رحمه الله فلسفته في دراسة الآداب والفنون وكل ما أبان به الإنسان عن نفسه= وهذا التذوق هو أصل الحضارات، وأصل كل فن صحيح= ولا بد من تطبيق هذا التذوق في شطري المنهج: جمع المادة والتطبيق، مع الاعتصام بالأصل الأخلاقي العام الذي يلائم ثقافة الإنسان ومعتقده في أي ثقافة كانت، وفي أي معتقد كان.

---

(١) مجلة الثقافة، العدد العاشر - يولية ١٩٧٤ انظر ص ٤ - ١٠ بعنوان: في الطريق إلى حضارتنا. محاضرة ألقاها الأستاذ محمود محمد شاكر في جامعة الملك عبد العزيز بجُدَّة يوم الأربعاء ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٩٤هـ / ١٥ مايو سنة ١٩٧٤ م. «جمهرة المقالات٢/ ١٠٧١».

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٣١.

(٣) أباطيل وأسمار ٢١٧.

(٤) جمهرة المقالات ٢/ ١٠٨١.

(٥) أباطيل وأسمار ٤٩٨.

فإذا ما أنعمنا النظر في آثار هذا المنهج على قلم أبي فهر، وفي حركة فكره التي تجلت في تآليفه وتحقيقاته= رأينا أن هذا التذوق النافذ كان يرتكز على «أصول» نستطيع استخلاصها من بطون كتب شيخنا، مع ضرب الأمثلة في إيجاز مجحف؛ لتبيان كيف طبق شيخنا هذا المنهج في نظره ودراسته.

وهذه الأصول المستخلصة هي:

١) العقـــل: الذي يحكم حركة التصور ودقة النظر.

٢) اللغــــة: التي لا بد من الإحاطة بأسرارها، والنفاذ في أغمض معانيها، ومراعاة الفوارق اللطيفة الخفية التي تسم كل بيان بوسم من نفسٍ صاحبه، حتى ليتجلَّى بِسَمْتِه وهيئته في ظلال البيان وخلف السطور. مع عدم الاكتفاء بما سطره أهل المعاجم في معجماتهم، فليست المعاجم لمعاني الأساليب ولا للدلالة على التراكيب، وإنما هي تذكرةٌ بأصول معاني الكلم، دون النظر في تطور دلالات الكلمات، ولا في تباينها باستخدام كل أديب لها.

ومن أجل ذلك سنرى كيف لم يقنع شيخنا محمود شاكر بالنظر في المعاجم للدلالة على معاني الأبيات التي تعرض لدراستها وشرحها، وكيف خالف أئمةَ اللغة الذين احتكموا إلى معنى اللفظة المجرد دون النظر إلى الوشائج التي أحاطت باللفظة، وكستها بمعانٍ جديدة أُخَر.

وكان من أثر ذلك إلحاق أبي فهر كل كتاب حققه بما يسميه: «ألفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم، أو قصّرت في بيانها»[(١)] وهو تقصير ما اهتدى إلى كشفه، إلا بعد دُربة هائلة وممارسة لكلام العرب، والنظر في تفننهم في البيان، مع معرفة بصيرة بعاداتهم، وأيامهم، وبلادهم، وما يجوز أن يقوله العربي، وما لا يجوز.

٣) التاريخ العقلي: وأقصد بذلك: التاريخ الذي لا يؤخذ من القصة الكاذبة ولا من الأسمار والأباطيل التي كان الندماء وأحلاس الليل يتكذَّبُونها وينفقونها عند مجالسيهم، فتطير في الآفاق وتنتشر على حوافِّ الألسنة، حتى تستقر في العقول والضمائر كأنها حقيقة رياضية لا جدال فيها. وسنعرض لهذا أيضًا.

(١) يمكن النظر إلى فهارس الطبري طبعة دار المعارف، وفهارس طبقات فحول الشعراء.

(٢) قانون العقل

أما العقل فالمقصود به هو ذلك القانون الذي يحكم تصورات الإنسان ويضبط أفعاله، ويربط بينها برباط منطقي.

وهو في الأدب: ذاك الذي يساوق بين الألفاظ، ويضعها في سياقاتها الصحيحة، ومواضعها اللائقة بها. وذاك الذي يقول عنه شيخنا: إنه الذي يربط بين اللغة وبين الإحساس، «فينقلب المنطق العقلي - بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته- حاسَّةً دقيقةً مدبرة، تعمل في حياطة الإحساس، والقيام عليه، وتصريفه في وجوهه على هُدًى لا يضل معه، فلا يشرد عن الغرض الذي يرمي إليه في التعبير عن الصور التي تنشأ لهذا الإحساس. فأكبر عمل المنطق العقلي.. أن يمد الإحساس بما ليس له من الاستواء والاستقامة والسداد»[(١)].

ومن هنا كانت يقظة أبي فهر لتلك اللمحات الدالة التي ينبذها كل شاعر أو كاتب في أثناء كلامه، وكيف كانت تكون دالةً على ما في نفسه، وما الذي دعاه إليها، وهل وُفِّق في ذلك أم لا؟

فهذا أبو الطيب المتنبي، شاعر العربية المبين، ينظر إليه محمود شاكر تلك النظرة العقلية المغموسة في المنطق، ويبين كيف أن أبا الطيب بالإشارة الموجزة واللمحة الدالة والعبارة الخاطفة المومضة، يقصد إلى معنى قد يخفى على كثير من الناس فهمه، ويفسرونه بما تعارفوا عليه من مألوف كلامهم سياقهم.

يقول أبو الطيب في رسالته التي بعثها إلى سيف الدولة بعد فراقه إياه:

فهمت الكتاب أبرَّ الكتب.. فسمعًا لأمر أمير العربْ

فيعلق محمود شاكر قائلا[(٢)]: «فإذا كان هذا الكتاب كما وردت الرواية قاصرا على رغبة سيف الدولة إلى أبي الطيب في أن يلحق به، ويكون في جواره، فيكون قول أبي الطيب (فهمت الكتاب) من أسخف القول وأرذله وأحطِّه وأسقطِه، ويكون سقوطًا قد أصاب عقل هذا النابغة.

(١) الشعر والشعراء. مجلة الرسالة، السنة الثامنة- العدد ٣٤٧، ١٩٤٠ ص ٣٤٣. وانظر جمهرة المقالات ١/ ١٠١.

(٢) المتنبي: ٣٣٠.

أيقول أبو الطيب إنه فهم كتاب سيف الدولة (الذي كتبه له بخطه) يسأله أن يسير إلى الشام؟ وما في هذا الطلب مما يحتاج إلى (الفهم)؟ وما فيه مما يقتضي الإجابة عنه أن يخبره بأنه قد فهمه؟ أيكون هذا ويُعقَلُ؟!»..

ثم استفاض في تفسير قول أبي الطيب «فهمت الكتاب» على أنه كان كتابًا فيه شرح حال سيف الدولة، والمعوقات التي تحول دون تمام ما كانا يتهامسان به من شئون السياسة وأمور الدولة، والقضاء على نفوذ العجم ومن ينتمي إليهم بسبب، وهذا هو حق المعنى، وواجب التدبر في اللفظ من حيث العقل والفهم، وإلا كان الكلام لغوًا لا خير فيه..!

وهذا منهج عقلي يرفد تذوقه للأبيات والمعاني ودلالات الألفاظ، بحيث يعي عنها ما تؤديه من معان غابت عن أذهان كثيرين لغياب ذلك المنطق العقلي الرياضي[1]!

ويوضح هذا النظر العقلي في تصحيح المعاني والكلمات= ما كتبه شيخنا في الرد على الدكتور زكي نجيب محمود عندما استل كلمةً من كتاب الحيوان للجاحظ، مستشهدًا بها على ما ادعاه بأن الحجة العقلية في تراثنا العربي تكون ملزمةً للعقلاء من الناس، إذا وقَّعها صاحب السلطان، وختمها بخاتمه!

فرد عليه الأستاذ شاكر قائلًا[2]: «وهذه الجملة التي نقلها الدكتور زكي، هي مما وقع فيه التحريف والتصحيف، بدلالة العقل، ثم بدلالة السياق، ثم بدلالة تاريخ هذه الأمة العربية»[3]. وأتبع شاكر ذلك ببيان اللفظ الصحيحة والجملة الموثوقة من كلام الجاحظ في الحيوان.

وقد كانت الجملة التي استشهد بها الدكتور زكي نجيب محمود تقول: «من السرور بنفاذ الأمر، وبجواز التوقيع، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجة»..

(١) وصفنا ذلك المنطق بالرياضي؛ لأن شيخنا أشار في كتابه أباطيل وأسمار إلى حبه مادة الرياضيات وأثرها عليه. انظر: أباطيل وأسمار ٥٥٨-٥٥٩.

(٢) انظر جمهرة المقالات ٢/ ١٠٦٦ وما بعدها.

(٣) لعل في هذه العبارة كشفًا موجزا بارعا عما استنبطناه من الأسس التي بنى عليها الأستاذ محمود شاكر منهجه في دراسة الأدب، كما سنذكر بعد قليل إن شاء الله.

قد أرجعها الأستاذ محمود شاكر إلى أصلها الصحيح، بعد أن نفض عنها غبار التصحيف والتحريف، فكانت: من السرور بنفاذ الأمر، وبجواز التوقيع، وبما يوجب الخاتم من الطاعة، ويُلزِمُ من الخدمة»[1].

وهذه المقالة التي يرد فيها الأستاذ محمود شاكر ما جنح إليه الدكتو زكي نجيب محمود= خير دليل على صحة ما ذهبنا إليه من اعتماد الأستاذ محمود شاكر العقلَ أساسًا يبني عليه استنباطه، ويهديه إلى مواطن الخلل في الكلام، ومواضع العطب في الفكر.

ومثلها: كشفه عن عوار خبر راهب دير الفاروس، وكيف أن هذا الخبر كان خبرا لقيطًا لم يذكره أحد إلا القفطي، ولم يُعنَ أحد بالالتفات إليه، ولا التعويل عليه ولا اتخذه حجة في نبذ أبي العلاء قبل القفطي..حتى لقفه من لقفه من بعد القفطي وروج له في كتابه حتى يتخذه تُكْأَةً في رمي أبي العلاء بالفواقر في دينه وإيمانه[2].

وقد بين محمود شاكر بالمنطق العقلي، والنظر الدقيق أن ألفاظ هذا الخبر شاهدة شهادة العدول على كذبه، وأن قائله ليس من أهل العربية، ولعله أحد الأعاجم الذين نبزوا أبا العلاء بما نبزوه به..

ومن ذلك أيضًا: إبطاله خبر نبوة المتنبي الذي ظل مُتَوَهِّجًا بباطله في أروقة المنتديات والمحافل ودواوين البحث والتأريخ، أبطله شاكر بالنقد التاريخي لسياق الروايات، والمنطق العقلي، حتى لم يدعْ مقالًا لقائل بعده، إلا أنْ يكون دافعا في رأس الأدلة العقلية بمعاول العناد..!

ومن ذلك أيضًا نظره في منهج أبي جعفر رضي الله عنه في إيراد ما كان تالف الإسناد، أو ما كان مكذوبا من أخبار بني إسرائيل، وإتيانه بذلك في تفسيره.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة؛ لأن هذا كان شأنًا مطردا في كتابات محمود شاكر، فقد كان رجلًا يحترم العقل ولا يحب نبذ الكلمة هكذا باستخفاف، بل كثيرا ما يرى دارسوه

(١) جمهرة المقالات ٢/ ١٠٦٧.

(٢) قد أبطل الأستاذ شاكر خبر هذا الراهب في أربع مقالات متابعة في أباطيل وأسمار، وخصص إبطال الخبر «بالدليل العقلي» في ثلاث صفحات من ص ٧٨ - ٨٠.

صرامة قلمه وشدته في الأخذ بالمنهج العقلي الصارم، فيقول في ذلك: الاستخفاف أخدود الزلل، ويقول: خطر الإبهام شديد، مفسد للعقل والعلم جميعًا[1].

وهذا يبين لنا أن محمود شاكر لم يكن ذا تفكير تقليدي، وليس من الحسن وصف منهجه المتجدد بالمنهج السلفي نبزًا له وغضًّا من شأنه، وهذا ما سندلل عليه قريبًا، حتى يتضح كيف أن محمود شاكر كان يسير على نمط اهتدى إليه عبر الدربة والقراءة الدؤوب والنظرة الفاحصة والبصيرة النافذة، ولم يكن مباليا بمخالفة أحد ولو كان في قامة أبي العلاء المعري، أو المرزوقي أو التبريزي، أو الجاحظ، أو الفراء أو أضرابهم من أهل العلم بالعربية كما سنرى الآن.

(٣) اللغـــــة

أما اللغة فقد أوفى فيها الأستاذ محمود شاكر على الغاية واستولى على الأمد، وهو الذي نشأ في سرارتها، وارتوى من معينها صَبِيًّا حيث كان في مَدْرَجِ الحياة الأول، منذ أن أطل بروحه على رياض الحرف صغيرا من خلال أبي الطيب المتنبي يحفظ ديوانه ويستظهره، وهو لَمَّا يجاوز سنته الثالثة في الابتدائية[2]!

ثم ينطلق في مَيْعَة الصبا وهو ابن بضع عشرة سنة يقرأ الأغاني كله ولسان العرب في إجازة البكالوريا، حتى إذا ولج باب الجامعة، ولجه مصحوبًا بزاد وفير من العربية تهيأ لشاب صغير قرأ كل ما تحت يده من الشعر الجاهلي قراءةً تامة!

وهذا كله جعل عنده خبرة هائلة باللغة، ودربة متينة، وبصيرةً ثاقبة بمعاني الكلم لا سيما الشعر، فكان أفرس الناس ببيت شعر[3].

(١) انظر نمط صعب ونمط مخيف.- محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بجدة ١٩٩٧ م.

(٢) أباطيل وأسمار ٥٥٧. وانظر ما مضى في لقائه بالإذاعة الكويتية.

(٣) وصفه بذلك صديقه الناقد الكبير إحسان عباس، وجرت هذه الصفة أيضًا على لسان الدكتور ناصر الدين الأسد في لقائه مع مجلة العربي الكويتية.

ومن هنا كان تميز محمود شاكر عن كل أبناء جيله من العلماء بالعربية حتى صار لقبه المتعارف به بين الناس «شيخ العربية»[(١)].

وكان رأس المحققين الذين يجلون النصوص المحققة في أبهى مجاليها وأنصع حللها. وهذا أمرٌ متعارَفٌ عليه بين أهل العلم لا يكاد يختصم فيه أحد.

وبنظرة عجلى إلى تحقيقات الأستاذ أو إلى شروحه للكتب، أو حتى في شروحه اللغوية في حواشي الكتب ومتونها= يتجلى تمكنه من العربية وأسراها باديا لائحًا لا تكاد تخطئه عين، فكان رجلا يمشي مشية السالفين من أهل العلم لا تكاد مشيته تخرم مشيتهم[(٢)].

وعناية أبي فهر باللغة جعلته يتدسس بالقلم الصيود في أجمة العلم، يريد الاهتداء إلى سر من أسرار العربية، حيث نشر في مجلة المقتطف مقالات أربعة عام (١٩٤٠ م) بعنوان (علم معاني أسرار الحروف - سر من أسرار العربية، نرجو أن نصل إلى حقيقته في السليقة العربية)[(٣)].

وقد حاول من خلال هذه المقالات النفيسة الجليلة التي لم تكتمل[(٤)] الخلوص إلى سر معاني الحروف، ودلالة كل حرف على معنًى قائم بالنفس. وهي مقالات تحتاج إلى فقهٍ كبيرٍ في اللغة العربية، وخبرة هائلة بالعربية درسًا ونظرًا وتعمقًا، مع عبقرية لا تتهيأ لكثير من الناس.

وقد جعل محمود شاكر العلم بالعربية وحذقها «أصلًا من الأصول، لا يحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يُحسنَه ويَحْذِقَه»[(٥)].

(١) انظر مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي للطناحي رحمه الله: ص ١٠٣. وقد أسمى الدكتور محمود الرضواني رسالته في الدكتوراه باسم: محمود محمد شاكر: شيخ العربية وحامل لوائها.

(٢) من كلام الدكتور الطناحي المذكور في كتاب (مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي) ٢/ ٤٨٢. نشر دار البشائر الإسلامية. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٣ م.

(٣) المقتطف، المجلد ٩٦، مارس ١٩٤٠. وجُمِعَتِ المقالات الأربعة في جمهرة المقالات ٢/ ٧٠٨-٧٣٤.

(٤) كان صديقه الأديب الكبير يحيى حقي يلح عليه في إكمال هذه المقالات، ولكنه لم يفعل، رحمه الله!

(٥) تفسير الطبري. ٤/ ٤١٦. جامع البيان عن تأويل القرآن. حققه وخرج أحاديثه: محمود محمد شاكر، راجع أحاديثه أحمد محمد شاكر. الناشر مكتبة ابن تيمية (طبعة مصورة عن طبعة دار المعارف). الطبعة الثانية. بلا تاريخ.

وقد ولج محمود شاكر بوابة التحقيق مزودا بهذا العلم، فكان يصحح الخطأ ويكشف المُصَحَّف، ويَرُدُّ المُحَرَّفَ إلى أصله، ولو توارد عليه الكتبة والرواة منذ القدم.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره تعليقًا على استشهاد أبي جعفر برجز رشيد بن رميض العنزي:

قد لفَّها الليل بسواقٍ حُطَم * ليس براعي إبل ولا غنم

بات يقاسيها غلامٌ كالزلم * خدلج الساقين ممسوح القدم

وكان تعليقه على الشطر الأخير من الرجز فقال:

«خدلَّج الساقين: ممتلئ الساقين، وهذا غير حسن في الرجال، وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابي: (مهفهف الكَشحين خفَّاق القدَم) أي: ضامر الخصر»[1]. ا. هـ

وأمثلة هذا كثيرة كثرة وافرة، دائرةٌ في كتبه، ومن أعجب هذا إليّ تصحيحُه لمعنى بيت امرئ القيس الدائر على الألسن في قاعات الدرس والبحث، وهو:

وليلٍ كموجِ البحر أرخى سدولَهُ * عليّ بأنواع الهموم؛ ليبتلي

فيقول محمود شاكر بلغة العليم المكين:

«وهذا البيت أيضًا مما زعم الشراح أنه شبه الليل فيه بموج البحر في ظلمته ووحشته وهوله، وأن قوله «بأنواع الهموم» متعلق بـ «أرخى عليّ». والتشبيه الذي زعموه هنا فاسد فيما أرى.

والموج في البيت مصدر لا اسم. وأصل سياقة البيت «وليل يموج بأنواع الهموم ليبتلي، موجًا كموج البحر، أرخى علي سدوله». فظلمة الليل في قوله «أرخى علي سدوله»، أما التوحش والهول، فهو توحش الهموم الطاغية المتضربة عليه في ظلام الليل. وهذا أحق بامرئ القيس ونبالة معانيه. ومَنْ تأمّل عرف ما فيه من الروعة والإيجاز واللمح البعيد القريب للمعاني المختلفة.

(١) تفسير الطبري ٩/ ٤٧٣.

وههنا أمر مهم، ذلك أن الحذف الطويل في شعر امرئ القيس خاصة، وفي شعر غيره كثير، فمن ذلك قول امرئ القيس:

إذا قامتا تضوع المسك منهما * نسيمَ الصبا جاءتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ

ومعناه: تضوع تضوعًا مثل تضوع نسيم الصبا»[1].

وهذا التعليق يدل على أمور:

(١) حِذق بارع، ونظر دقيق، واضطلاع محمود شاكر بالعربية درسًا ونقدًا وتذوقًا.

(٢) استقلال محمود شاكر بالنظر في المادة التي بين يديه دون تقليد أو تبعية عمياء.

قصور المعاجم عن بيان دلالات الألفاظ

ومن تفرد شيخنا في هذا الباب، وعلو كعبه على أقرانه= أنه كان لا يكتفي بالنظرة العجلى إلى كتب اللغة والمعاجم يقبس منها المعنى، ويسلكه في جملته شارحًا الأبيات أو الجمل شرحًا آليًا لا إبداع فيه ولا يقظة.

وفي ذلك يقول: «سبيلنا اليوم إلى الشعر كله، هو كتب اللغة التي قيدت معاني الألفاظ وضبطتها، ثم كتب شراح الشعر من القدماء.

وكل ناظر منا اليوم في الشعر الجاهلي، لا يجد بدًا من الرجوع إلى كتب اللغة، وعليها يعتمد. فمن أجل ذلك كان واجبًا أن يدرك المرء إدراكًا صحيحًا واضحًا نهج هذه الكتب، وإلا استبهم عليه الطريق وضلت خطاه.

كان هم كتب اللغة على وجه التحقيق ضبط أصول معاني الألفاظ دون ما سلكته هذه الألفاظ على ألسنة الشعراء من مجازاتٍ، ودروب ومدارج، إلا ما شذ من ذلك عند استشهاد أصحاب اللغة بشعر شاعر بعينه.

---

(١) طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي. قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر - ١/ ٨٥. دار المدني بجدة.الطبعة الثانية ١٩٧٤.

ولـو أنهـا فعلـت غـير ذلـك، لخرجـت عـن أن تكـون كتـب لغـة، إلى أن تكـون كتـب نقـد للشـعر، وبيـان عـن معـاني ألفـاظ الشـعراء جميعًـا، حيـث قلبوهـا في أحوالهـا... وهـذا أمـر شـبيه بالمسـتحيل في تأليـف كتـب اللغـة..

والناظـر في الشـعر الجاهـلي مفتقـرٌ بعـد مراجعـة اللغـة والتدقيـق في فهـم أصـول الألفـاظ، إلى شيء زائـد عـلى نـص كتـب اللغـة. وإذا وقـف المـرء عنـد منطـوق النـص وحـده، بقـي الشـعر فيـه مطموسـا في موضـع، متفككًا في موضـع آخـر، مبتـورا في موضـع ثالـث، فعندئـذ يتمـرد الشـعر ويذهـب عنـه جامحًـا ولا ينقـاد»[1].

لأن الشـعراء لم يقصـدوا قـط الإبانـة المغسـولة عـن المعـاني بـل ركبـوا في سـبيل ذلـك أغمـض مـا في البيـان الإنسـاني مـن المذاهـب[2].

وهـذا هـو «الإشـكال الأعظـم» - كـما يقـول أبـو فهـر -؛ لأن علـماء اللغـة وشراح الشـعر قديـمًا كان عهدهـم بالعلـم قريبًـا، ولم تتفشّـى عجمـة اللسـان، ولا عجمـة البيـان، ولا عجمـة الفهـم، في نفوسـهم، فكانـوا يُطيقـون في بعـض الأحايـين الزيـادةَ عـلى أصـول المعاجـم ونصـوص شراح اللغـة مـا يبيـن عـن أغـراض الشـعراء في قصائدهـم.

وأمـا اليـوم، فالحـال مختلفـة، وقـد تمزقـت أكثـر علائقنـا بالمـاضي، وانحسـر مـد الثقافـة العربيـة، بغلبـة أخـلاط الثقافـات على العقـول والضمائـر وطـرق الفكـر ومناهـج النظـر[3]، فـلا بـد مـن:

- الجهد العظيم في فَتْشِ أغوار اللغة.
- القدرة على الاستقصاء والاستيعاب.
- القدرة على التحري والضبط.
- ترك التهاون.
- دقة الملاحظة للفروق[4].

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص ١٣٥ باختصار، وانظر على سبيل المثال أيضًا: ص ١٤٣ من نفس الكتاب.

(٢) نفسه ص ١٢٩.

(٣) نفسه ص ١٣٦.

(٤) نفسه ص١٣٦ بتصرف يسير.

وهـذا هـو الـذي كان يفعلـه رحمـه الله، ولا أدل عـلى ذلـك مـن كتابـه الفريـد «نمـط صعـب ونمـط مخيـف» الـذي كـسره كامـلًا للحديـث عـن قصيـدة واحـدة، وهـي قصيـدة ابـن أخـت تأبـط شرًا:

إنّ بالشِّعبِ الذي دون سَلْـعٍ لَقَتِيـلًا، دَمُـهُ ما يُطَـلُّ[1]

وقـد تجلّى في هـذا الكتـاب بيـان أبي فهـر، وعلمـه بالعربيـة، وبـصره بمعـاني النحـو والشـعر والألفـاظ.. بـل قـل: تجلى منهجـه الفريـد في التـذوق.

وكيـف خَلَّـص القصيـدة مـن الأقـوال المتشـابكة في نسـبتها، بالنظـر الفاحـص في الأخبار والروايات، وتطبيق المنهج العقلي عليهـا، وكيـف أرجعهـا إلى قائلهـا باسـتكناه ألفاظهـا، والغـوص في تيـار بحرهـا المتدفـق بأنغـام المديـد، الـذي يهيمـن عـلى القصيـدة هيمنة بارعـة تسـمعك أنفاسـا عتيقـة يسـتحيل أن تكـون لِمُحْدَثٍ نَحَلَهَا جاهليًّا قديـما.. ثـم أعـاد بناءهـا مـن جديـد، بترتيـب يـدل عليهـا ويعيـد إليهـا بهاءهـا.

ثـم شرع فيـما نحـن بسـبيله، وهـو كَشْـفُ اللِّثَـامِ عـن معانيهـا، وفَسْرُ ألفاظهـا، والإبانـة عـن دلالتهـا عـلى نفس صاحبهـا، ومـا يعتمـل في ذاتِ صـدره، ومـا تمـوج بـه نفسـه مـن أطياف الحـزن والثـأر والفخـر والخيـلاء والبـأس.

يقـول الدكتـور محمـود محمـد الطناحـي رحمـه الله تعـالى معلقًـا عـلى صنيـع أبي فهـر في نمـط صعـب: «وهـذا الكتـاب مـن أوثـق الدلائـل عـلى بـصر أبي فهـر بالشـعر واللغـة والنحـو»[2].

الـرد العليـــم

وممـا يـدل عـلى حذقـه البـارع بمعـاني اللغـة، إقدامـه عـلى تخطئـة السـابقين غـير هَيّـابٍ ولا وَجِلٍ..

ومن أمثلة ذلك: في شرحه لقول الشاعر:

مُسْبِلٌ في الحيِّ، أحوى رِفَلٌّ وإذا يعدو، فسِمْعٌ أزَلُّ!

---

(١) انظـر الحماسـة لأبي تمـام شرح المرزوقـي ٢/ ٨٢٧. تحقيـق أحمـد أمـين، وعبـد السـلام هـارون. نـشرة دار الجيـل، الطبعـة الأولى - ١٩٨١.

(٢) مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي ٢/ ٤٩٠.

يقول أبو فهر رحمه الله تعالى: «فالمرزوقي وأبو العلاء المعري، والتبريزي مجمعون على أن الحرف «مسبل » من إسبال الإزار...وأما «أحوى رِفَلّ»، فقد فر منهما المرزوقي فلم ينطق، على غير عادته في اللجاجة والإكثار... وأما أبو العلاء المعري فإنه ذهب في أحوى مذهبين.... ثم قال أبو فهر بعد بيان ذلك: وهذا كله خلطٌ مغْرِقٌ في الغثاثة!

ومسبل في هذا الشعر، إنما يعني به فرسًا عتيقًا ضافي السبيب، قد أسبل ذيله، يرخيه أو يشيل به، ويضرب به يمنة ويسرة، واختال اختيالًا، وتبختر في مشيته، وشبه خاله به في خيلائه.. وقد أغفلت كتب اللغة هذه الصفة من صفات الفرس في مادة (سبل)»[1].

وهذا يدل على أن أبا فهر يعترض بالحجة لا بالتشهي ولا بالظِّنة، وإنما هو الاحتكام إلى العلم باللغة والشعر ومذاهب الشعراء لا غير.

ومن أمثلة ذلك أيضًا يقول في الكلام عن المرزوقي= أحد الكبار من أهل العربية وصاحب شرح الحماسة وغيرها: «والمرزوقي إمام جليل من العلماء بالعربية، ولكنه ليس من العلماء بالشعر في شيء، وقد جزر البيت جزرًا بسكين علم اللغة، واستصفى دمه بتفسيره الذي أساء فيه..»[2].

ويرد على البغدادي صاحب الخزانة، وعلى ابن بري في نسبة بيت:

ولو كان عبد الله مولى هجوته ❊ ولكن عبد الله مولى المواليا

فيقول: «وقال ابن بري: هو للمتنخل الهذلي - وهي نسبة غريبة! -، والخزانة وقال: الصواب في رواية البيت... بحذف الواء (أو الفاء)، وجعل البيت مخرومًا، فإنه بيت واحد لم يتقدمه شيء حتى تكون الواو عاطفة»، قال شاكر: وليس بشيء![3]

(١) انظر نمط صعب ص١٥٧ - ١٦٢ في شرح بيت واحد!

(٢) نمط صعب ص ٢٥٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٨.

وكذلك رد على الجاحظ[1]، وعلى الفرّاء[2]، وعلى ابن فارس[3]، وعلى التبريزي، وعلى أبي العلاء[4]، والسكري[5]، وثعلب[6]، وابن سلام[7] وغيرهم من أهل العلم بالعربية كثير.

يقول العلامة السيد أحمد صقر رحمه الله تعالى، تعليقا صادقا على صنيع الأستاذ محمود شاكر في طبقات الفحول: «تلك الومضات الفكرية الخلابة، والنظرات الثاقبة النفاذة التي جلاها في بعض الشعر، فخرّجه على تأويلات دقيقة عميقة، لم يلحظها شراح الشعر الأقدمون، ورد عليهم تأويلهم في رِفْقٍ هادئ حينًا، وعنف ثائر في أكثر الأحايين»[8].

هذا فضلًا عن ردوده على المعاصرين في معاني اللغة وطرق الشعر، كالعقاد في تخطئته في البيان والشعر عندما انتدب العريان شاكرا للذب عن منهج الرافعي في نقد ما تعرض له من شعر العقاد، وبشر فارس (في وصف الأذن بالزلزلة، وزعمه الاهتداء إلى بحر جديد - المنطلق -!!)، واليازجي (وصفه شاكر بأنه صاحب حشد وتخليط في جمع اللغة، وخطَّأه في مواضع من كتابه نجعة الرائد)، والبصَّام (في المقالات الطريفة عن جملة السلام عليكم تعريبًا وتنكيرا)، وسيد قطب (في معركته التي ذكرناها آنفًا ضد العقاد الذي كان يناصره سيد قطب، ويتهجم على الرافعي، فقام له شاكر انتصارا للرافعي ضد العقاد)، وليس خافيًا على أحد أمر لويس عوض، وطه حسين في مقالاته بالبلاغ، وتوفيق الحكيم، ومحمد مندور ومحمد عودة، وغيرهم الكثير[9].

(١) انظر مثالًا تفسير الطبري ٢/ ٤٨٦، ٤٨٧، وقد اشتد في نقده إياه هناك!، وطبقات فحول الشعراء ١/ ٩٤.

(٢) نمط صعب ص ١٨٢.

(٣) طبقات فحول الشعراء ص٢٣٨ الطبعة الأولى.

(٤) وذلك في أكثر من موضع في نمط صعب ونمط مخيف.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٠١.

(٦) طبقات فحول الشعراء ٢/ ٤١٢

(٧) طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٩١.

(٨) مقال: طبقات فحول الشعراء، بمجلة الكتاب، ١٢/ ٣٨١، السنة الثامنة، ١٩٥٣م.

(٩) رأيتُ حسنًا التخففَ من ذكر مواضع المقالات والردود حتى لا أثقل الحواشي، والنظر في فهرس الأعلام المصنوع بنهاية جمهرة المقالات، وأباطيل وأسمار يدل على مواضع الردود.

وليس من قصدي هاهنا الإشارة إلى المعارك الفكرية[(١)]، وإنما قصدي الإشارة إلى رد شاكر عليهم مما يتصل بفقه اللغة، ومعاني ألفاظها، وتخطئتهم فيما ذهبوا إليه من مذاهب في اللغة أو الشعر أو شرح اللغة والشعر، وحسب، وأما عواصف المعارك الفكرية فله موضع آخر غير هذا الذي نحن فيه.

وأما ما زاده الأستاذ شاكر على أهل المعاجم من الشروح والتفسيرات فحشد حاشد يطول الوقوف عنده، والناظر إلى تحقيقاته= مثل جمهرة نسب قريش، وتفسير الطبري، وطبقات فحول الشعراء، وإمتاع الأسماع للمقريزي، وتهذيب الآثار للطبري= ليجد من ذلك زادًا وفيرا من العلم بالغة والإحاطة بأسرارها[(٢)].

(٤) التاريخ السوي

وهذا التاريخ السوي[(٣)] هو الذي احتفت به قرائن الثقة، وسار على قانون العقل، وكان موافقًا لنمط الحياة العربية، مرويا عن طريق ثقات النقلة، ممن توفرت فيهم صفتا العدالة والضبط، وتحلوا بالإتقان والخلوص من الهوى والأغراض.

وبهذا التعريف المختصر الموجز يتبين لنا أن هذا النمط من التفكير التاريخي النقدي لدى محمود شاكر كان موضع اهتمام، ومحور ارتكاز في منهجه العليم في التذوق.

وللأستاذ عمر حسن القيام كلمة صادقة الوصف لحقيقة تَعَلُّقِ الأستاذ محمود محمد شاكر بهذا المنهج التاريخي، فيقول: «ويبدو أن العناية بتصحيح التاريخ، والظروف المحيطة بالنصوص واحدةٌ من أهم دعامات التفكير النقدي عند شاكر،

(١) أجاءني إلى هذا النعت شيوعه على ألسنة الناس تعبيرا عما كان بين الشيخ وبين الآخرين، وقد تقدم كراهة الشيخ لهذا التعبير!

(٢) وقد قام بعض الباحثين، وهو الأستاذ منذر أبو شعر بجمع تلك الألفاظ والشروح وصنع معجما اسمه «معجم محمود محمد شاكر» طبعة المكتب الإسلامي- بيروت، لبنان ٢٠٠٧.

(٣) ونعني به هنا تاريخ الأدب العربي لا التاريخ بشكل عام.

وهـو مرهـف الإحسـاس بالعلاقـة الدقيقـة بـين الأدب والتاريـخ، ويبـذل جهـودًا مضنيـة في سـبيل تنويـر جميـع المناطـق المظلمـة بينهـا، ويمتلـك بصـيرة فـذة في تنقيـد الأخبـار والروايـات والجمـع بينهـا»[1].

وأسـاس قيـام هـذا الأصـل التـاريخي عنـد شيخنـا أمران:

- منهجـه الفريـد في تـذوق الأخبـار، وفحصهـا بـدلالات الألفاظ وسـياقات البيان.
- اطلاعـه الوثيـق عـلى منهـج أهـل العلـم بالحديـث في الجـرح والتعديـل الـذي انفـردت بـه هـذه الأمـة عـن سـائر أمـم الأرض، فنظـر في هـذا العلـم متأنيـا، وتشـبع بـه مسـتظهرًا قواعـده التـي اسـتوت لـه بطـول الأنـاة والإقبـال اليقـظ مـع وجـلٍ في الحكـم عـلى الأسـانيد.

وهـذا أمـر أمـاط عنـه اللثام تلميذه الأثـير الدكتـور محمـود محمـد الطناحـي، حيـث يقـول: «ولا بـد لي مـن الإشـارة إلى علـم مـن علـوم العربيـة والإسـلام بـرع فيـه أبـو فهـر براعـة شـديدة، وهـو مما لا يعرفـه كثـير مـن النـاس فيـه: ذلـك هـو علـم الجـرح والتعديـل.. وهـو علـم يمثـل أرقـى المناهـج في قبـول الأخبـار وردهـا، وقـد وظفـه أبـو فهـر توظيفًـا جيـدًا في دراسته عـن المتنبي»[2]. وقـد أبـان الدكتـور الطناحـي رحمـه الله =أن تخريـج أحاديـث الطـبري كلـه عمـل خالـص لأبي فهـر، وإن كان قـد رجـع إلى أخيـه في مواضـع قليلـة جـدًا[3].

---

(١) محمود محمد شاكر الرجل والمنهج ص ١١٦ -١١٧.

(٢) في اللغـة والأدب دراسـات وبحـوث: تأليـف الدكتـور محمـود محمـد الطناحـي. نـشر دار الغـرب الإسـلامي- الطبعـة الأولى ١/ ٢٢٩. وهـو نعـتٌ فيـه تجـوز وتسـمح في العبـارة.

(٣) نفسه ١/ ٢٢٩. وقد ذكر ذلك شيخنا في رثائه لأخيه في مقدمة الجزء الرابع عشر من نشرته لتفسير الطبري.

وهـذا يفـسر لنـا سر القانـون الـذي سـار عليـه شـاكر في تزييـف الروايـات وتوثيقهـا، لأن مـن اسـتمكن مـن اسـتفاد مـن هـذا العلـم الجليـل -أعنـي نقـد الروايـات عـلى مناهـج أهـل العلـم بالحديـث- نظـرا وتطبيقًـا= أطـاق الـكلام عـن روايـات التاريـخ، وأزاح الظـلام الـذي يكتنـف الكثير منهـا، ورَدَّ الأمـورَ إلى أصولهـا عـلى سَـنَنٍ مـن النظـر العقلي والمنهـج التاريخـي.

ونظـرة إلى كتـاب المتنبـي نـرى مـن خلالهـا أبـا فهـر وهـو يؤلـف بـين النظـير والنظـير، وينقـض بنيـان الروايـات المحفوفـة بالغـرر، ويميـط عنهـا اللثـام ببيانـه الفريـد، فبـدت زائفـة لا قيمـة لهـا.

ثـم جعـل يؤلـف بـين الروايـات الموجـزة الوامضـة، ويعرضهـا عـلى **النظـر العقـلي لسـياق التاريـخ**، مسـتصحبًا التـذوق المرهـف الحـاد لبيـان المتنبـي عـن نفسـه في ديوانـه، ويربـط بـين ذاك وذاك، مـرة مـن بعـد مـرة، في غابة كثيفـة من الأخبـار المتشـابكة، والأقوال المتناقضـة، والروايـات المغسـولة مـن الحقيقـة، والعاريـة عـن المنطـق التاريخـي، حتـى اسـتقام لـه «عمـود صـورة» المتنبـي، فـشرع قلمـه يخـط كتابـه الـذي شـغل بـه سـاحات الأدب، وأقـلام الأدبـاء، وأنهـار المقـالات في الصحـف المقـروءة بـين أيـدي النـاس.

وهـذا في رأينـا الـذي امتـاز بـه كتـاب شـيخنا عـن المتنبـي، فلـم يميـزه وحسـب بيانـه العـالي، ولا جـودة تقسـيمه، وإنـما انـماز بأمريـن لا ثالـث لهـما:

- تـذوق دقيـق مرهـف حـاد يقـظ يسـمع همسـة اللفـظ، وأنـة العبـارة، وصـدى البيـت ينبـذه المتنبـي في نسـيج قصيدتـه، فيكـون البيـت بـل اللفـظ بـل الحـرف دليـلًا لامّعـا يرشـد بنـوره محمـود شـاكر إلى سرٍّ سـترته روايـةٌ غامضـة، أو معنًـى غيَّبـه ضبـابُ قصـةٍ ملتويـة، فيصحـح مسـار الروايـات وينفـي الزغـل والدغـل عنهـا فـإذا هـي متسـاوقة مـع ألفـاظ الديـوان وبيـان المتنبـي.
- منهـج تاريخـي يقـوم عـلى العقـل، وينهـض في سـاحة الحكومـة بـين الروايـات جميعًـا، ويهتـدي مـن خلالـه إلى النفـاذ في طبيعـة المتنبـي، وذاتـه، وحركـة حياتـه.

وكان من ثمرة ذلك أن نفى ذلك الشاب الصغير (سبعة وعشرون عامًا) قضايا لاكتها الألسنة وتناولتها الأقلام حقائقَ مسلمة، مستندًا على هاتين الدعامتين:

التذوق، وتفلية الأخبار وتمحيصها.

فنفى نبوة المتنبي، وزيف الروايات المصطنعة في ذلك، وهذا لم يسبقه إليه أحد حتى أتت مخطوطة الربعي لتثبت صحة نظر أبي فهر وفرضه الذي وضعه قيامًا للكتاب.

وأثبت قضيتين لا تقلان عن هذه إثارة للعجب والدهشة، لمباينتهما لما ألفه الناس ورددوه سنين طوالا، وهما بإيجاز شديد:

- علوية المتنبي، وأن نسبه ينتهي إلى سيدنا علي رضي الله عنه، وليس إلى سقاء كما تصنَّع التنوخي وغيره.
- حب المتنبي خولة أخت سيف الدولة.

وأما الأولى، فقد أثبتها تذوقًا للشعر، وتتبعا لمعانيه، مع استناده إلى خبر صغير طمرته الأيام في خزانة البغدادي[1] يقول: أن مولد المتنبي كان بالكوفة.. واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة.

فأمسك أبو فهر بذلك الخيط الرفيع، يمده بزاد من القراءة الفاحصة للديوان، وتتبع هذا النفس العلوي في بيان أبي الطيب، وعلاقته بالعلويين، واعتداد المتنبي بنفسه، وتمجيده لجدوده.. وشيئًا فشيئًا استقام له ذلك الفرض المستند على ذلك الخبر الفرد، وألقى به عاريًا أمام الناس، تناله سهام النقد، أو همهمات التقدير!

وتمر الأيام، وتتكشف خزائن المخطوطات عما يؤيد هذا الفرض الذي تعلق به شاكر صغيرًا، حيث جاءه صديقه العلامة أحمد راتب النفاخ بأوراق مخطوطة

(١) خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي. طبعة الخانجي، تحقيق الأستاذ العلامة عبد السلام هارون رحمه الله ١/ ٣٨٢.

محفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعد محمد بن أحمد الحميدي، ونقلها ناسخ النسخة من تاريخ دمشق لابن عساكر، وكان فيها ذكر مولد أبي الطيب، وهذا النص «**وأرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله**»[(١)] ويعلق شيخنا بعد حديث طويل وسرد لبعض الأدلة:

«وهذه كلها أدلة متظاهرة جاءت من وراء الغيب، لكي تدلني على أن منهجي في التذوق يفضي إلى كشف الحجب عما طمره غبار السنين، وما ستره تكذب الرواة ذوي الأهواء.. وأني حين أعملت هذا الفرض وحكمته في نقد أخبار نبوته.. كنت موفقًا بحول الله، وأن خبر النبوة أقحم إقحامًا خبيثًا لستر علوية المتنبي»[(٢)].

وأما الثانية، أعني حب خولة، فلم تكن إلا فرضًا متولدًا من ثنايا قصائد المتنبي، ولم يكن له ما يسنده من الروايات التاريخية، ولكن شيخنا يخبرنا أن أحد أصدقائه، وهو الأستاذ محمد سامي الدهان، دخل عليه في يوم من الأيام ينبئه بخبر سعيد سارٍّ، وهو أنه وجد فيما وجد من مخطوطات ما يدل على حب المتنبي لخولة أخت سيف الدولة، وأن ما قاله محمود شاكر بالنظر العقلي المجرد للأحداث والتاريخ، المستند على الاستنباط المحض، كان صحيحًا لا شوب فيه.. إلا أن هذا الصديق غاب غيبة الأبد، فلم يظفر شاكر بهذا العِلق النفيس[(٣)].

ومن خلال هذا الإحساس بالتاريخ أعاد شاكر ترتيب القصائد التي لم تؤرخ في ديوان المتنبي، وكان هذا عملًا شاقًا أتاح للباحثين من بعد فرصة لنظرة جديدة إلى ديوان المتنبي، وتطور نفسية الرجل وبيانه، سنةً من بعد سنة[(٤)].

---

(١) انظر المتنبي ص ٥٥ وما بعدها، فقد قص شاكر قصة المخطوطات بتمامها، ونشرها ملحقة في نهاية الكتاب، مُعَلِّقًا عليها.

(٢) المتنبي ص٥٩ بتصرف واختصار.

(٣) انظر المتنبي ص ٦٩.

(٤) انظر في اللغة والأدب للطناحي ١/ ٢١٣.

ولا يفوتنا أن نذكر خبر راهب دير الفاروس[1] الذي أعمل فيه أبو فهر عقله، ونظر إلى الخبر في سياقه التاريخي، فوجده يتداعى بين يديه غير متماسك، وأبطله بوجوه كثيرة من النظر، منها منهجه النقدي التاريخي.

ومن آثار هذا المنهج التاريخي كان إبطال شاكر لكثير من الزيف الذي سطره الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه العدالة الاجتماعية، وبين الكثير من الأخطاء الفواقر التي كان سيد وقع فيها من همز سيدنا عثمان والطعن في سيدنا عمرو وسيدنا معاوية، وقبول الأخبار المتهالكة في مجون يزيد بن معاوية[2].

ومن هذا النظر النقدي التاريخي= نفي أن يكون لقب الخليفة العباسي أبي العباس «السفاح» مقصودًا به الذم، وسفك الدماء[3]، واستند إلى روايات التاريخ، وعادات المجتمع المسلم آنذاك، ودلل على ذلك بالأدلة التاريخية الحديثية واللغوية، ثم قال: «فلعل الإمام محمد بن علي قد لقب ولديه - أبو جعفر وأبو العباس - بهذين اللقبين - المنصور، والسفاح - تفرقة بينهما، وتفاؤلًا بالذي يروون في أحاديث الدعوة العباسية. وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى اللقب إذن ليس من سفح الدم.. ولكنه من الكرم، والعطاء والبذل؛ لأنه لا يصح في العقل أن يُلَقِّب أحدٌ ولده بهذه المذمة القبيحة وهو ينصبه للناس خليفة، وقد لقب أخوه من قبل المنصور؟!»[4].

وجعل يورد الدليل والحج والبرهان العقلي على صحة ما ذهب إليه من تصحيح تاريخ السفاح، وأن لقبه هذا كان للمدح بالجود لا للذم والتقبيح.

والأمثلة على هذا المنهج النقدي التاريخي وفيرة متعددة، وفيما قدمنا غنية، وكفاية إن شاء الله رب العالمين.

---

(١) هذا الخبر ونقده عندي= أهم ما في كتاب أبي فهر رحمه ورضي عنه، ثم يأتي كل ما في الكتاب بعده؛ لأن فيه أسلوبه في النظر وتحليل الكلام، وهو أهم شيء يظفر به طالب علم.

(٢) في مقالات متواليات: حكم بلا بينة، وتاريخ بلا إيمان، ولا تسبوا أصحابي، وألسنة المفترين. انظر جمهرة المقالات ٢/ ٩٧٠-١٠١٠.

(٣) جمهرة المقالات ١/ ٦٨-٦٩.

(٤) نفسه ١/ ٧٠.

فهـذا هـو المنهـج النقـدي التاريخـي الـذي شـاد شـيخنا معالمـه ونهـض بهـا، كـما لم ينهـض بهـا أحـد سـواه مـن أبنـاء جيلـه.

وبهـذا يكـون قـد انتهـى هـذا البحـث الموجـز المختـصر الـذي حـاول الإبانـة عـن شيء مـن منهـج هـذا العبقـري الجليـل في دراسـة الأدب العـربي، بـما أَهَّلَـهُ ليكـون إمـام العربيـة في زمانـه، فلعـل فيـه بعـض النفـع لمـن أراد النظـر في هـذا السـبيل.

وبعـد، فهـذا كـد الضعيـف، وتعـب المحـب، سقته إليـك عـلى قـدر الوسـع، راجيًا أن يكـون فيـه مـا ينفـع النـاس ويمكـث في الأرض، ومـا يضيء الطريـق لاحبًا بـين يـدي مـن أراد فهـم البيـان، وهـو السـبيل الـذي ينهـض بطالـب العلـم، ويعينـه عـلى البـصر بـكلام الله تعـالى، وكلام رسـوله صـلى الله عليـه وسـلم، وهـو يعلـم شرف البيـان، وجليـل منـة الله بـه عـلى عبـاده.

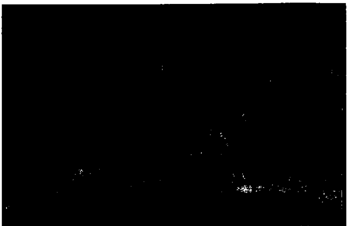
ظل الكريم

الباب الخامس

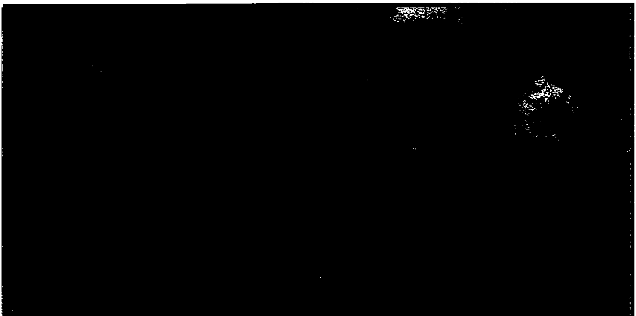
بعض الذكرى

ملحق الصور التي لم تنشر من قبل
في كتاب، مع نماذج من خط شيخنا
وتعليقاته على الكتب

بعض الذكرى



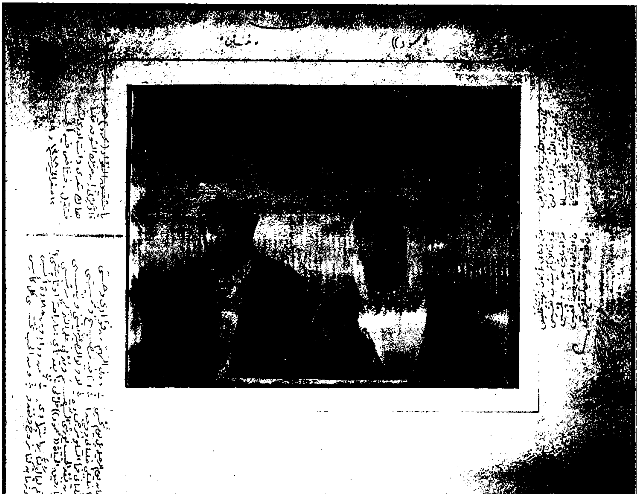
أبو فهر في خلوته



أبو فهر وعن يمينه مالك بن نبي



مع الشيخ عبد الكريم الخطابي



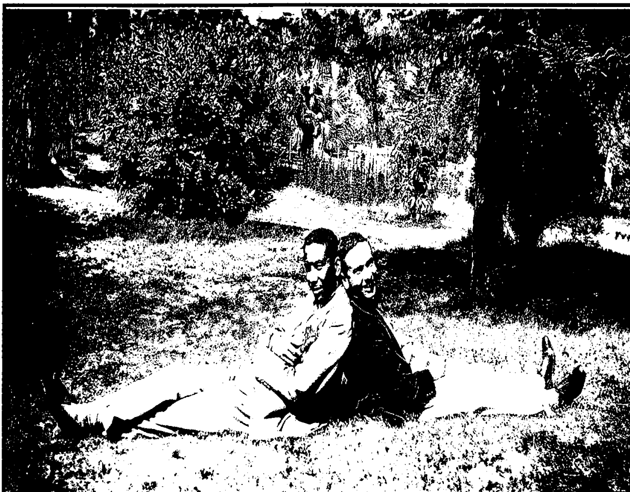
مع صديقه حسين نصيف وأبيات شعر متبادلة



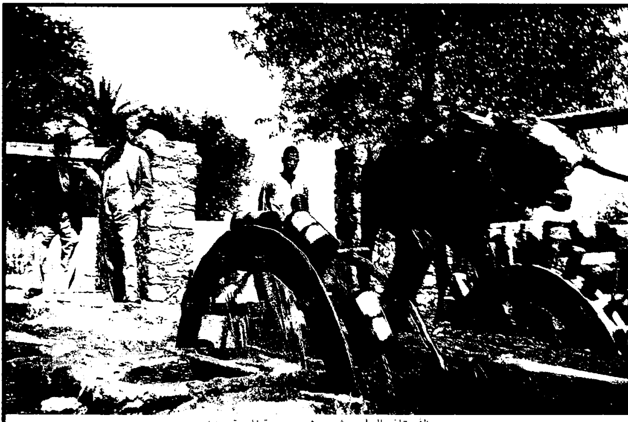
أبو فهر في صباه



مع وجيه جدة الشيخ/ محمد نصيف. ويظهر في الصورة الشيخ حامد الفقي رحمه الله



في حديقة الاورمان، مع صديقه محمود محمد الخضري



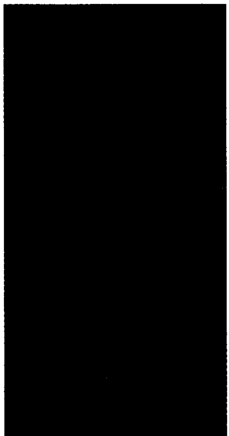
الأستاذ بالطربوش، وهي صورة نادرة جدا



في الكويت مع الأستاذ جمعة الياسين



مع علال الفاسي

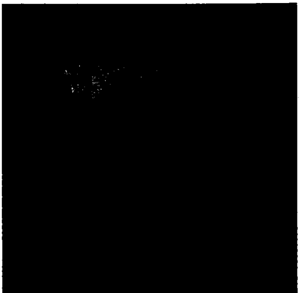


في الأربعينيات


مع العلامة حمد الجاسر


أبو فهر في صباه

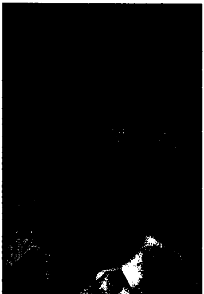

صورة عتيقة


صديقه الأستاذ حسين أفندي نصيف


الشيخ محمد نصيف



في مركـز جمعـة المـاجـد



أثناء تحقيق الطبري تقريبا



صورة سعيد العريان إهداء إلى أبي فهر



أبو فهر مع الزعيم الكبير علال الفاسي



في مؤسســة الفرقــان

Al Furqan
ISLAMIC HERITAGE FOUNDATION

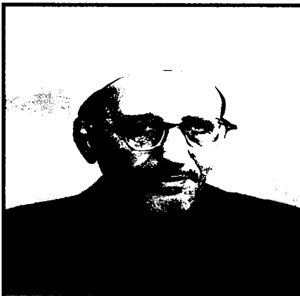
Office of the Chairman

صورة تذكارية بمناسبة الاجتماع الأول
للمجلس الإستشاري الدولي ولجنة الخبراء
لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
بمقر المؤسسة بلندن في ٣ ديسمبر١٩٩٣

الجالسون من اليمين إلى اليسار: *الشيخ عبد العزيز الرفاعي، الدكتور چورج عطية، الدكتورصلاح الدين المنجد، الشيخ أحمد زكي يماني، الأستاذ محمود شاكر، الشيخ حمد الجاسر، الدكتور ناصر الدين الأسد، الدكتورعبدالهادي التازي.*

الواقفون من اليمين إلى اليسار: *الدكتورخوان ڤيرنيه، الدكتور چان چاست ويتكام، الدكتورإنيس كاريتش، الدكتوراكمل الدين إحسان أوغلي، الدكتوريوسف إيش، الدكتورسيد حسين نصر، الدكتور إيرج افشار، الدكتورمونتجومري وات، الدكتور أنطون هاين، الدكتور أورهان بلجين، الدكتور شارل دى فوشكور.*

بيان بأسماء من في صورة مؤسسة الفرقان



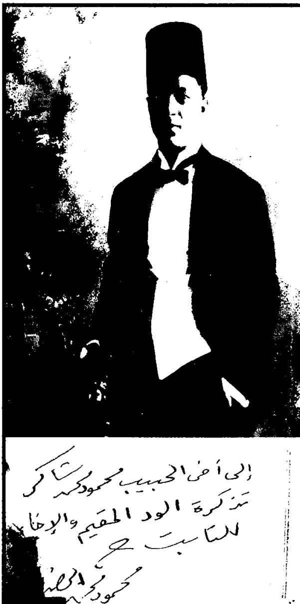
العلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله



أبو فهر



مع صديق العمر محمود حسن إسماعيل بالكويت



إهداء صديقه محمود الخضري الذي ذكره في المتنبي

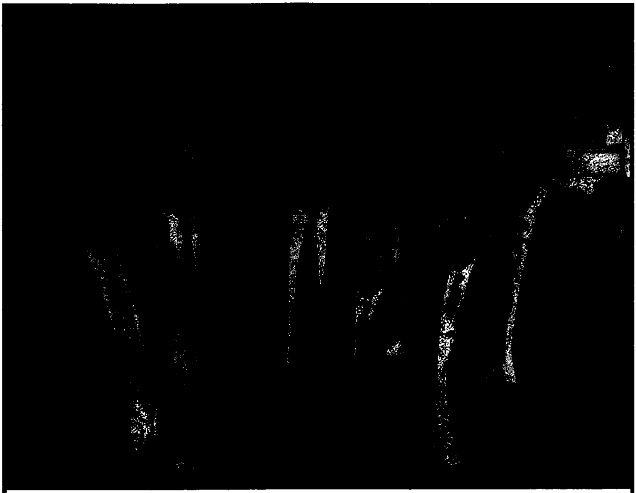


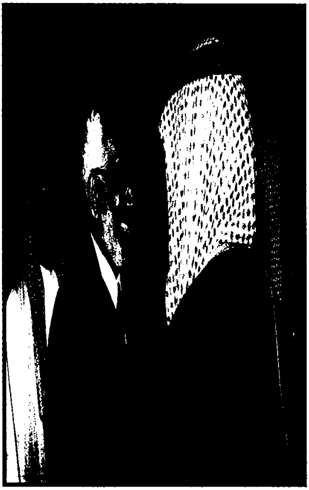
مع الأستاذ عبدالله محارب

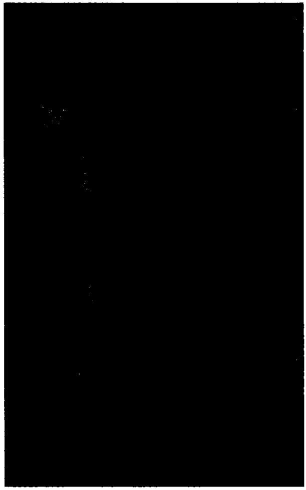

شابًا صغيرًا


شابًا يافعًا


في نهايات الخمسينات تقريبًا


في حفل استقباله بمجمع اللغة ومعه صديق عمره يحيى حقي والعلامة عبد السلام هارون







في حفل تسلم جائزة الملك فيصل



سنة ١٩٣٦م، أيام تأليف المتنبي



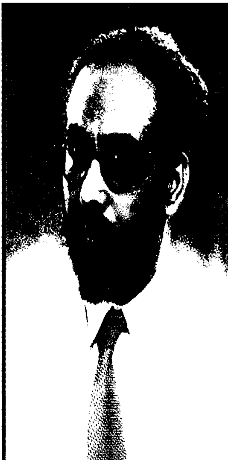
سنة ١٩٣٠م



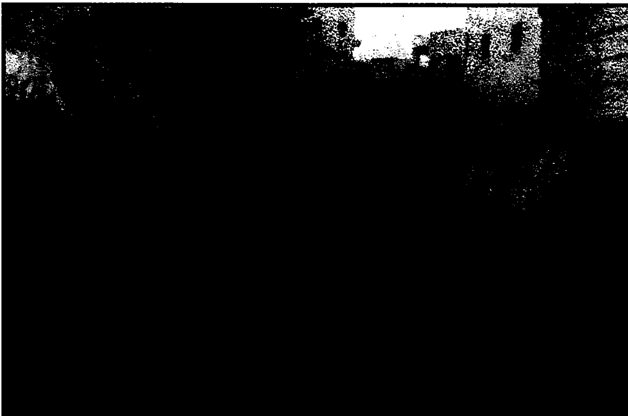
في مناقشة دكتوراه ابنه فهر. وعن يمينه د. يوسف خليف، وعن يساره د. سيد حنفي ود. محمود علي مكي



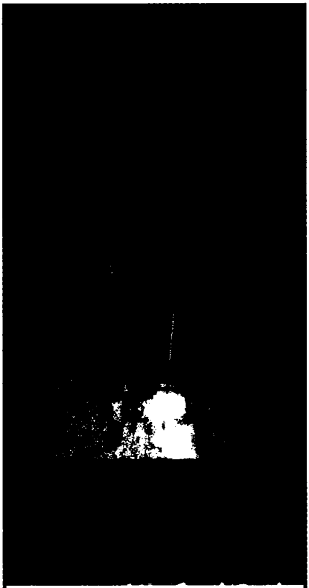
في نزهة مع العائلة بالأهرامات



صورة أخرى في الشباب



مع صديقه المفكر الأستاذ مالك بن نبي الثالث من جهة اليسار


أبو فهر في شبابه مع السيد محمد نصيف بجدة، (١٩٢٨م)


والده الشيخ محمد شاكر رحمه الله


مع الأسد أقصى اليسار في الصف الأول. ومحمد رشاد عبد المطلب يمين الصف الأخير. وبجواره الطناحي



في الكويت



إهداء من العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد



مع الخيل في الكويت



سنـــة (١٩٦٣م). وهو في عزلتـــه عن الكتابـــة



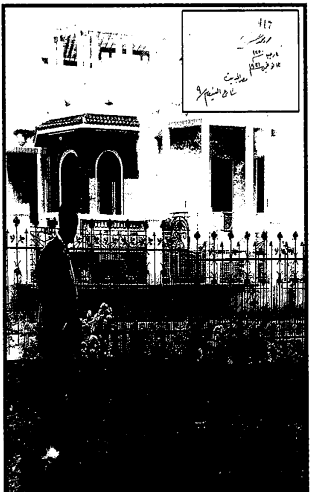
مع الأسرة في الأهرامات. وفوق الجمل زلفى وفهر



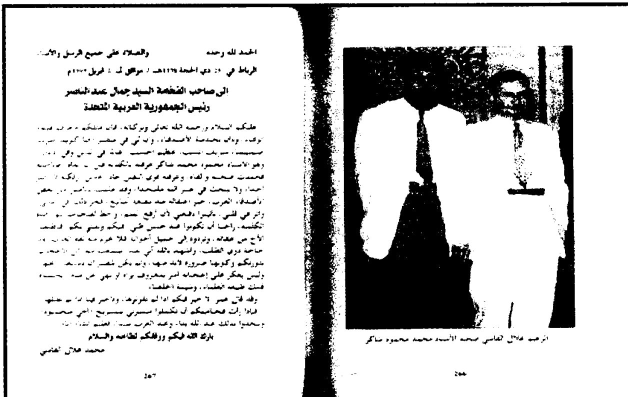
في مناقشة. وعن يساره ناصرالدين الأسد



إهداء من العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد



بمصر الجديدة، عام (١٩٣١م)



الحمد لله وحده والصلاة على جميع الرسل والأنبياء

الرباط في [illegible] ذي الحجة [illegible] هـ / موافق [illegible] أبريل [illegible] م

الى صاحب الفخامة السيد جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة

عليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. [illegible]

[illegible] وهو الأستاذ محمود محمد شاكر [illegible]

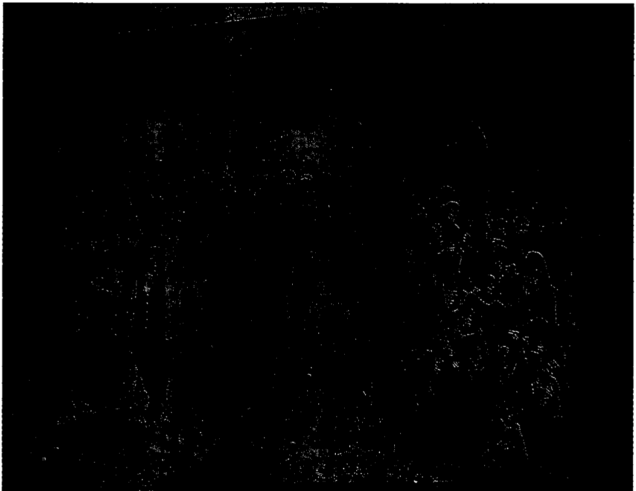
[illegible]

بارك الله فيكم ووفقكم لطاعته والسلام

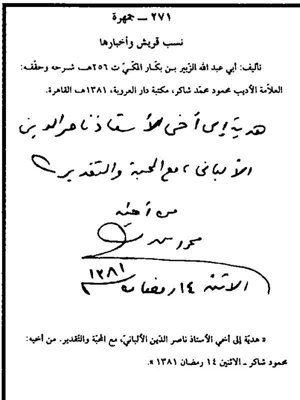
محمد علال الفاسي

الزعيم علال الفاسي يصحبه الأستاذ محمد محمود شاكر

رسالة علال الفاسي إلى جمال عبد الناصر يحثه على إطلاق سراح شيخنا



مدرسة جدة التي كان ناظرًا لها



٢٧١ ـــ جمهرة

نسب قريش وأخبارها

تأليف: أبي عبد الله الزبير بن بكّار المكّيّ ت ٢٥٦هـ شرحه وحققه:

العلامة الأديب محمود محمّد شاكر، مكتبة دار العروبة، ١٣٨١هـ القاهرة.

هدية إلى أخي الأستاذ ناصر الدين

الألباني، مع المحبة والتقدير

من أخيه

محمود شاكر

الاثنين ١٤ رمضان ١٣٨١

« هديّة إلى أخي الأستاذ ناصر الدّين الألبانيّ، مع المحبّة والتّقدير. من أخيه:

محمود شاكر ـ الاثنين ١٤ رمضان ١٣٨١ ».

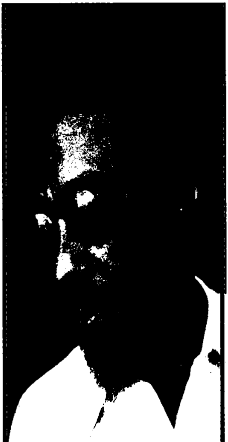
إهداء شيخنا إلى العلامة محمد ناصر الدين الألباني



مع علال الفاسي



مع الشيخ أحمد زكي يماني



أثناء تحقيق الطبري



مع ناصر الدين الأسد



صورة نادرة لأبي فهر في صالون عبد الكريم الرفاعي بمكة



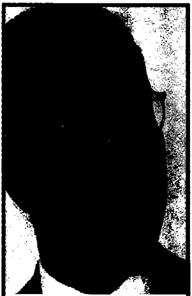
الشيخ محمد شاكر



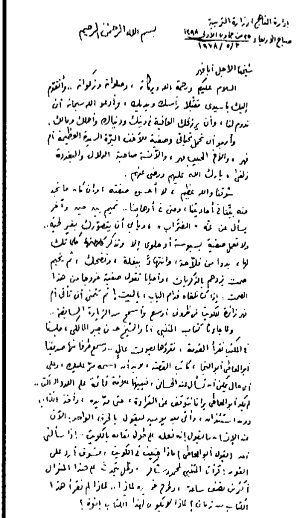
في الربيع، مع بعض الأصدقاء



مع ناصر الدين الأسد

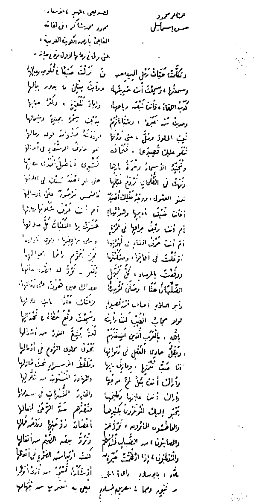


في شبابــه



بسم الله الرحمن الرحيم

جزء من رسالة من البسيوني
للشيخ محمود شاكر
رحمه الله



الشاعر محمود حسن إسماعيل

قصيدة الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل
في استقبال أبي فهر بالكويت
وهي بخط العلامة عبد الحميد البسيوني

محمود محمد شاكر

١

لا تقولوا زال العنادُ فقِفا [illegible] ربما كان [illegible] أوفى

علم الله أنني كنتُ أشتاقُ ، ولكنْ شوكٌ على البابِ فسنا

لا تقولوا زال العنادُ جفاءً ، علم الله أين كان أنا

وبنا ساكنةٌ [illegible] أنني [illegible] [illegible] [illegible] نُهِضا تُقضى

أقلقتْ أسطرَ الجريدةِ عيني واستهلّتْ - فلم أكفكفْ العينا

[illegible] ما شئتُ [illegible] لي ، وأنعى الكثيرَ المكينا

[illegible] [illegible] أفسح [illegible] [illegible] بالمحبةِ كُنّا

لا تقولوا زال العنادُ جفاءً ، إنه فصلُ الضفافِ [illegible]

إنه كان [illegible] ، أنتَ [illegible] [illegible] عصيتَ فيه [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] الجسمَ [illegible] لمّا [illegible] [illegible]

[illegible] إلى مغالبةِ الشوقِ [illegible] نفسٌ [illegible] [illegible]

[illegible] الكريم [illegible] [illegible] إذا [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أشتكي

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] شاكراً له ، [illegible]

[illegible] [illegible] يقيناً أنه لي في فؤاده [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كنا [illegible] ، وحبيبة [illegible]

[illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] للفروسة [illegible] [illegible]

كم قرأنا [illegible] [illegible] إماماً ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ووقعنا على [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] - والدهرُ [illegible] [illegible] [illegible] للكتابة [illegible] [illegible]

ووقعنا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الوزنا

ولقد [illegible] [illegible] أنتَ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] الله [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأمة [illegible]

ولقد كان - والعاذلُ [illegible] [illegible] [illegible] - [illegible]

ولقد كان - والغرامُ [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible]

٢

شيّعوه ، فإنما خلود العظيم ليسقي بنا زماناً ويفنى

شيّعوه من قبل أن تعربد الشمس [illegible] [illegible] على [illegible]

شيّعوه من قبل أن يشرق الآمال [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] الدوحة العربية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] عليه [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible]

شيّعوه [illegible] الزمان [illegible] [illegible] الكلام [illegible] [illegible]

شيّعوه ، [illegible] الزمان الذي كان [illegible] الهواء [illegible] [illegible]

شيّعوه ، مضى الزمان الذي كان إذا [illegible] فيه [illegible] [illegible]

والذي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إحسانه والحسنا

والذي كان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

شيّعوه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] - أسْنا

شيّعوه : وما الحياة إذا لم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

شيّعوه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ليت شعري أهل [illegible] [illegible] [illegible] - أم [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] ، وما [illegible] أبا فهر ، [illegible] ، [illegible] لو [illegible]

[illegible] أنت من [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

شيّعوه [illegible] [illegible] على [illegible] ، [illegible] إذا [illegible] [illegible]

وسلامٌ عليه [illegible] [illegible] يوماً ، [illegible] [illegible] [illegible]

ورضا الله [illegible] : كان [illegible] . [illegible] أن [illegible] الله [illegible]

إنه ، والذي أمات وأحيا ، والذي أفقر العباد وأغنى -

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أين [illegible] [illegible] أين أبا [illegible]

الحساني حسن

رثاء الشاعر الفحل الحساني حسن عبدالله لشيخنا أبي فهر رحمه الله

عالم الأدب
للترجمة والنشر